بسام أبو شريف

وديع حدّاد

ثائر أم إرهابي



بسام أبو شريف

وديع حدّاد

ثائر أم إرهابي



Wadih Haddad

A Revolutionary or a Terrorist?

Bassam Abu Shareef

First Published in January 2014

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 573 - 0

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٤

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

إهـداء

أهدي هذا الكتاب

إلى من لوّحت الشمس جباههم

ولفّ العمل زنودهم،

إلى كل مظلوم على وجه الأرض،

إلى المستضعفين

البؤساء

الذين حرمهم الطغاة حريتهم

كما حرمهم المستعمرون أرضهم.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الكتاب.

بطل عالميّ من بلادي

وديع حداد صاحب الرؤية الثاقبة والموقف النافذ

اغتالوا الحياة عند سور بيته الذي بناه أجداده في صفد، فقرر ألاّ تموت الحياة التي اغتالوها.

نفخ عزمه فيها من إرادته واستلّ سيف القوة من جراب الضعيف.

قاتل وهو مثخن بالجراح. قاتل ببأس الأسود الجريحة. علّم الأشبال كيف تقوى لتصبح أسوداً.

علّمهم أن القويّ يُحترم على هذه الأرض.

وأن القوي لا يمكن أن يكون لقمة سائغة لمن طمع فيه،

وأراد أن يغتصب ما له وما يزرع وما يحصد.

علّمهم أن القوي لا يقوى بدرعه وآلته،

وأن الضعيف يمكن أن يكون القوي بعقله وفطنته وفكرته.

علمهم أن حجراً تصوبه يد طفل ضعيف نحو جذع آلة، ودرع حصين، يقتلها ويتركها عاقراً.

وديع حداد جمع العالم من خلال ثوريِّيه وممثلي ضعفائه وفقرائه، فقادهم نحو الحرية والتخلص من الاضطهاد.

علمهم أن من أحرقت الشمس جباههم لا يخشون القمر، وأن من شققت يديه الصخورُ لا يهاب الحجر.

علمهم أن قبضة قوية، تدفعها إرادة جليّة، قادرة على تفتيت الصخر وتلقّي نصل سكين أو طعنة رمح.

علّمهم أن النصر لا يأتي إلاّ بالإصرار عليه وبالعمل الذي لا يتوقف لتحقيقه.

علّمهم أن الحياة هي نقيض الموت وأن هزيمة الموت لا تأتي إلاّ بالكرِّ

عليه وليس بالفرار منه.

الحق هو الأقوى،

الكفاح هو الأقوى،

الإرادة في العيش هي الأقوى.

إنها الحرية ولا مكان للعبودية في أمة قاتلت من أجل حرية الآخرين.

إن الظلم لا يولِّد إلاّ الكفاح، وسلب الحقوق لا يولد إلاّ النضال لاستعادتها؛

وإن حرمان الشعوب من حريتها وثرواتها لا يولِّد إلاّ كفاحاً يدمر الغزاة الطامعين.

ستبقى دروس وديع حداد لامعة، وسيبرز جيل من بعده مستعدّ للكفاح من أجل الحق والحرية والعدالة.

وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

من هو وديع حداد

وديع حداد شخصية شغلت العالم على مدى عقدين من الزمن.

البعض يطلق عليه لقب «الإرهابي»، والبعض الآخر يعتبره بطلاً قومياً ووطنياً.

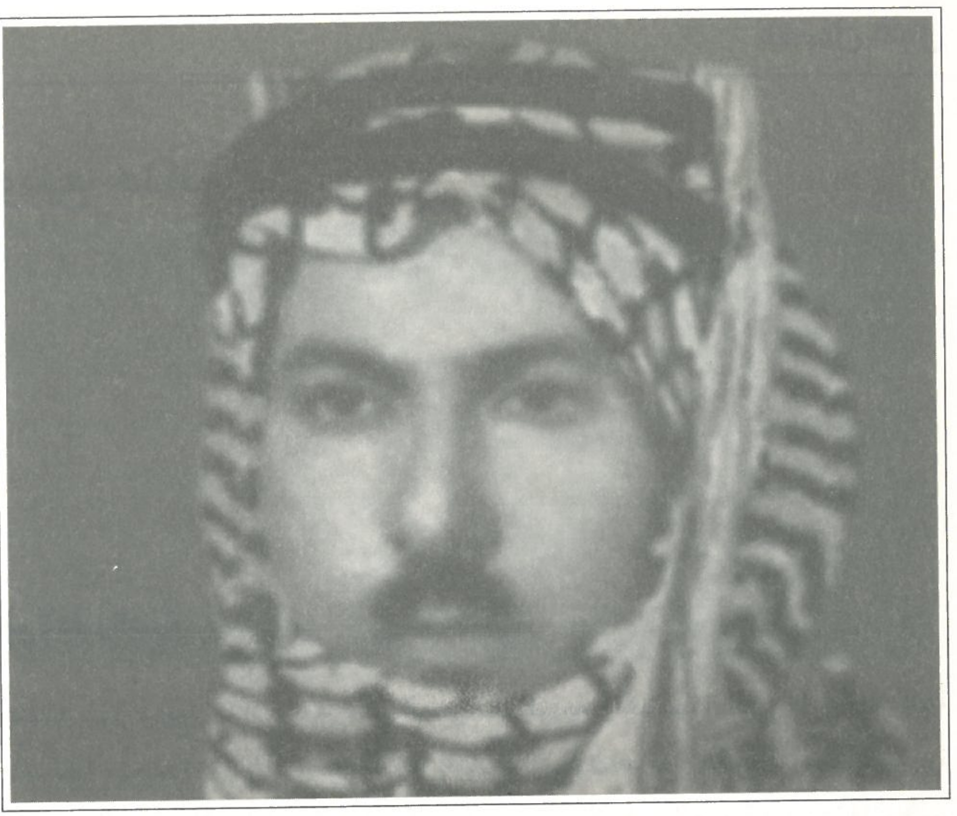
أعداء الشعب لقّبوه بالإرهابي، والمناضلون من أجل الحرية لقّبوه بالمعلم، واعتبره الفلسطينيون والعرب بطلاً قومياً ووطنياً.

وديع حداد

الولادة والنشأة

عندما بلور وديع حداد أسس هذه المدرسة الثورية وأهدافها، التي ما زالت قائمة بأشكال متعددة، كان له من العمر إثنان وأربعون عاماً. لكن قناعته بضرورة اللجوء إلى السلاح لطرد الغزاة والمعتدين من الأرض العربية، ومن فلسطين بشكل خاص، ترعرعت معه منذ عام ١٩٤٨ بعد أن شاهد بأم عينه الفظائع التي ارتكبتها العصابات الصهيونية المسلحة ضد الشعب الفلسطيني الأعزل والمسالم.

كان عمره واحداً وعشرين عاماً عندما ارتكبت العصابات الصهيونية الجرائم الجماعية ضدّ مدن وقرى فلسطين، فأجبرت أهلها بقوة السلاح القاتل على النزوح. كان وديع حداد وجورج حبش، طالبا الجامعة الأميركية في بيروت، ممّن شاهدوا ذلك بأعينهم. إذ عاد الطالبان على عجل إلى مدينتي صفد واللّد حيث عائلتاهما دون أن يتمكنا من دفع الأذى، بل كل ما تمكنا من فعله هو مساعدة الأطفال وكبار السن من العائلتين على النزوح إلى أماكن آمنة. منذ تلك المشاهد ابتدأ التصميم في قلبيهما وعقليهما: التصميم على القتال لاستعادة الوطن وطرد الغزاة.



وديع حداد عام ١٩٦٨ في الأردن: تأسيس الجبهة الشعبية، مخيم الوحدات

وُلد وديع حداد في ٢٨ آذار/مارس من العام ١٩٢٧، في مدينة صفد حيث كانت عائلته تعيش منذ قرون. وعائلة حداد في صفد هي عائلة مسيحية بَنت بنفسها منازلها وزرعت الأرض. ترعرع أبناؤها في تلال صفد الجميلة التي تطل على بحيرة طبريا، بحيث تستطيع أن ترى منها مرتفعات الجولان وهضبتها وسفوحها التي تؤدي إلى منطقة «الحمّة».

كان والده معلماً في مدرسة تابعة للكنيسة الأورثوذكسية، وقد شيّدت العائلة بعناءِ أياديها البيت الذي ولد فيه وديع. فكان، وظلّ، أجمل مكان لوديع حتى اغتياله.

ولادة شاقة

النكتة الشائعة عن ولادة وديع حداد تعكس حقيقة حياته عندما شبّ وأصبح رجلاً.

في الليلة التي شعرت والدته بالمخاض، استنفرت جاراتها في صفد فهرعت نساء العائلة ذوات الحكمة والتجربة، كل واحدة منهن تحمل «بشكيراً» معقّماً وتغليفة بيضاء جديدة «الكوفية». عند منتصف الليل بدأت عملية الولادة بآلامها وصراخها. بخار الماء كان يتصاعد من قدر وضع على «بابور كاز» خارج الغرفة. أمسكت النساء بأيدي الأم الحامل. كنّ يشجعنها ويطلبن منها أن تأخذ نفساً عميقاً، والضغط بأقوى ما تستطيع لإخراج الطفل كما لو أنها تعاني من إمساك شديد في الأمعاء. كان عليها أن تشدّ وتضغط لإخراج الطفل.

خرج الطفل، وصرخ الجميع: ولد! ولد! لكن الألم لم يتوقف كما هي العادة بعد خروج الطفل وظنّت النسوة أن حبل الصرة يشد به. وإنما حتى بعد ذلك لم ينته الألم. طفل آخر على الطريق بدأ رأسه يطل. تكررت العملية نفسها، ضغطاً وشدّاً. خرج الطفل الثاني. ولد! ولد! صرخ الجميع فرحاً. إنهما توأمان.

إرتاح الجميع. انهمكت النساء في «تحميم» الطفلين وتنشيفهما بالبشاكير النظيفة المعقّمة. إذاً انشغل الجميع بالطفلين، إلاّ الأم، إذ استمر الألم على أشده.

إقتربت إحدى النساء الخبيرات متسائلة: ربما هناك طفل ثالث؟ قالتها بصيغة التنبؤ والتساؤل. عادت الأم إلى الضغط والشدّ والتنفس. فأطلّ الثالث برأسه وعيناه تغمضان وتفتحان كأنه لا يصدق ما يحدث. ولد... ولد... صراخ.

في ٢٨ آذار من العام ١٩٢٧ ولد جورج وبشير ووديع ـ هو كان ثالثهم.



يتسلّم ميدالية رياضية في حيفا قبل النكبة

كأنّ وديع قد أرسل بشير وجورج قبله ليخرجا ويتأكدا له من أن الطريق آمنة. فعندما شب وكبر وأصبح قائداً، بقيت المعادلة ذاتها: يرسل دائماً من يستطلع الطريق ليتأكد أنها آمنة قبل أن يعبرها.

في وصف وديع حداد

لفت انتباهي عندما صافحته أول مرة في العام ١٩٦٣ أن أصابعه طويلة نسبياً رفيعة، ولمستها دقيقة وسريعة. نظرت إليه: كان أصلع الرأس إلاّ من شعر يلتف من صدغيه إلى الخلف فيلتقي عند منتصف أعلى الرقبة. نظرت إلى وجهه:

كانت قسماته الدقيقة تنحني أدباً، يبدو عليه الحياء والتواضع واحترام الآخرين. قسماتٌ هي كانت طلته الأولى عليهم. تدريجياً يكتسي وجهه ثوب الجدّية، فتنتصب ملامح وجهه استعداداً وحزماً والتزاماً. وعندما يخوض موضوع البحث،

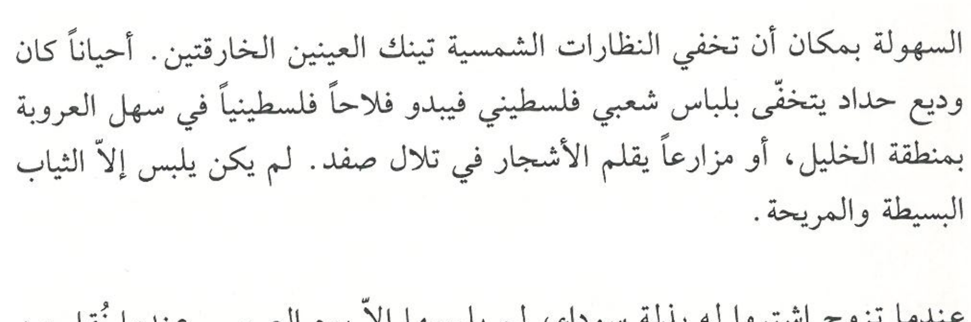
وهو في أغلب الأحوال موضوع هجوميّ، تشرئب في عينيه نظرة القائد الذي لا هوادة في هجومه، ولا بديل عن الانتصار في عينيه اللتين تخرقان كمبضع جراح، تسبران عمق محدّثه لتكشف عن طيبة يراها محدثه. تبحثان في الأعماق عن مقدار الشجاعة أو التردد.

كانت تلك النظرات هي تشخيص الدكتور وديع حداد لمن يقف بين يديه، وطريقته لمعرفة «الوصفة» اللازمة ليحوِّل محدثه إلى الشخص المطلوب بشجاعة وجرأة وإقدام ودقة واحتراف في العمل الحساس الذي سيقوم به. وبين سبر للأعماق وآخر يطلق وديع حداد سؤالين. هو لا يطيق البطء في الإجابة أو الإطالة. يتوقع من الجميع الاندفاع ويرفع إبهامه عندما يرى تردداً.

طويل القامة، رشيق الخطوة، عندما يسير يخطو كأنما يطوِّع الأرض لقدميه بلطف وخفة، ولا تقيم قدماه طويلاً في موقع واحد. رفيع، لا يختزن شحماً، وهذا يوحي لناظره بطول إضافي. عندما يبتسم وديع فإنما بخجل، وإذا ضحك يبتسم أكثر فتظهر أسنانه صغيرة الحجم، وعندما يغضب فبخجل أيضاً. أما عندما ينفجر غضبه انفجاراً، فيتحول من التواضع إلى الانقضاض.

يحترم الجميع ويتوقع من الجميع أن يبادلوه ذلك. لكن حالة وديع «العقل المدبّر» كانت تفرض على الجميع احتراماً ممزوجاً بالرهبة والمحبة والطاقة والاستعداد لخوض المعارك. أن يكون أصلع، رقيق الملامح طويل القوام، رفيعاً وحركته دائمة لا تهدأ، بابتسامة عنوانها الخجل والتواضع، لَهُوَ أمر مكّنه من إتقان التخفي وتغيير الملامح والمرور على حواجز الأعداء دون عناء. ففي مخيم الوحدات بدا الدكتور وديع حداد شيخاً سلفياً. وفي معتقل الجفر في صحراء الأردن بدا بدوياً. وفي بيروت كنت تراه راهباً من أتباع دي لاسال، أو فرانسيسكانياً أو أورثوذكسياً.

أما الشّعر فكان يغيّره كما يشاء طالما أن له قاعدة راسخة هي الصلع. فمن



السهولة بمكان أن تخفي النظارات الشمسية تينك العينين الخارقتين. أحياناً كان وديع حداد يتخفّى بلباس شعبي فلسطيني فيبدو فلاحاً فلسطينياً في سهل العروبة بمنطقة الخليل، أو مزارعاً يقلم الأشجار في تلال صفد. لم يكن يلبس إلاّ الثياب البسيطة والمريحة.

عندما تزوج اشتروا له بذلة سوداء، لم يلبسها إلاّ يوم العرس. عندما نُقل من الجزائر إلى ألمانيا أصرّ على ارتداء تلك البذلة. لكن لباسه الدائم كان قميصاً صيفياً وسروالاً. فقد كان يقضي فترات طويلة في بغداد وعدن والجزائر. أما في الشتاء فكان يرتدي معطفاً كمعطف «كولومبو» عمره عقود من الزمن.

أحبَّ وديع الحياة. وأحبَّ الجمال، وحلم طوال عمره بصفد وجمال تلالها والمناظر التي تطل عليها المدينة: هضبة الجولان وبحيرة طبريا وسفوح الجليل. كان يرى في الأشياء والبشر جمال الحياة، وكان يقاتل مضحياً بالحياة من أجل الحياة الحرة، الكريمة، الجميلة التي تمنح الإنسان قيمة. كعازف بيانو كان يحرك أصابعه الرفيعة الطويلة خالقاً لحناً لكل من أحب الحرية والجمال. وكجراح استخدم مبضعاً دقيقاً ليزيل ما شوّه الإنسان، ليعيد إليه طلّته البهية، طلّة المحبة والعدل والحرية.

وديع حداد في الجامعة الأميركية في بيروت

بدأت حياة ذلك العبقري الذي دعا إلى ملاحقة أعداء الشعوب وأعداء الحرية وأعداء الإنسانية في كل مكان. في الجامعة الأميركية في بيروت تابع جورج حبش ووديع حداد دراسة الطب وتخرجا معاً. كانت عائلة وديع حداد التي هُجّرت بالقوة من صفد على يد العصابات الصهيونية المسلّحة، قد استقرت في لبنان، فيما استقرت عائلة جورج حبش المهجَّرة في الأردن. توجّها بعد التخرج مباشرة ليعملا مع وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة التي أنشئت للإهتمام



دفعة وديع حداد في الجامعة الأميركية في بيروت: الثاني من اليمين في الصف الثاني، وخلفه الدكتور أحمد الخطيب

بمخيمات اللاجئين المؤقتة في مناطق الأغوار وعمّان. وفي الوقت ذاته نشطا سياسياً لتنظيم الفلسطينيين والأردنيين في حركة القوميين العرب.

كان جوّ النكبة مسيطراً على المنطقة العربية بأسرها، لكن نصيب الأردن كان هائلاً بسبب عملية الترحيل والتهجير والمجازر التي ارتكبها المستعمرون العنصريون في المناطق الموازية للأردن. فقد أقيم في الضفة الغربية وقطاع غزة ثمانية وعشرون مخيماً للاجئين، وأقيم في الأردن خمسة مخيمات أشرفت الأمم المتحدة عليها جميعها.

في الأردن بدأ الطبيبان الشابان، جورج حبش ووديع حداد، ينشطان لبناء تنظيم لحركة القوميين العرب، كما اتفقا مع زملائهما المتخرّجين من الجامعة الأميركية بحيث توجه كل منهم إلى قطره العربي. في سورية بدأ هاني الصفدي نشاطه لبناء

التنظيم. في الكويت انطلق الدكتور أحمد الخطيب، كذلك في العراق وليبيا والخليج واليمن والجزيرة العربية ولبنان. ضمّت الحركة في صفوفها القيادية والتنظيمية خيرة الشباب العربي، فتقاسمت ثقل العمل القومي العربي مع حزب البعث العربي الاشتراكي. في الأردن كان النشاط في أوْجِه، نظراً إلى تواجد الدكتور جورج حبش مؤسس حركة القوميين العرب.

لم تكن فلسفة الحركة معقدة بل مباشرة: في متناول وملمس المواطنين العاديين. دعت إلى الوحدة العربية باعتبارها السبيل الوحيد لطرد المستعمرين والمحتلين من بلاد العرب، والوسيلة المثلى لجمع قدراتهم وطاقاتهم ومصادر ثرواتهم للنهوض والتطور والنمو. كان على جدول أعمال الحركة في بندها الأول التحرر من المستعمرين، لا سيما في فلسطين والجزائر واليمن؛ وإزالة القواعد العسكرية والأجنبية؛ وتأميم النفط والغاز العربيين.

في الأردن انضم عدد كبير من الشخصيات السياسية المثقفة ذات التأثير والنفوذ الشعبيين. كان منهم حمد الفرحان، ونزار جردانة، والدكتور جميل البسطامي، والدكتور عبد السلام قمحاوي، والمهندس غسان قمحاوي وعلي منكو.

مارست الحركة في المخيمات الفلسطينية قيادتها من خلال زعماء محليين هُجروا من مدنهم وقراهم في فلسطين. وضمّت، إضافة إلى أبناء العائلات والعشائر الكبيرة، زعماء العائلات والمثقفين من أبنائها المقيمين في المخيمات. اعتُقل جورج حبش ووديع حداد مع عدد كبير من السياسيين في الخمسينيات. تمكن جورج حبش من الهرب، وتبعه الدكتور وديع حداد إلى سورية ومنها إلى لبنان. منذ ذلك اليوم سيطرت على تفكير وديع حداد فكرة «عسْكرة» حركة القوميين العرب - أي تحويل الحركة إلى حركة مسلّحة. فقد لمس الجميع بشكل عملي أن مواجهة المستعمرين لا تعني أن الطريق مفتوحة أمام المظاهرات لتتوجه إلى الأراضي المحتلة وتعيدها. بل اكتشفوا بالتجربة أن هناك أنظمة لا يمكنها أن



وديع حداد خلال زفافه في دمشق في ٩ نيسان/ أبريل ١٩٦١
وإلى جانبه زوجته سامية وشقيقتها سليمة وبدا إلى اليسار شقيقه قيصر

تواجه أعداء الأمة العربية، وأن الحركة الشعبية ممنوعة من ممارسة النضال لتحرير الأراضي المغتصبة. شهد الوطن العربي في النصف الثاني من الخمسينيات تغيّرات مهمة جداً أكسبت الحركة الشعبية العربية خبرة، إذ كشفت بشكل عملي السياسة الاستعمارية للهيمنة على وطننا. عام ١٩٥٨ حدثت وحدة تاريخية بين مصر وسورية كانت حلماً للجماهير العربية. قرعت هذه الوحدة الأجراس: أجراس الإنذار في الغرب، وأجراس النهوض في الوطن العربي. كانت ثورة العراق التي أطاحت بالنظام الحاكم (نوري السعيد والملكية). قاد عبد السلام عارف وعبد الكريم قاسم التغيير في العراق، فأمم النفط العراقي، الأمر الذي أثار غضب الدول الاستعمارية الكبرى. فزادت دعمها لإسرائيل، وأنزلت قواتها على شواطئ لبنان (المارينز) أثناء حكم كميل شمعون. الهدف من ذلك ضرب الحركة

القومية في لبنان التي هبت مطالِبة بالوحدة وبعروبة لبنان. كما نزلت القوات البريطانية في الأردن لِـ «الحماية».

في عام ١٩٥٩، أثناء إحدى زيارات جمال عبد الناصر إلى سورية، توجه وفد فلسطيني من لبنان تقوده حركة القوميين العرب إلى دمشق لمقابلة عبد الناصر. طرح الوفد على الرئيس فكرة القتال الشعبي ضد إسرائيل. كان عبد الناصر صريحاً جداً، إذ أجاب الوفدَ بأن القتال المسلح سوف يدفع إسرائيل إلى الرد بالحرب على دولة الوحدة، وأن هذا سيعطيها فرصة تتحيّنها للقضاء على هذه الخطوة الجبارة التي ستعزّز قوة العرب يوماً بعد يوم. لذلك لا يمكن أن نعطي إسرائيل مبرراً الآن، وهي مدعومة كلياً من الغرب والولايات المتحدة الأميركية. حثّ عبد الناصر الوفد على البدء بتدريب الشباب والقيام بعمليات استطلاع وتخزين داخل الأراضي المحتلة إلى أن «يحين الوقت». على هذا جرى الاتفاق، ففتح أول معسكر تدريب للفلسطينيين في منطقة حرستا القريبة من دمشق لتدريب وتخريج الفدائيين. تخرجت أول كتيبة منهم، ووضعت تحت قيادة العقيد أكرم صفدي ـ ضابط سوري مقرب جداً من الرئيس جمال عبد الناصر.

إعتاد الدكتور وديع حداد على أن يختار الشباب ويرسلهم للتدريب في هذا المعسكر. كان أولهم شاب من مخيم اللاجئين في دمشق، سمّي بعد ذلك شيخ الفدائيين، هو أبو حسين العابد. بالفعل بدأت حركة القوميين العرب بإرسال دوريات من الفدائيين المدربين إلى فلسطين المحتلة بهدف الاستطلاع وتخزين السلاح والذخيرة. كان الجليل المنطقة التي تمّ تركيز الدوريات عليها لتحديد مواقع المعسكرات ومرابض المدفعية، فتمكنت من تزويد دولة الوحدة بمعلومات مهمة حول المعسكرات والمطارات الإسرائيلية.

لكن بدء الكفاح المسلح كان مجمداً بناء على طلب وحيثيات الرئيس جمال عبد الناصر. إلاّ أن هذا لم يُثنِ وديع حداد عن رؤية الوطن العربي الكبير ساحة قتال



حداد مع زوجته سامية ونجلهما هاني خلال استراحة في جبال لبنان عام ١٩٧١

ضد الاستعمار. اندلعت في تلك الأيام حرب مقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وضد الاستعمار البريطاني في اليمن الجنوبي. فانهمك الدكتور وديع حداد في العمل من خلال حركة القوميين العرب للمشاركة بإسناد تلك الثورات العربية، التي رأى فيها ـ كما الدكتور جورج حبش وزملاؤه ـ تحضيراً لمعركة فلسطين.

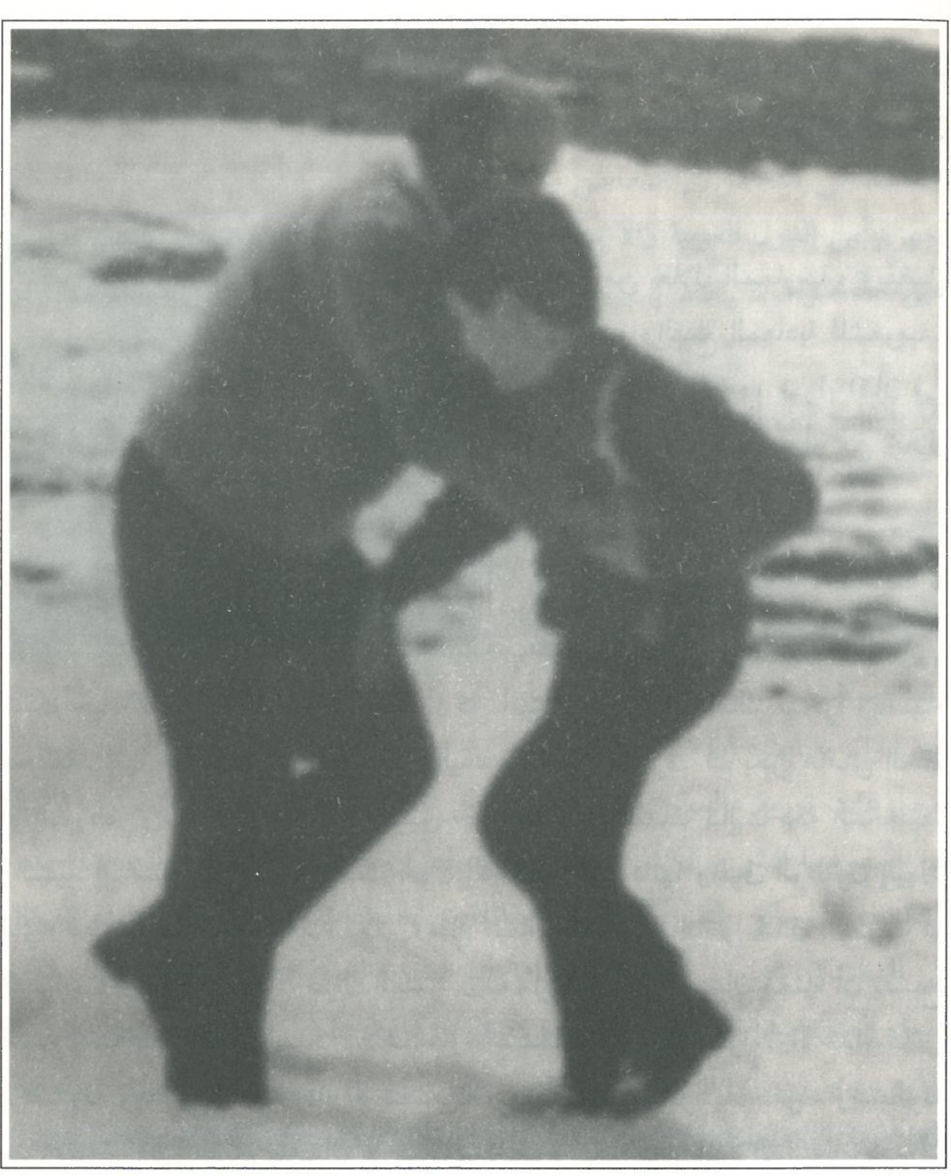
من حركة القوميين العرب إلى الكفاح المسلّح (عسْكرة العمل السياسي)

إنصبّ اهتمام الدكتور وديع حداد بعد عام ١٩٦٤ على رفد الجبهة القومية لتحرير اليمن رفداً قوياً داعماً للكفاح المسلح ضد القوات البريطانية، ودعماً عملياً بالمال والسلاح والرجال (جنباً إلى جنبِ بذلِ الجهد على التحضير الجدّي لكفاح مسلح

فلسطيني في ظل شعاره المرفوع: «فوق الصفر، تحت التوريط». إستخدم الفرص الكبيرة المتاحة لتدريب وتخريج الضباط الأكفاء القادرين على تدريب الآخرين والقيادة في فلسطين. فأرسل مجموعات من الشباب إلى الكليات العسكرية في مصر وسورية تحت غطاء منظمة التحرير الفلسطينية. واهتم بكل حيوية بتنظيم حملات الدعم للثورة الجزائرية. إلاّ أن جهده الأساسي كان مركزاً على ثورة اليمن ضد الاستعمار البريطاني، فأوْلاها كل إمكاناته وجهده وتابعها إلى أن أخرج ثوار اليمن القوات البريطانية المحتلة من عدن وأُعلن الاستقلال في العام ١٩٦٧، الذي احتلت فيه إسرائيل ما تبقى من أرض فلسطين ـ الضفة الغربية وقطاع غزة. شكّلت هزيمة الـ ١٩٦٧ له ولغيره صدمة كبيرة وازت بثقلها نكبة عام ١٩٤٨. وشكّلت حرب حزيران ١٩٦٧ نقطة تحول جذري في حياته وطريقة عمله ورؤيته السياسية واستراتيجية العنف الثوري.

بإمكاننا القول إن هذا العام هو العام الذي تبلورت فيه مواقف وديع حداد ونظرته إلى الصراع بين المستعمرين والشعوب، والنضال من أجل الحرية، وقيمة الإنسان، والوسائل التي يجب اتباعها لانتزاع الحقوق والحرية، وتجسيد قيمة الإنسان ومبادئ العدالة وحق تقرير المصير. كان تصوره العام يستند إلى معرفة حسية بميزان القوى في المنطقة. فإذا كان العدو الرئيسي والعنصري المجسد باستيطان استعماري توسعي في فلسطين، مدعوماً من الغرب وترسانته وخزائنه، فإن المواجهة يجب أن تكون من خلال جبهة عريضة تشتت قوى العدو وتنال منه في مفاصله الضعيفة، كون قوى التحرر ضعيفة ولا تملك وسائل المواجهة الكبرى.

بكلام آخر، كان وديع يرى أن طليعةً ثورية فلسطينية، متحالفة مع طلائع ثورية عربية وطلائع ثورية عالمية، هي أطراف الجبهة التي يجب أن تواجه وتتصدى للقاعدة الأمامية المتمثلة بالاستيطان الاستعماري الذي أقيم على أرض فلسطين، بدعم من القوى الامبريالية للحفاظ على مصالحها في منطقة الشرق الأوسط الغنية



يلاعب نجله هاني على الثلج في منطقة اللقلوق في جبل لبنان

بالنفط والغاز والمعادن، كما لحلفاء هذه القاعدة. يُفترض بالقوى الثورية المحافَظة على سريّة العمل، والروابط وطرق الاتصال والإمداد، وتوجيه ضرباتها إلى مفاصل ضعيفة ومؤثرة، على أن تشنّ جانبياً حرباً سياسية إعلامية تفضح هذه

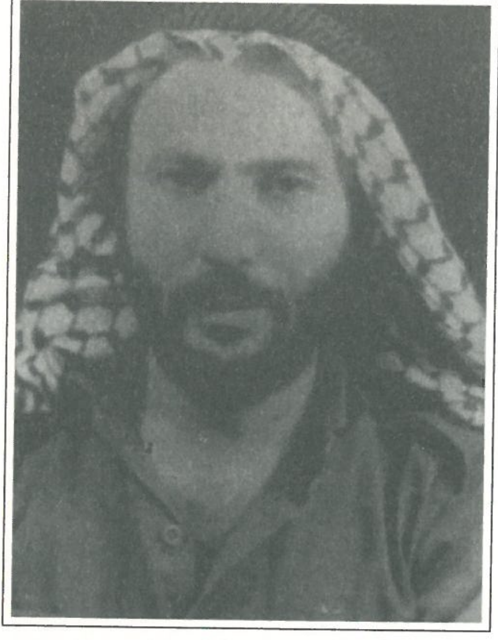
القوى العدوانية والاستعمارية وفظائعها وجرائمها التي ترتكبها ضد الشعوب. الحرية لا تُجزّأ، والنضال لانتزاعها لا يُجزّأ أيضاً ـ هكذا كان وديع حداد يرى القضية.

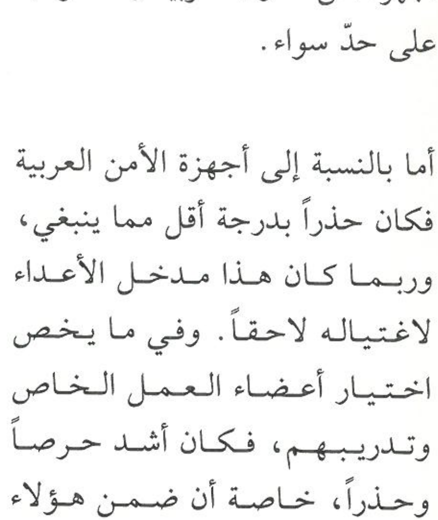
اكتسبت تجربة الدكتور وديع حداد الطليعية الخبرة من خلال الممارسة، وبفضل استمرار المعركة كلعبة الشطرنج بينه وبين أجهزة الأمن والقمع المعادية للشعوب. كان يحاول دوماً أن يكون سباقاً وأن يترك العدو يلهث وراءه، سواء أكان في اختراع وسائل تحدّ من قدرته على الحركة، أو من قدرته اللوجستية، أو من خلال متابعته وملاحقته.

أسلوب وديع حداد

كانت حياته تقاس بالأميال التي يقطعها كل أسبوع بين بلدان العالم متنكراً وبأسماء مختلفة. إنها حرب ذات خصوصية عالية، وخطورة مدمّرة. لم يكن هامش الحظ أو الظرف واسعاً بل كان في أضيق حيّز ممكن. لذلك كانت دقة التخطيط والتنفيذ أساسية بمنزلة المعلومات حول الأهداف بحد ذاتها وطرق الوصول إليها. فأي خطأ مهما كان صغيراً يعني، في ميدان العمل الخاص هذا، الموت أو الخراب، وفي أحسن الأحوال الفشل. العمل في هذا الميدان معناه أن يصبح قائده (صاحب القرار) هدفاً للأعداء والأصدقاء على حدّ سواء. الأعداء كانوا يرصدونه ويتتبعونه ويلاحقونه لتصفيته، والأصدقاء كانوا يلاحقونه ويتابعونه ليساعدهم على القيام بأعمال لا يمكنهم القيام بها. كان على الدكتور وديع أن ينتبه للطرفين لأنه كان يرى أن الأجهزة الصديقة مخترَقة، وأن العدو قد يدسّ أحد عملائه في أجهزة الأصدقاء لرصده أو التجسس على عمله أو اغتياله.

إذا تعلّق الأمر بأجهزة أمن دول كبرى، كان دائماً يضع في حساباته أن علاقة هذه الأجهزة بمثيلاتها في الغرب هي علاقة مصالح متبادلة، وأنه قد يواجه لحظة





وديع حداد في مخيم الوحدات آب ١٩٦٨

يُطرَح هو نفسه ثمناً على طاولة البحث بينها. لذلك كان شديد التحفظ في التعامل أو التعاطي مع أجهزة أمن الدول الغربية والاشتراكية على حدّ سواء.

أما بالنسبة إلى أجهزة الأمن العربية فكان حذراً بدرجة أقل مما ينبغي، وربما كان هذا مدخل الأعداء لاغتياله لاحقاً. وفي ما يخص اختيار أعضاء العمل الخاص وتدريبهم، فكان أشد حرصاً وحذراً، خاصة أن ضمن هؤلاء مجموعات ثورية عالمية المنشأ لا يعرف عن نشأة وتجربة العناصر المفروزة للقتال في صفوفها الشيء الكثير، ولم يجربها في ساحات النضال. من هنا حذره الشديد، فلم يكن يلتقي بالعناصر المقاتلة بل بالقيادات، تاركاً أمر المتابعة لأركانه في المعسكرات. في هذا الإطار كان يتبع نظام «الغربلة» في المعسكرات. فعلى سبيل المثال يبدأ تدريب العناصر ـ حتى لو كانت مدربة سابقاً ـ في معسكر ذي طابع سياسي. أي أن التركيز ينصبّ على تحليل طبيعة الصراع واستراتيجية المواجهة وتكتيكاتها والتدريب على الأسلحة البسيطة: الإصابة الناجحة بالمسدس في أحوال وظروف مختلفة، الرشاش، كلاشنكوف، العبوة الناسفة، التوقيت، النسف بالسيطرة والتحكم عن بعد، الألغام المضادة للدروع. كانت دقة الإصابة هي الأهم في مرحلة التدريب هذه. بعدها كان ينقل الناجحين أو البارزين إلى معسكر يتميز عن سابقه بالتركيز على الشؤون العسكرية والأمنية. تضمّن التدريب في هذا المعسكر رسم خطط صغيرة للنيل من هدف ما. كان المقاتلون يتعلمون

القياسات، وتحديد الأهداف ليلاً، وقيادة السيارة الخطرة، والرياضة العنيفة، واستخدام السكين عن بعد وعن قرب، وإصابة الأهداف بالإطلاق الحر، والغطس.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التخصص، بحيث تشمل الطيران، قيادة الطائرة والإلمام بلوحة القيادة وإتقان الإقلاع والهبوط، وفن التنكر وتفادي الإجراءات الأمنية المعادية، والاستخدامات المختلفة لأنواع متعدّدة من القنابل، وصناعة الأقلام المتفجرة بالتوقيت. بعدها يصبح العنصر جاهزاً للقيام بمهمة ما، وعند اختياره ينقل إلى مكان خاص، بحيث ينهك بالتدريب على مهمته حتى يتقن إنجازها وهو مغمض العينين. خلال هذه الفترة التدريبية يعيش العنصر المنفِّذ كافة الظروف المحتملة، ويخضع لتجربةِ مواجهة كافة الاحتمالات. عند ساعة الصفر، يعطى التعليمات الأخيرة، وأحياناً يبلغ بأنه سيستلمها في محطته الأولى في مكان إقامته، ولا يبلغ الهدف أو مكانه سلفاً، حفاظاً على السرّية والأمن. بطبيعة الحال، يجهَّز كل عنصر بطريقة الخروج من الموقع والعودة إلى قواعده بأمان وسلامة. يُرتب له ذلك، أو يمنح حرية الاختيار، ويزود بما يلزمه من مال أو معلومات.

لكم أن تتصوروا كيف تتمّ العملية الدقيقة والمنهكة، تحت إشراف الدكتور وديع حداد الفلسطيني من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بما فيها العمليات الخاصة أو «الفرع الخارجي»، وحلفاء «المجال الخارجي» على صعيد العالم، الذين ضموا يونانيين ودانماركيين وسويديين وهولنديين وفرنسيين وإيطاليين وألمانيين وسويسريين وأميركيين لاتينيين وأفريقيين ويابانيين وسنغافوريين وعرباً. لقد أقام وديع حداد أوسع تحالف عالمي من الفئات الثورية الصغيرة المؤمنة بالمشاركة في النضال ضد الامبريالية والرأسمالية في بلادها، من خلال الانخراط في نضال حركات التحرر الوطني التي تقاتل ضد الامبريالية من أجل الحرية والاستقلال.

هذه هي المساهمة الكبرى التي أضافها وديع حداد إلى الفكر الثوري العالمي، بعد فشل انتفاضة أوروبا عام ١٩٦٨، وتراجع الغيفارية. إنها وراء العدو في كل مكان، مجسدة تجسيداً حياً.

الخلفية التاريخية لخيار وديع حداد

الكفاح الفلسطيني من أجل الحرية وإزالة الاحتلال، نضال عميق عمق التاريخ الذي سجله الإنسان. سطّر الفلسطينيون صفحات نضال من أجل الحرية والارتقاء بوضع الإنسان اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً. كانت صفحات النضال ناصعة، مشعّة. لم تقف عند حدود فلسطين التاريخية، لم يكن البحر الأبيض المتوسط حائلاً بينها وبين الشواطئ الأخرى، ولم يمنعها نهر الأردن من العبور لمعانقة حضارة شعوب بلاد ما بين النهرين. لأن الفلسطينيين ارتقوا عبر العصور نحو مواقع لم تبلغها شعوب أخرى رزحت تحت نير ظلمات الجهل والهمجية، كالتتار بقيادة هولاكو، كانوا دائماً هدفاً للطامعين والمتوحشين والمستعمرين. ما برحت فلسطين جسراً يربط القارات الثلاث: أفريقيا، وآسيا، وأوروبا، براً وبحراً. هي واسطة العقد التي أصبحت في التاريخ الحديث (القرنين العشرين والواحد والعشرين) هدفاً للاستعمار الاستيطاني الذي رحل عن بلاد العالم، ليدخل من النوافذ بأشكال متعددة: الاستعمار الاقتصادي، والثقافي، والصناعي، والزراعي، إلاّ في فلسطين. فقد ضخت بلدان الاستعمار الاستيطاني، كالولايات المتحدة وأوروبا، على مدى قرن من الزمن كل أنواع المساعدة لقاعدتهم التي استعمرت ذلك الجسر الاستراتيجي الرابط بين قارات أفريقيا وآسيا وأوروبا، والمطلّ على البحرين المتوسط والأحمر، بحيث يشكل منارة إشعاع أخلاقي وحضاري وثقافي.

لأن فلسطين تتمتع بهذه المكانة، ولأن الفلسطينيين تبوّأوا مكانة رفيعة في النهوض الحضاري، كانوا هدف الطغاة والغزاة والطامعين بالثروة والسيطرة والتحكم بالتجارة والمواد الأولية والنفط والغاز والمعادن واليورانيوم لاحقاً. فاستخدموا

الحركة الصهيونية ـ العنصرية اليهودية ـ الطامعة في السيطرة على ثروة الولايات المتحدة وأوروبا، أداةً للسيطرة على ثروات المنطقة عبر إقامة مخفر أمامي استيطاني على أرض فلسطين. زوّدوه بوسائل القوة الاستعمارية ليكون أقوى من مجموع ما يحيط به من بلدان وشعوب، لا سيّما الأمة العربية العريقة.

استخدموا وسائل الخداع والكذب والضغط والقوة والرشوة ليغطوا هذه الجريمة التاريخية برداء «شرعي»، عبر الأمم المتحدة وقراراتها، ورفضوا ـ بل منعوا ـ الدول من اتخاذ أي قرار ينسجم مع الحق التاريخي والحقوق الإنسانية ومبادئ الحرية والاستقلال وحق الشعوب في تقرير المصير.

طمع الفرنجة الأوروبيون بفلسطين، معبّرين عمّا لدى المتوحشين من جشع. استخدموا المسيحيين ثوباً لتغطية طمعهم فاحتلوا فلسطين وأقاموا على أرضها والأرض المحيطة قلاعاً وممالك. لكنهم خرجوا. كذلك فَعل التتار. أيضاً غادرها مَن استخدموا الإسلام رداء. فهي على مدار التاريخ الدولة وليس الدين، وإن استُخدم الدين أداة للخداع والتحريض وإثارة النعرات والتعصب والعنصرية.

في كل مرة كان الفلسطينيون، ببعدهم القومي، يراكمون خبراتهم الكفاحية ضد الظلم والظالمين، ويوجهون إلى المحتل ضربات نوعية تفقده توازنه وصوابه، ثم وزنه، فيخرج جارّاً أذيال الهزيمة، وفي كل مرة كان الحق ينتصر.

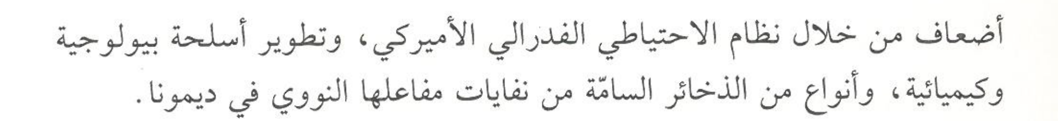
لقد مكّن الإفرنجُ الصهاينةَ من وسائل القوة، ما جعلهم قادرين على ارتكاب المجازر والمذابح وطرد أهل البلاد من أراضيهم وبيوتهم. فأحرقوا الزرع وقتلوا البشر، ونهبوا أملاكهم، بسلاح كان متفوقاً زوّدهم به الفرنجة الاستعماريون الأوروبيون والأميركيون وغيرهم من العنصريين.

لم يكن بمقدور الدول العربية التي تحكمت القوى الاستعمارية الكبرى بنواصيها

وقادتْها كما تريد، وكما تقتضي مصالح الفرنجة، التصدي لهذه القوة العنصرية التي سيطرت على أرض فلسطين، وطردت أبناءها بقوة السلاح الغربي. تحكمت الولايات المتحدة وأوروبا بأمور الدويلات العربية التي أقيمت بعد أن مزقت الوطن العربي إلى نتف أطلق عليها اسم دول. فقد ارتكب الإنكليز جرائم بحق العرب وحقوقهم، خاصة في فلسطين. وارتكب الفرنسيون جرائم بشعة مشابهة. وسعى الأميركيون، ونجحوا إلى حد بعيد، في تحويل ما تحكّم به البريطانيون والفرنسيون إلى مملكة أميركية تخضع للنهب الأميركي الحديث، وترضخ سياسياً للإرادة الأميركية، من ضمن ذلك الحفاظ على إسرائيل أقوى دولة في الشرق الأوسط.

لقد خرج الاستعمار القديم من المستعمرات بعد الحرب العالمية الأولى بما يشبه صراع الكبار على قضم الصغار. صدر ميثاق جنيف، وميثاق الأمم المتحدة، ولم يتوقف مفعولهما إلاّ عند حدود فلسطين، التي قرروا لها انتداباً بريطانياً «يهيئ» الوضع لسرقة أرض فلسطين، وتمكين أدواتهم الصهيونية منها ـ كما جاء في وعد بلفور عام ١٩١٧. وزوّد الغرب إسرائيل بالأسلحة النووية وأحدث أسلحة الفتك والدمار في مصانع الغرب، ليظلّ السلاح الغربي مواجهاً لحركات التحرر العربي من قبضة التحكم والنهب الامبريالية.

حصل التزاوج بين أطماع الغرب في النفط والغاز واليورانيوم والذهب العربي، وبين جشع إسرائيل لنيل حصة من كل هذا بهدف بناء دولة تتسم بالفساد، والجريمة المنظّمة، وقتل البشر والشجر والحجر، وإقامة شبكات عالمية تسيطر عليها عصاباتها، فترتكب أبشع الجرائم ضد الإنسانية (مثل شبكات تهريب المخدرات من كولومبيا إلى أسواق الغرب، والتجارة بأعضاء البشر المسروقة من أجساد الفتية والأولاد والأطفال والرجال والنساء الذين يقتلهم الجنود الإسرائيليون في فلسطين بناء على طلب سوق الأعضاء). علاوة على تبييض الأموال وسرقة الشعب الأميركي عبر المصارف، ورفعِ مساعدات الحكومة الأميركية إلى سبعة

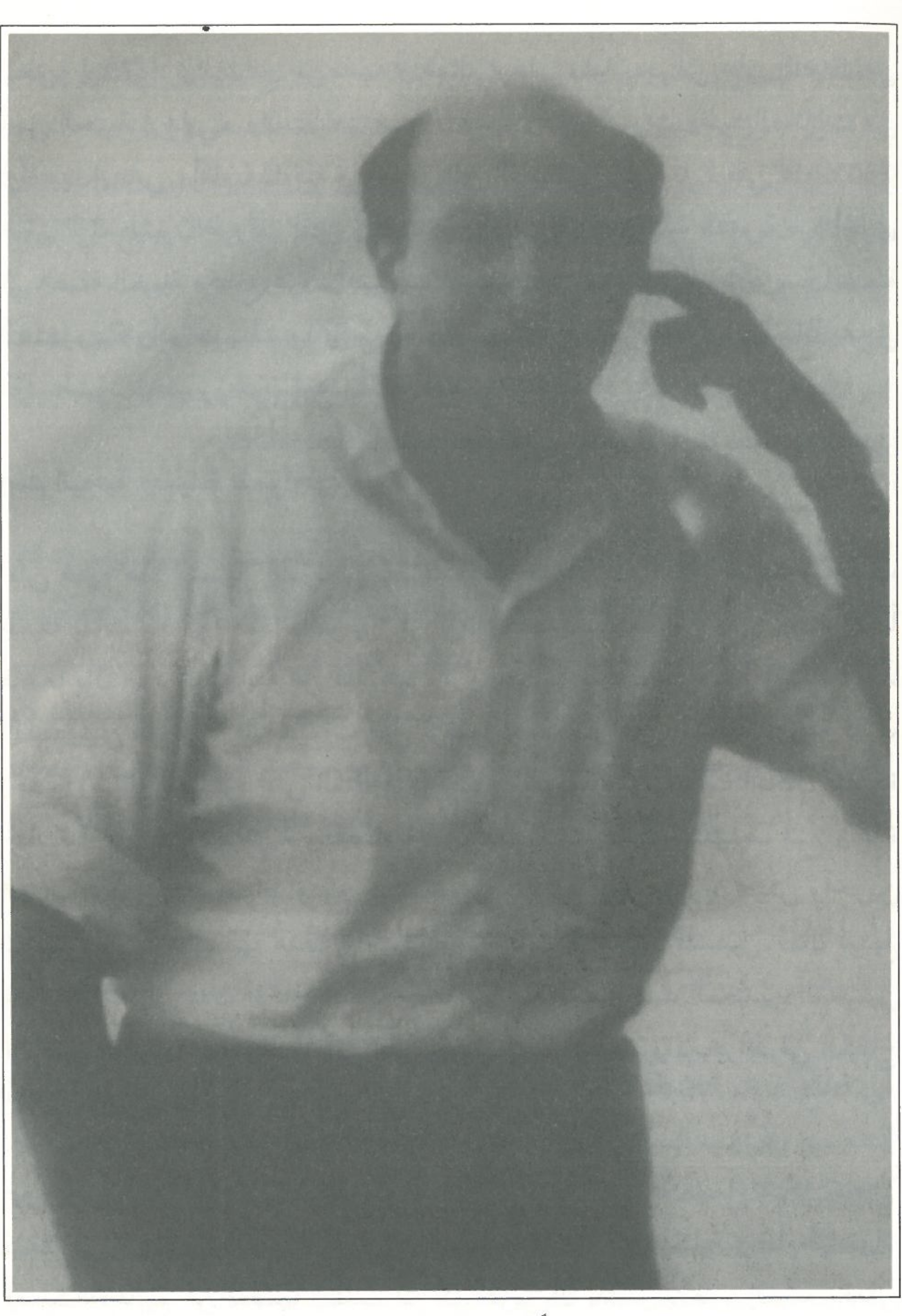


أضعاف من خلال نظام الاحتياطي الفدرالي الأميركي، وتطوير أسلحة بيولوجية وكيميائية، وأنواع من الذخائر السامّة من نفايات مفاعلها النووي في ديمونا.

هذه هي إسرائيل المدججة بالسلاح والدروع من رأسها إلى أخمص قدميها، تمارس العدوان البشع يومياً على شعب أعزل حضاري مثقف له تقاليد إنسانية عريقة، عاش ويعيش في بلاد تنبع قدسيتها من كونها مهداً للرسالات السماوية التي تدعو إلى الخير لا الشر، إلى الحق لا الباطل، وليس كما تدعو رسالة الإسرائيليين هذه الأيام، إلى الشرّ والباطل وسرقة الأرض، وقتل الشعب المسالم، وطرد العائلات من بيوت أجدادها، وهدم المنازل، وحرق المزروعات، واقتلاع الشجر الذي عمر مدى التاريخ. لم يتركوا شراً إلاّ تأبطوه، ولم يتركوا حقاً إلاّ هدروه، ولم ينج من جرائمهم الجماعية بيت أو جامع أو كنيسة.

إذا كان هذا هو الوضع، فكيف يواجه الفلسطينيون هذا العدو؟ هم شعب لا دولة لهم ولا أرض يتحكمون بها، ولا جيش يعتمدون عليه. شعب يحاصره الأخ والصديق قبل العدو. بلادهم ليست فيتنام ولا الصين ولا كوبا. وحالهم لا يشبه حال الجزائر، ولا اليمن. حركات التحرر في العالم انتصرت عبر «حرب الشعب طويلة الأمد». فإستراتيجية إنهاك العدو الغازي، عبر سنين طويلة الأمد من الصمود والتصدي، أفلحت في فيتنام والجزائر، لكن فلسطين لا توفِّر غطاء جغرافياً، وكثافتها البشرية تتركز في الخارج، ومن حيث التسليح فهي محاصرة من كل الجوانب، ومحاصَر هو الفلسطيني حيثما كان. إن هتَف أجرم، فيزجّ به في سجن عربي أو أجنبي، وإن هزّ قبضته اعتُبر خارجاً عن القانون، وإن كتب اغتاله الصهاينة: كما اغتالوا غسان كنفاني، وحاولوا اغتيال أنيس الصايغ، واغتالوا وائل زعيتر، وكمال ناصر، وغيرهم.

تحول منطق العالم إلى اللامنطق على يد الآلة الصهيونية. فالمناضل من أجل



وديع حداد في عدن، تحضيراً لضرب ناقلة النفط «كورال سي» عند باب المندب

الحرية إرهابي، والمدافع عن نفسه وأطفاله إرهابي، والمحرض على النضال من أجل الحرية إرهابي، والمتظاهر ضد الاغتيال وهدم البيوت وطرد العائلات من أراضيها إرهابي. أمام هذا كله ماذا كان على الفلسطيني أن يفعل؟ ففي عام ١٩٦٧ عاش الفلسطينيون ظروف القهر والاعتداء والعنصرية الإسرائيلية الدموية مرة أخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة. أصبحت فلسطين من النهر إلى البحر فريسة الهيمنة الصهيونية وأدوات بطشها وقمعها وأسلحتها المحرّمة دولياً. فماذا يفعل الفلسطينيون وهم يرزحون تحت قبضة حصار خانق؟

إستراتيجية جديدة للمواجهة

على ضوء هذا التمثيل التاريخي تحرّك وديع حداد، بعد تفكير سديد وتجارب عميقة بدأت بحركة «الفداء القومي» في أوائل الخمسينيات. آمن وديع حداد إيماناً قاطعاً بأن طرد الصهاينة من فلسطين لا يمكن أن يتم بمعزل عن امتداد وبُعد الفلسطينيين القومي. فالتقسيمات التي فرضها الاستعمار على المنطقة العربية كانت إحدى وسائله للسيطرة على المنطقة وإخضاع شعوبها لعبودية ذات أشكال متعددة جغرافية وأمنية وعسكرية واقتصادية. إن هذه التقسيمات تستهدف منع وحدة العرب. من هنا انخراط وديع حداد مع زميله الدكتور جورج حبش وآخرين لتأسيس حركة عربية لها هدف واحد: الوحدة العربية لتحرير فلسطين. كان لوديع حداد إضافة إلى ذلك أفكار تنصب حول ممارسة الكفاح ضد المعتدين المحتلين لأراضي العرب، فيصبح واجب القوميين العرب الإعداد والانخراط في الكفاح العربي ضد المستعمر حيثما كان على أرض عربية.

في حزيران من العام ١٩٦٧ عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعاً مهماً، شكل تحولاً فاعلاً في تاريخ وبنية حركة القوميين العرب، كذلك في هيكلية ونظام قيادتها. فُصلت الأقاليم عن بعضها وطُلب من كل عربي أن يلتحق بتنظيم إقليمه. فعلى الكويتي أن ينضوي تحت لواء إقليم الكويت، والجزائري تحت إقليم الجزائر،

وكذلك اليمني والسوري والفلسطيني. وشكّلت هيئة تنسيق بين الأقاليم برئاسة الدكتور جورج حبش، الذي كُلِّف بتأسيس تنظيم فلسطيني يوحّد صفوف الفلسطينيين ويعيد إليهم القيادات والكوادر التي فرزت لتنظيمي «شباب الثأر» و«أبطال العودة»، وبالإعلان عن تأسيس التنظيم وبدء كفاحه المسلح في الوقت المناسب. اختار جورج حبش عدداً من الكوادر، كنتُ أحدهم، حملت منه رسالة إلى تنظيم في الأردن، حيث التقيت بمصطفى الزبري «أبو علي» الذي اغتالته إسرائيل في رام الله عام ٢٠٠٤؛ كذلك بأبو عيسى وأبو سمير وغسان قمحاوي، بهدف لمّ الصفوف والانطلاق في كفاحنا المسلح ضد المحتلين.

تسلم الدكتور وديع حداد مسؤولية الإعداد والتجهيز العسكري، فيما تسلم الدكتور جورج حبش المسؤولية التنظيمية والسياسية. تقرّر توجيه أكبر عدد ممكن من الكوادر إلى داخل الأرض المحتلة، وتشكيل قيادة في الداخل ورفدها بالمدربين والسلاح كيما تتهيّأ لانطلاق الكفاح المسلح. فتوجه إلى الأرض المحتلة قادة كأسعد عبد الرحمن، وأحمد خليفة، وتيسير قبعة، وعبد الرحيم جابر إلى منطقة الخليل، إضافة إلى مجموعة جيدة من الكوادر كانت داخل الأرض المحتلة.

وفي قطاع غزة انتظم شباب القوميين العرب الذين خدموا في جيش التحرير الفلسطيني، فشكّلوا قيادة تنسيق مع قيادة الضفة عبر الدكتور وديع حداد، أذكر منهم: أبو نضال المسلمي وأبو رأفت «عقيد» وغيفارا غزة لاحقاً، لقيادة النضال في قطاع غزة. كان الدكتور وديع حداد هو الرأس العسكري الذي ينسق عمليات التدريب وتهريب السلاح إلى الداخل، وتسلُّم الأعضاء غير المدربين عبر النهر وتهريبهم إلى دمشق وبغداد، ليتم تدريبهم وإعادتهم إلى الداخل «الأرض المحتلة». مع منتصف عام ١٩٦٨ بدأت معسكرات الأردن العمل التدريبي. كانت بإشراف الدكتور وديع حداد أيضاً، خاصة عقب اعتقال الدكتور جورج حبش في سورية، أواخر عام ١٩٦٧ وأوائل عام ١٩٦٨.

خصوصية النضال الفلسطيني

مع بداية الكفاح المسلح تحت راية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين استراتيجياً وتكتيكياً، اتّضح لوديع حداد ومجموعة من المفكرين والمناضلين المحيطين به أو ممّن كانوا على اتصال معه، أن حساب البيدر لا يتطابق مع حساب الحقل، بل كان في أغلب الحالات أقل بكثير من المتوقع. فقد قضت إسرائيل على جزء كبير من الشبكة التنظيمية التي نسجت داخل الأرض المحتلة، وكلّفت الكثير من الجهد والعناء والتضحيات مستلزمة تدريبات مضنية وتعبئة سياسية جديدة، وبحثاً دؤوباً عن مصادر السلاح والذخيرة، وأي سلاح وأي ذخيرة! فقد كانت جميعها من الأنواع الخفيفة التي لا تتناسب حتى مع بنادق الجنود الإسرائيليين. ناهيك عن الافتقار إلى مضادات للدروع والطائرات والأسلحة البدائية لحماية القواعد والمخيمات والمعسكرات. بعدما تمكن جيش الاحتلال من توجيه ضربات أصابت تنظيمات المقاومة داخل فلسطين بالشلل، فامتلأت سجون إسرائيل بآلاف المعتقلين من الشباب والنساء والأطفال، تراجعت التنظيمات إلى الوراء فأقامت قواعد عسكرية في نواح متفرقة من غور الأردن، امتدت من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

عدّلت التنظيمات خططها، فشملت مهماتها تدريب القوات المسلحة وتسليحها وتجميعها، وإرسال مجموعات منها عبر نهر الأردن لتضرب في العمق الإسرائيلي «ساحل المتوسط» أو منطقة القدس، وفي معظم الحالات لتشتبك مع الدوريات العسكرية الإسرائيلية التي كُلِّفت تمشيط وحماية ضفة الأردن الغربية. انهمكت إسرائيل في إقامة الحواجز والسواتر ونقاط الحماية وأنظمة الإنذار، لمنع الدوريات الفلسطينية من التوغل في الضفة ومنها إلى أراضي ١٩٤٨. فشقت طريقاً ترابية بمحاذاة نهر الأردن على الضفة الغربية، بحيث ترشّها صباح كل يوم بمادة مشعّة، فيستطيع جهاز الالتقاط في طائرات الهليكوبتر التقاط الإشعاعات

وتتبُّعها في حال عبور مجموعة من الفدائيين تلك الطريق. كما استخدمت أجهزة تعمل بتأثير الصوت، فتصدِر أمراً لرشاشات أوتوماتيكية (دون جنود) بإطلاق النار باتجاه الأصوات. وكثفت إسرائيل دورياتها المتحركة المعزَّزة بآليات مصفحة وقذائف صاروخية.

كان الفدائيون يجدّون ويبتكرون وسائل لإفشال محاولات العدو. لعب وديع حداد، وعدد ممن يعملون معه، دوراً أساسياً في إحباط محاولات إسرائيل وتكنولوجيتها بوسائل بدائية وبسيطة. أغضب تنامي فاعلية المقاومة إسرائيلَ، فباتت تحسب حسابات مختلفة مع ارتفاع عدد القتلى والجرحى من جنودها، ونجاح مجموعات المقاومة في القيام بعمليات جريئة في تل أبيب والقدس والخضيرة وغيرها. سمح النشاط المتصاعد لتنظيمات المقاومة الفلسطينية بإمداد قطاع غزة عبر صحراء النقب والبحر المتوسط بالأسلحة والذخائر، الأمر الذي مكّن المقاومة في القطاع من التسبب بنزيف دائم للجيش الإسرائيلي الذي بدأ يفقد هيبته وأعصابه. قررت القيادة الإسرائيلية التي أقلقها تصاعد المقاومة ونجاحها في اختراق خطوطها، وأثارت مخاوفَها المشاركة الواسعة لفئة المثقفين وخريجي الجامعات في الكفاح المسلّح ضد الاحتلال، شنَّ حرب لا هوادة فيها لتصفية هذه الظاهرة الجديدة قبل استفحالها. وحثّت غولدا مئير وزير خارجيتها وقادة الجيش والاستخبارات على شن هذه الحرب وتدمير هذه الظاهرة لتبقى مقولتها إنه «لا يوجد شعب فلسطيني» مقولة قائمة عالمياً.

حشدت إسرائيل قواتها على ضفة نهر الأردن قبالة أكبر مجموعة من قواعد الفدائيين المقاومين، في الهضاب والجبال المقابِلة في الضفة الشرقية. شنّت هجوماً جوياً وبرياً بالآليات والجنود بهدف تدمير قواعد الفدائيين وإفنائهم. إلاّ أن هؤلاء، على قلّة عددهم وضعف عدتهم، تصدّوا للمعتدين جنباً إلى جنب مع الجنود الأردنيين البواسل، إذ لعبت المدفعية الأردنية الثقيلة، المتمركزة في جبال السلط المرتفعة والمطلة على الأغوار، دوراً أسطورياً في التصدي لأرتال العدو

الإسرائيلي التي عبرت النهر باتجاه الشرق. وأنزل التلاحم الأردني الفلسطيني أفدح الخسائر بالجيش الإسرائيلي، فأعطبت آليات وسقط قتلى وجرحى. كما سقط عشرات الشهداء من الفلسطينيين.

كانت معركة الكرامة المواجَهة المباشرة الأولى التي يخوضها الجيش الصهيوني منذ حرب ١٩٦٧ التي أنزلت الخزي بالعرب، وسجّلت لهم علامة سوداء لا تمّحى وأصابت الجماهير العربية بالقنوط والمهانة. ونتيجة للمواجهة في معركة الكرامة شاهدت الجماهير العربية الدبابات الإسرائيلية تشتعل بألغام المقاومة ومدفعية الجيش الأردني؛ كما صورت وسائل الإعلام جثث الجنود الإسرائيليين تحترق داخل دباباتهم التي كبلوا فيها إلى مقاعدهم. بدأ التحول في الروح المعنوية العربية، فأثمرت النتائج ما لا تشتهي غولدا مئير. لكنها لم تتوانَ عن إصدار تعليماتها بتدمير فصائل المقاومة وتصفية قياداتها وإنهاء ظاهرتها.

لم يخدع هذا الانتصار وديع حداد، بل جعله يتعمق أكثر في الاستراتيجية والتكتيك المناسبين لكفاح الشعب الفلسطيني، لانتزاع حريته واستعادة أرضه وبناء دولته المستقلة. كل مرحلة من المراحل «القصيرة» التي مرت بها المقاومة الفلسطينية حديثة العهد بالكفاح المسلح، كانت تُسدي دروساً وعبراً شكّلت تراكماً مهماً أضاف إلى الخبرات السابقة، كما ضخّت تجارب الشعوب زخماً في أذهان الدكتور وديع حداد وزملائه. من قواعد حرب الشعب الطويلة الأمد إلى المسيرة الكبرى، إلى الإنزال البحري، واللجوء إلى الحيل، فعبور نهر الأردن، ثم قواعد الارتكاز ومنصات الإنطلاق، حتى تنظيم المدن في الداخل، كلها تراكمات عينية ومفيدة لكنها لم تقدّم الحل الأمثل لكيفية مواجهة العدو الإسرائيلي الذي يسيطر على الأرض، ويقيم عليها دولة تتلقى مساعدات مالية طائلة، وتدجج سنوياً بأحدث أسلحة الدمار والتدمير، ويحافظ الغرب الإمبريالي على تفوقها العسكري، كمّاً ونوعاً، على مجموع دول منطقة الشرق الأوسط، وربما أوروبا أيضاً.

تبلورت وجهة نظر وديع حداد تدريجياً من خلال التجربة والاحتكاك الإيجابي مع الأفكار والآراء التي طرحتها المجموعات الثورية في أوروبا وأميركا اللاتينية بعد عام ١٩٦٨. شكّلت فلسطين حالة منفردة تحتاج إلى حلول لا تكاد تخلو من التعقيدات التي تواجه حركات التحرر إزاء معضلاتها. بل كوّنت حالة منفردة في تعقيداتها وتشعباتها، كذلك في الظروف الدولية والإقليمية المحيطة بها، إضافة إلى طبيعة الكيان الاستيطاني الذي أقيم على أرض فلسطين، وقوته المرتبطة عضوياً بقوة الدول الامبريالية التي أنشأته وأبقت عليه حياً وقوياً حتى اللحظة.

فقد شكّل هذا الكيان مصلحة رئيسية من مصالح هذه الدول، وأداة إقليمية مهمّة لتحقيق أهدافها في منطقة الشرق الأوسط التي تعوم على بحار من النفط والغاز ـ هي منطقة أسواق رئيسية وهائلة لبضائع ومنتجات هذه الدول، نظراً إلى الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي تحتلّه في المواجهة غير الساخنة بين الغرب والشرق.

العامل الأممي في الخلفية التاريخية لوديع حداد

في الوقت الذي تأجّجت نار المقاومة في فيتنام، وراح الأميركيون يصعّدون عدوانهم في تلك المنطقة، ويزجّون بمزيد من القوات ويضاعفون قصفهم الجنوني لمدن وموانئ فيتنام الشمالية، مستخدمين القاذفات الضخمة من طراز «ب ٥٢»، والقنابل المحرّمة دولياً، شهدت أوروبا تحولات وتطورات خطيرة. عمّت الأزمات الاقتصادية دول أوروبا وتصدّعت الأحزاب الشيوعية التي اتهمها جمهورها بالتكلس والكلاسيكية، وعدم إيجاد الحلول لأزمات المجتمع ومشاكل الطبقة العاملة في أوروبا.

شكّلت الحركة الشعبية الواسعة لدعم الشعب الفيتنامي محور نشاط سياسي بارز في الدول الأوروبية والإسكندنافية كافة. أي أن التصعيد الامبريالي الدموي ضد شعب فيتنام رافقته حركة شعبية مناهضة في الدول المعتدية التي ساندت العدوان على فيتنام. فنشأت حركة شعبية عارمة في الولايات المتحدة ضد الحرب في فيتنام، كذلك في الدول الأوروبية التي كانت تعاني حالة اختناق اقتصادي.

وتوسعت هذه الحركات فراحت تستقبل الجنود الهاربين والرافضين للحرب في فيتنام، بتقديم أنواع متعددة من الدعم لفيتنام. بدأت التفجيرات في المجتمعات الأوروبية، في ظل ظروف يتسارع معها اندماج عوامل التفجير. تصاعد عدوان الدول الأوروبية الامبريالية على فيتنام، وتفاقمت الأزمة الاقتصادية التي قلّصت لقمة عيش العمال والفقراء في المجتمعات ذات الأنظمة الرأسمالية، وفشلت الأحزاب الشيوعية والاشتراكية في تقديم حلول لمشاكل المجتمعات الرأسمالية. تضافرت هذه العوامل، فبدأت الانشقاقات في الأحزاب الشيوعية والاشتراكية، وشرعت المجموعات الثورية في كل الدول الأوروبية تتدارس وسائل المواجهة؛ كما سادت الأفكار المطروحة من الماوية إلى التروتسكية، إلى أفكار ريجيس دوبريه وتشه غيفارا. تمحورت حركة تلك المجموعات حول الماوية والغيفارية. كانت قمة الإنفجار في أيار/ مايو من العام ١٩٦٨ في فرنسا: سُدَّت الطرق، وأقيمت الحواجز، وأعلن العصيان، واندلعت الحرب بين المجموعات «الثورية» غير الموحدة وقوات أمن النظام، فكانت النتيجة أن انهارت «كومونة» باريس ١٩٦٨، وانقسمت المجموعات الثورية على نفسها.

لم يضع هذا حداً لتفاعلات الوضع الاقتصادي المتفاقم سوءاً، ولم يتمكن من بلورة بدائل ثورية تستطيع أن تقود معارضة فاعلة قادرة على إحداث التغيير المطلوب في المجتمعات الأوروبية. فتكرسّت الانقسامات في صفوف الشيوعيين والاشتراكيين، واندثرت تكتلات سبق أن انتعشت أثناء الانتفاضة التي عمَّت المجتمع بأكمله. كانت الكنيسة أيضاً مسرحاً لنشوء معارضة ثورية من الكهنة الشباب، فبلغت كنائس أميركا اللاتينية والمشرق. استمرت الاهتزازات في المجتمعات الأوروبية، وإن تهادى صوتها في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو؛ وسرعان ما عادت إلى توليد انفجار جديد كانت ألمانيا قاعدته هذه المرة وليس فرنسا. برز القائد الطلابي كوهين متزعّماً حركة طلابية ثائرة حرّكت المجتمع، طارحاً نظرية جديدة مفادها قيادة الطلاب للمجتمع. لكن هذه الحركة سرعان ما

همدت لافتقادها الأساس الفكري والمادي لإحداث التغيير. أصيبت الحركة الثورية بكل تشعباتها الأوروبية بالوهن وجمحت نحو الاندثار.

لم تمنع هذه العوامل بقاء نواة ثورية متماسكة وصلبة، فاعلة لكن حائرة في الإجابة على سؤال: ما العمل؟ انكبّت هذه البؤر الثورية الأوروبية على الدراسة والتحليل والبحث. فعمل قياديون من تنظيمات ثورية صغيرة أفرزتها تجارب عام ١٩٦٨ على البحث عن حلول لأزمتهم وأزمة مجتمعاتهم. تبين لهم بما لا يقبل الشك أن لا حلّ لمشاكل المجتمعات التي تعاني استغلال الامبريالية وتخضع لها سياسياً واقتصادياً وفكرياً. وفي الوقت الذي نظرت هذه المجتمعات إلى نفسها نقيضاً معارضاً ومقاتلاً ضد النظام السائد في مجتمعاتها، رأت في الثورة الفيتنامية والثورة الفلسطينية حليفاً لها ضد أنظمتها الرأسمالية والامبريالية.

لقد تماهت المجتمعات الأوروبية بحركات التحرر في الشرقين الأوسط والأقصى، في معسكر واحد يقاتل ضد النظام الرأسمالي والامبريالي الذي يستغل الشعوب الفقيرة المتخلفة، ويستعمرها بوسائل جديدة عبر أدوات محلية، كالنظام في فيتنام الجنوبية، والنظام العنصري الصهيوني الذي أقامته الدول الاستعمارية على أرض فلسطين. فكان بديهياً أن تحدد هذه التنظيمات الثورية الصغيرة موقعها كحليف لحركات التحرر في الشرقين الأوسط والأقصى.

لم يكن هذا التحالف أو الاصطفاف إلى جانب حركات التحرر في العالم الثالث جديداً، بل كان قائماً بدرجات متفاوتة في السابق، إلاّ أن التعبير عنه كان يتم بأجهزة الإعلام، أو بمساندة حركات التحرر بمظاهرات متصاعدة تسيّرها جماهير المجتمعات الخاضعة للنظام الرأسمالي الامبريالي. لم يدفع فشل هذه التنظيمات الثورية الصغيرة في انتفاضها صيف ١٩٦٨ قياداتها إلى التخلي عن فكرة تغيير الصّف الثوري. فقررت التوجه إلى الشرق، لبحث الوسائل الجديدة ترجمةً لإيمانها بضرورة اللجوء إلى العنف الثوري في مواجهتها لأنظمتها، التي تسوم

شعوب العالم الثالث عذاباً، وتخضعها لعمليات نهب تنزل بالشعوب الأم الفقر والمرض والجهل، وتدوس كرامتها وحقها في تقرير المصير والحرية والاستقلال، مانعة إياها من التمتع بأبسط حقوق الإنسان.

هنا لاحت فرصة «الجديد»: الجديد الذي سيعلنه الضحايا في مواجهة الامبريالية القوية المدججة بالسلاح الفتّاك. لاحت فرصة لتحالف بين حركات التحرير ومجتمعات يحكمها النظام الرأسمالي، ويستغلها بنسب متفاوتة في ظل استغلاله الكامل للشعوب المستقلة والمستعمرة، بواسطة عملاء الامبريالية أو أنظمة أقامتها الامبريالية قاعدة لها لاستغلال مناطق بأكملها: كما كان يجري في الشرق الأوسط، على يد قاعدة الامبريالية (إسرائيل العنصرية)، وكما كان يجري في جنوب أفريقيا، على يد النظام العنصري الذي أقامته الامبريالية في جنوب القارة الأفريقية. سعت أنظمة الاستعمار الاستيطاني إلى خلق مجتمعات تعتمد على الامبريالية لتستغل مناطق شاسعة تنهب ثرواتها، وتسيطر على أسواقها. برز الجديد في كيفية تفعيل التحالف بين حركات التحرر والمنظمات الثورية في المجتمعات الرأسمالية. كان الجديد ما طرحه الدكتور وديع حداد، وتبعه هذا التحالف.

الفصل الثالث

بلورة شعار «وراء العدو في كل مكان» كما تصوَّر وديع حداد

السؤال ذاته: ما العمل؟ كان يدور في خلد القيادات الفلسطينية، التي واجهت سلسلة من الضربات تمكنت إسرائيل من تسديدها لوسائل وهيكليات المواجهة والمقاومة الفلسطينية. استطاعت إسرائيل توجيه ضربة شديدة إلى التنظيمات الفلسطينية داخل الأرض المحتلة في المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية، وتنبّهت أجهزتها لعمليات التسلل غير المسلح. كما ضاعفت عدة مرات حجم أجهزة الأمن الداخلي والاستخبارات الداخلية «الشين بيت»، والاستخبارات العسكرية «آمان». وجب على فصائل المقاومة إعادة بناء تنظيماتها بمركزية مختلفة، وببطء شديد. فبدلاً من الصلات التنظيمية القريبة، اضطرت القيادة لإقامة شبكات ذات صلة بعيدة، بحيث ارتبطت الخلايا السرّية في الداخل بخيوط تنظيمية طويلة مع الخارج كي لا يؤدي انهيار أي خلية في مخيم الدهيشة، مثلاً، إلى انهيار خلية أخرى في الدهيشة، طالما أن الخلية لا تعرف عن وجود الأخرى.

استنفد هذا النظام الجديد الكثير من الوقت والجهد والمال، الأمر الذي جعل العمل بطيئاً، وإصدار التعليمات والأوامر متباعداً، وتسلم السلاح والذخيرة صعباً

للغاية. فتراجعت عمليات المقاومة وتباعدت. هذه أمثلة على المصاعب والعقبات التي بدأ يواجهها العمل المقاوم داخل الأرض المحتلة. يضاف إلى ذلك عقبات لوجستية وسياسية برزت أمام عمليات الإعداد والرفد. حصل هذا في ظل التنبه الإسرائيلي، وإجراءات الاحتلال، واستعادة الأنظمة العربية أدواتها العسكرية والأمنية بعد أن منيت أثناء حرب ١٩٦٧ بضربات موجعة، دمرت صفوفها وشلّت تنظيمها وفاعليتها، فأصبحت عرضة للضغوط والتهديدات الإسرائيلية.

كان البند الأول والأساسي في ذهن الدكتور وديع حداد هو تصويب الضربات للمفاصل الضعيفة والحيوية في جسم العدو المحتل، بحيث تحدث تراكمات كمية على مدى زمني تُجبر فيه إسرائيل على التراجع. بحسابات بسيطة تبيَّن أن تركيز الجهد الإسرائيلي على ضرب مفاصل المقاومة داخل الأرض المحتلة في محيطها القريب، أجبر إسرائيل على الردّ بكل ثقلها في هذا الاتجاه.

فمهمات «الشين بيت» الاستخبارات الإسرائيلية تركزت على الضفة الغربية والقطاع في البحث عن معلومات حول السلاح والتنظيم السرّي والقيادات داخل فلسطين وخارجها. أمّا جهود الجيش فانصبّت على مراقبة الحدود وتطوير العراقيل الالكترونية أو الميكانيكية، لمنع التسلل وتهريب السلاح، أو الحدّ منه إلى درجة تجعله عديم الفائدة.

استخلص وديع حداد من دراسة هذه المعطيات والتطورات أن على المقاومة الفلسطينية تشتيت التركيز الإسرائيلي من خلال توسيع رقعة المعركة، والتحالف مع قوى مستعدة للقتال ضد العنصرية الإسرائيلية في الساحات الأوسع من الأرض المحتلة، أي في منطقة الشرق الأوسط والعالم. كما استنتج أن توسيع الرقعة الجغرافية للمعركة يتطلب التحالف مع منظمات عالمية «دولية» مقتنعة بضرورة التصدي لإسرائيل، لأنها إفراز من الإفرازات الامبريالية على شكل استعمار استيطاني ـ كما يجري في جنوب أفريقيا.

أن تقوم الثورة الفلسطينية بتوجيه ضربات موجعة لمفاصل إسرائيلية حيوية وضعيفة معناه توجيه ضربات للمصالح الإسرائيلية خارج إسرائيل، أي في أوروبا وأميركا وأميركا اللاتينية.

تبلورت أفكار وديع حداد ومجموعة من زملائه المقربين جداً. فعدّلت الاستراتيجية بحيث أضيف إليها بند جديد وأساسي له فلسفته وترابطه المنطقي مع معارك الحرية والتحرر الكبرى. تكوّنت الاستراتيجية من:

* العمل على تنظيم الشعب الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة ليثور ضد الاحتلال والكيان العنصري الذي أقامته الامبريالية على أرضه، وتخصيص مجموعات لتوجيه ضربات عسكرية موجعة داخل الأرض المحتلة، وتعبئة الجماهير للتظاهر والانتفاض على الاحتلال.

* مواصلة عمليات الترابط العضوي مع حركة التحرر العربي، وانخراط المواطنين العرب في صفوف الثورة الفلسطينية لضرب الاحتلال الإسرائيلي.

* توسيع رقعة التصدي والقتال لتشمل ساحات بعيدة عن فلسطين، في أوروبا والأميركيتين.

كانت عناصر التنفيذ واضحة المعالم، داخل الأرض المحتلة وخارجها. أما على الصعيد الإقليمي (المنطقة العربية)، فيقوم التحالف الفلسطيني ـ العربي بتنفيذ خطة العمل. في المستوى الدولي، يعمد الفلسطينيون وحلفاؤهم الأوروبيون والأميركيون إلى تنفيذ برنامج العمل. بدأ وديع حداد بوضع خطة العمل لإقامة هذا الحلف الدولي. فاستبدل العلاقة السياسية والإعلامية مع منظمات ثورية أوروبية ببرنامج عمل يشمل الكفاح المسلح أو العنف الثوري. لقي الأمر ارتياحاً كبيراً لدى قيادات هذه المنظمات.

يضاف إلى ذلك أن معظم التنظيمات الثورية الصغيرة، التي تجاوزت فشل انتفاضة صيف ١٩٦٨ الأوروبية، توصّلت إلى قناعات حول الانضمام إلى حركات التحرير للتصدي لأنظمتها الرأسمالية، جنباً إلى جنب مع حركات التحرر العالمية، معتبرة أن تحقيق أهداف حركات التحرر سوف يضعف الأنظمة الإمبريالية إلى حد بعيد، ما سيتيح مجالاً لتراكمات ثورية قد تؤدي إلى انهيارها تحت وطأة أزماتها الاقتصادية الحادة.

تطابقت الأهداف مركزياً. فمن ناحية، أراد الفلسطينيون حلفاء دوليين يعملون معهم على ضرب مصالح إسرائيل، وهي مصالح إمبريالية. ومن ناحية أخرى، أراد الثوريون الدوليون الانخراط في كفاح ثوري مسلح ضد مصالح الإمبريالية من خلال حركات التحرر الوطني.

ذلك كان الأساس الموضوعي للتحالف الذي أنشأه الدكتور وديع حداد؛ إنما لم تكن إقامة التحالف بالمسألة الهينة. فقد كان على وديع حداد «أبو هاني» ورفاقه مناقشة تفاصيل الأساس الموضوعي للتحالف وبرنامج العمل العام، انطلاقاً من خصوصية النظام الذي تعيش في ظله كل مجموعة من المجموعات. كان على وديع حداد ورفاقه التأكد من السلامة الأمنية لمثل هذه الخطوات، وللتنظيمات التي ستشارك في الكفاح المسلّح ضد المصالح الإمبريالية، وعلى رأسها مصالح إسرائيل. كان يسعى إلى بلورة صيغة لتحالف يضم عدة تنظيمات أوروبية وغيرها، وربط التحالف بعلاقات منفردة مع الفلسطينيين، أي لكلّ تنظيم صلة بالمركز، من دون أن يعرف التنظيم الآخر. كان كل تنظيم يعلم أنه ضمن تحالف واسع، يستند إلى الأساس نفسه، وله البرنامج العام نفسه. كان جزءاً من التحالف ومستقلاً عن التنظيمات الأخرى. عندها أطلق وديع حداد شعار «وراء العدو في كل مكان»، وفتحت صفحة جديدة في تاريخ الكفاح المسلح، صفحة سطّرها تحالف ثوري فلسطيني وأممية ثورية صغيرة.

انطلقت العمليات تحت هذا الشعار «وراء العدو في كل مكان»، وأطلق عليه اسم «المجال الخارجي». تعددت الأسماء الملصَقة بهذا العمل الثوري الفلسطيني، فسمته الصحافة أحياناً جناح وديع حداد والعمليات الخاصة، ودائرة العمل الخاص في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أو العمليات الخارجية.

المغزى أن يشن هذا التحالف عمليات خارج فلسطين، تستهدف المصالح الحيوية الإسرائيلية، بحيث تتشتَّت عملية التركيز الإسرائيلي على فصائل المقاومة في فلسطين، وبحيث يولد وعي عالمي للحقوق الفلسطينية وعلى رأسها حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير. كان واضحاً للدكتور وديع حداد أن هذا الخط جديد في الفكر الثوري وممارسة العنف الثوري. لقد أضاف إلى القاموس الثوري كلمة جديدة إلى جانب الغيفارية، وحرب الشعب طويلة الأمد.

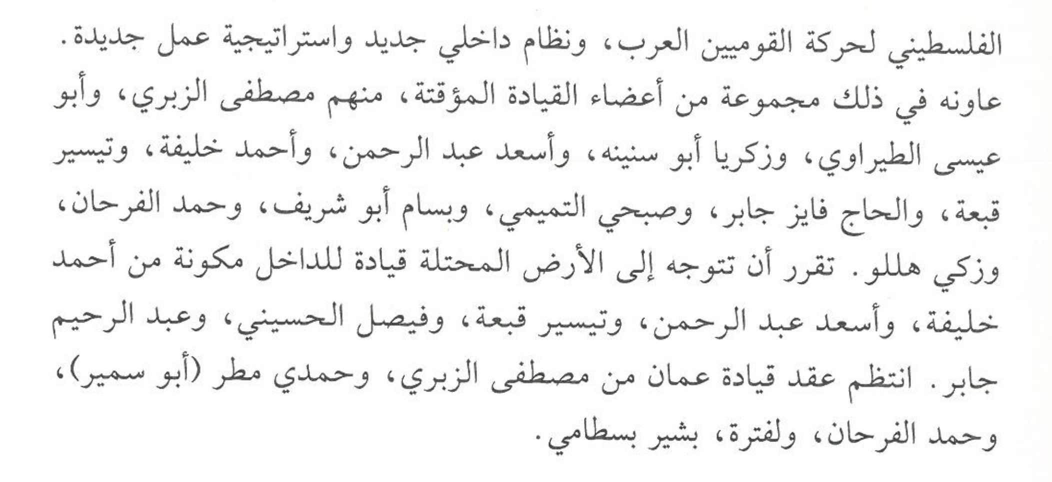
هكذا بدأ وديع حداد العمل في هذا الميدان الجديد الذي أذهل العالم، وأرعب الأنظمة الإمبريالية، وخلق موجة إعلامية لا مثيل لها أثارت موضوع الحقوق الفلسطينية. إنه خطّ كبّد هذه الدول مليارات الدولارات في محاولة لوضع حد له.

اعتقال جورج حبش ومواقف وديع حداد من الخلافات داخل صفوف الجبهة الشعبية

انطلق وديع حداد بأقصى سرعة وأعظم همّة نحو ترتيب العمل العسكري الثوري للتنظيم، الذي قررت اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب إنشاءه من أعضاء «إقليم فلسطين». إنه أمر يتطلب تجميع الأعضاء وتأهيلهم في معسكرات، وتوفير السلاح والذخائر اللازمة لهم كمقاتلين. كان حداد معنياً بتنظيم إخراج الكوادر من الأرض المحتلة لتأهيلها وإعادتها إلى مواقعها، داخل الضفة الغربية وغزة، مع آلاف من الأعضاء كانوا خارج الأرض المحتلة، فوجب على القيادة إدخالهم مؤهلين إلى الأرض المحتلة.

في الوقت نفسه، انطلق جورج حبش في قيادة العمل السياسي والحوارات مع قادة التنظيمات المقاتلة الأخرى («فتح»، وجبهة التحرير الفسطينية/ أحمد جبريل)، حول المرحلة، وكيفية مواجهة العدو، ووحدة أداة الثورة، أي وحدة التنظيمات المقاتلة في جبهة واحدة تقاتل ضد العدو المحتل.

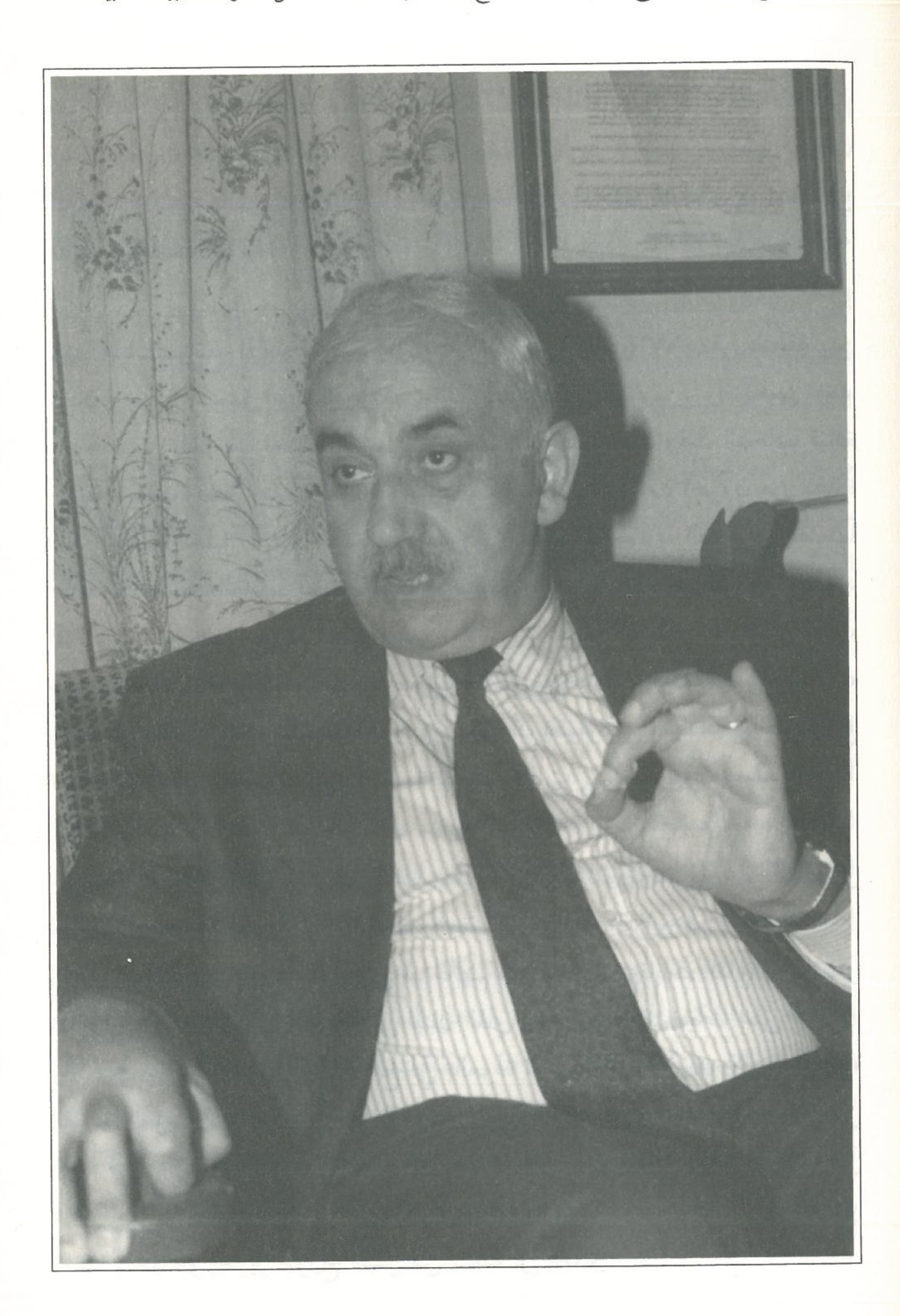
كما انكبّ وديع حداد على كتابة تقرير سياسي تنظيمي للمؤتمر الأول للتنظيم



الفلسطيني لحركة القوميين العرب، ونظام داخلي جديد واستراتيجية عمل جديدة. عاونه في ذلك مجموعة من أعضاء القيادة المؤقتة، منهم مصطفى الزبري، وأبو عيسى الطيراوي، وزكريا أبو سنينه، وأسعد عبد الرحمن، وأحمد خليفة، وتيسير قبعة، والحاج فايز جابر، وصبحي التميمي، وبسام أبو شريف، وحمد الفرحان، وزكي هللو. تقرر أن تتوجه إلى الأرض المحتلة قيادة للداخل مكونة من أحمد خليفة، وأسعد عبد الرحمن، وتيسير قبعة، وفيصل الحسيني، وعبد الرحيم جابر. انتظم عقد قيادة عمان من مصطفى الزبري، وحمدي مطر (أبو سمير)، وحمد الفرحان، ولفترة، بشير بسطامي.

في هذه الأثناء كان وديع حداد يقيم في دمشق التي اتُّخذت مركزاً لجميع العمليات التحضيرية واللوجستية. وكان يساعده مجموعة من القيادات منها: بسام أبو شريف، وزكي هللو، والهيثم الأيوبي، وأكرم صفدي، وهاني الهندي. سرعان ما اعتُقلت قيادة الداخل، ووجهت ضربة إلى التنظيم المنتشر في الضفة وقطاع غزة. إعتُقل الدكتور جورج حبش في دمشق بتهمة التحضير لانقلاب، وأودِع سجن الشيخ حسين وسط دمشق، واضطر وديع حداد للتوجه إلى عمّان بعد أن أصبح العمل في دمشق صعباً لا بل خطِراً. أصبح الوضع مربكاً للدكتور وديع حداد، فلم يعد قادراً على تخصيص جهده للنواحي العسكرية فقط؛ كان عليه أن يحمي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي أعلن اسمها في الثامن من تشرين الأول/ نوفمبر ١٩٦٧. إذ عصفت بصفوف الجبهة القاعدية والقيادية رياح التغيير والفكر الجديد، والنظريات اليسارية، والماركسية اللينينية.

حاولت مجموعة من الكوادر الطلابية، بقيادة نايف حواتمة، السيطرة على الجبهة محتمية بهجوم ظالم على كل القيادات القديمة، متهمة إياها بالتخلف الفكري والارتهان للأنظمة الوطنية «البرجوازية الصغيرة» مثل نظام جمال عبد الناصر على اعتبار أن هذه الأنظمة وبرامجها هي سبب هزيمة الـ ١٩٦٧.



ضمّ هذا التيار بقيادة نايف حواتمة كلاً من صالح رأفت، وإبراهيم قبعة، وعلي قبعة، وأديب عبد ربه، وياسر عبد ربه، وعبد الكريم الحمد، وسمير شهاب الدين، ومحمد كتمتو، وكوادر شابّة أخرى جاءت من إقليم فلسطين المنتشر في عدد من البلدان العربية.

تقرر عقد المؤتمر الأول للجبهة في آب/ أغسطس عام ١٩٦٨، في منطقة بين عمان وجرش اسمها «عين الرمان». إندلع الصراع بين التيارين. وانسحب حمد الفرحان من المؤتمر احتجاجاً على الوضع. أما عندما حان وقت انتخاب قيادة جديدة، فقد رفض وديع حداد المشاركة، وأيّده في الموقف آخرون من القادة الذين رفضوا تحليل نايف حواتمة المخطئ في اعتبار البرجوازية الصغيرة وأنظمتها جزءاً من معسكر العدو، كون التنظيم هو تنظيم «البروليتاريا». إعترض وديع حداد قائلاً: إننا نخوض معركة تحرر وطني، لا ثورة الطبقة العاملة. هنا ألقى نايف حواتمة خطاباً عاصفاً تحدث فيه عن نضال وديع حداد ورفاقه، وعن بطولات هؤلاء في مقارعة العدو، معلناً أهمية وضرورة أن يكونوا في القيادة. ورفض وديع حداد مرة أخرى.

حُسم الأمر بإقرار اقتراح تشكيل قيادة مصغرة مؤقتة، تدير وتشرف على التحضير لمؤتمر يُنتخب أعضاؤه من القاعدة، فعقد في شباط/ فبراير من العام ١٩٦٩. انفضّ المؤتمر، وعاد الأعضاء إلى ساحاتهم استعداداً للانتخابات القاعدية لمؤتمر شباط/ فبراير. كان عليَّ العودة إلى لبنان الذي جرت فيه الانتخابات على عجل، وانتُخبتُ عضواً للمؤتمر، ما سمح لي بالعودة السريعة إلى الأردن. توزع أعضاء القيادة المؤقتة لمتابعة ما أوكله المؤتمر إليهم. وقرر وديع حداد أن يسكن في غرفة في مخيم الوحدات لا تصلح إلاّ مخزناً، في حين سكن نايف حواتمة في شقة بجبل الحسين قريبة من بيت إبراهيم قبعة. انكبّ وديع حداد على تحقيق هدف واحد هو تحرير جورج حبش من سجنه في دمشق.

بصدور قرار مؤتمر آب/ أغسطس ١٩٦٨، أمر جمال عبد الناصر بقطع العلاقة مع الجبهة الشعبية، وترحيل أفراد الدورات العسكرية الذين كانت مصر تدربهم، ووقف تزويد الجبهة بالسلاح، احتجاجاً على اعتبار مصر نظاماً معادياً ومسؤولاً عن هزيمة الـ ١٩٦٧.

أمر وديع حداد باستطلاع موقع السجن، وحركة الدكتور جورج حبش منه وإليه. كان شتاء عام ١٩٦٨ قارصاً، ودمشق عُرضة لعواصف متتالية من الرياح والأمطار الشديدة، ما سبب زحمة سير خانقة في شوارع المدينة القديمة.

درجت العادة على استدعاء الدكتور جورج حبش من سجنه إلى مقر الاستخبارات مرة كل أسبوع. كان يمضي ساعتين في جلسة تحقيق مع مدير الاستخبارات عبد الكريم الجندي، ثم تعيده قافلة من السيارات العسكرية إلى سجنه في الشيخ حسين.

في اليوم المحدد، وأثناء عودة «الحكيم» من مقر الاستخبارات إلى السجن، اعترضت سياراتُ انضباط عسكرية، السيارةَ العسكرية التي تنقل الحكيم. استولى أفراد مسلحون يلبسون بزات الانضباط العسكري على السيارات العسكرية الأخرى، فجرِّد العسكريون من سلاحهم، وأقبل ضابط انضباط عسكري على السيارة التي تقل الحكيم، فأمره بالنزول والتوجه إلى سيارة عند ناصية الشارع. إحتج الحكيم، فصرخ به الضابط أن يترجّل ويسرع إلى السيارة الأخرى، ففعل. كان الضابط العقيد، أبو طلعت، أحد أبطال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لحِق أبو طلعت بالدكتور جورج حبش، فدخل السيارة وجلس إلى جانبه مصدِراً أمراً صارماً للسائق بالتحرك بأقصى سرعة. انطلقت السيارة نحو معبر غير رسمي على الحدود بين لبنان وسورية، متجهة إلى الأراضي اللبنانية، وتحديداً نحو بيروت. كانت كافة الأمور قد رُتِّبت. توقفت السيارة، وترجّل منها الدكتور جورج حبش ومرافقوه، ليستقلوا سيارة أخرى قادتهم من أمام قصر صالحة إلى بيت الدكتور نجيب أبو حيدر. كان بيتَ العائلة القديم، مطلاً على البحر من رأس تلة، عند

نهاية «قريطم»، محاطاً بحديقة كبيرة يحرسها كلبان من فصيلة الذئاب، وحولَ المنزل سور قديم مرتفع. التقينا بالدكتور جورج حبش عناقاً، فأبلغه الدكتور وديع أنه ـ أي جورج ـ سيسافر في الغد إلى القاهرة لأن لقاء قد رتّب مع جمال عبد الناصر. ظن وديع أن هذا هو أفضل طريق لتجنّب أي ملاحقة قد تقوم بها الاستخبارات السورية.

حالما وصلت عائلة الدكتور جورج حبش، غادر الجميع على أساس سفره في اليوم التالي. أُجريت الترتيبات للحماية ثم للمواكبة إلى المطار، ثم الصعود إلى الطائرة. أذكر أن أكثر من مئة مقاتل انتشر في بهو المطار للسيطرة على الوضع. وما إن وصل الدكتور جورج حبش، صباحاً، إلى المطار حتى التفّت حوله مجموعة الحماية واستنفر الباقون تحسباً. كان جهاز الأمن اللبناني على علم بذلك، فسهّل توجهه مباشرة إلى الطائرة الخاصة التي أقلته إلى مصر، حيث كان جمال عبد الناصر ينتظره، لبحث ما يجري في الساحة الفلسطينية وداخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

بعد بحث مطوّل عبّر فيه الدكتور جورج حبش عن الرغبة والحرص على تنمية التحالف الاستراتيجي بين الحركة النضالية الفلسطينية، ومصر عبد الناصر، اتُّفق على لقاء آخر في شباط/ فبراير عام ١٩٦٩. من القاهرة توجه جورج حبش إلى العراق، حيث أجرى لقاءات سريعة مع القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان قد استولى على الحكم وتسلّم السلطة عام ١٩٦٨. تلّقى جورج حبش وعداً بالدعم تدريباً وتسليحاً. كانت القوات العراقية ما زالت تتمركز في صحراء الأردن منذ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، تحديداً في منطقة المفرق الصحراوية. توجّه جورج حبش بلباس ضابط عراقي إلى الأردن يصبِّره صقيع الصحراء. وصل إلى عمّان ليبدأ مرحلة جديدة من العناء، لجهة التناقضات الداخلية ومواجهة التصعيد الإسرائيلي، ومحاولات العدو للقضاء على براعم الثورة الفلسطينية المتفتّحة.

كانت عملية تحرير جورج حبش أول عملية خاصة خطط لها وديع حداد وأشرف على تنفيذها. كانت غرفة عملياته، في مخيم الوحدات جنوب عمان، مكوّنة من مخزن بطول مترين وعرض مئة وخمسين متراً، ذي نافذة واحدة وباب من «الزينكو» لا قفل له. كانت طاولته «طبلية»، وفراشه من صوف لبّدته السنوات، وأرخاه ثقل الاستعمال.

في تلك الفترة أطلق وديع حداد ذقنه، وبدأ يعتمر الحطّة والعقال كشيخ من شيوخ السلفيين. كانت أصابعه الرفيعة والدقيقة تمسك بقلم الحبر الجاف، لتكتب بسرعة الـ«مورس» كلمات، وترسم أسهماً، وتضع علامات سؤال على الورق المبعثر أمامه. أضحت هذه العملية نموذجاً وتجربة: نموذجاً للقدرة على التخطيط ودقته، وتجربة للقدرة على التنفيذ وفاعليته. اتّسعت آفاق لا حدود لها، كانت تبدو أوضح فأوضح مع تصعيد العدو عدوانه، وتفاقم المصاعب والعقبات أمام العمل داخل الأرض المحتلة أو من محيطها. فتحت هذه الآفاق في مخيلة وديع الثورية أبواباً لا حصر لها، ورسمت أهدافاً تنزل بالعدو خسارة وألماً.

لماذا الجيش الأحمر ومن هو الإرهابي

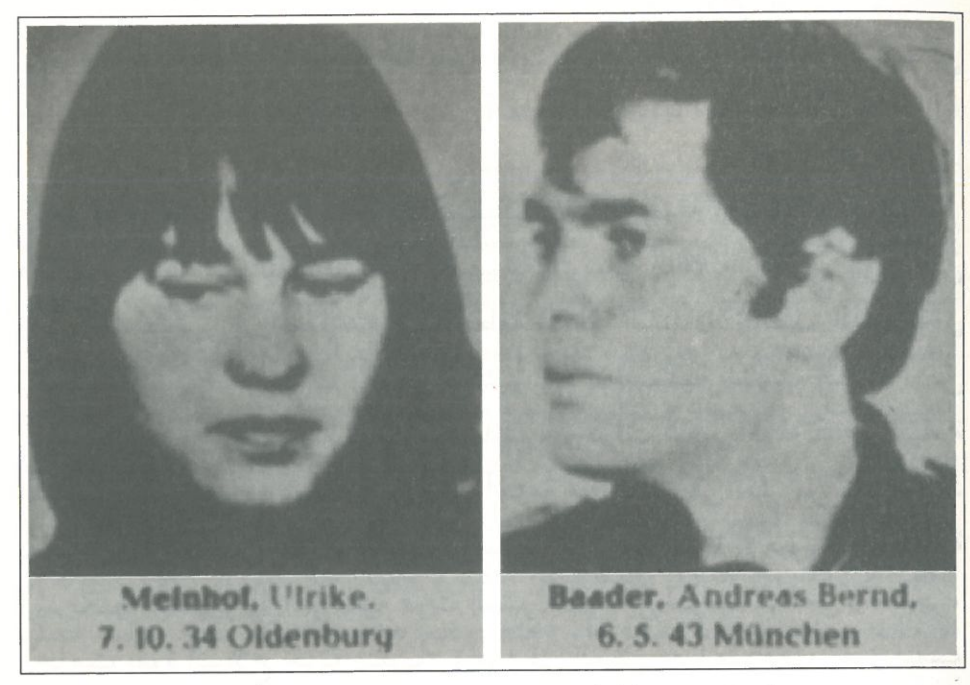
كثيرون مَن حاولوا تفسير ظاهرة الجيش الأحمر الألماني، وما ولّد من خلايا ثورية، وما تبقى من مجموعات لا تعرف عنهم الجهات الملاحقة لهم شيئاً حتى الآن. يعتقد البعض أن هذه الظاهرة قد انتهت، وأن أجهزة مكافحة الإرهاب تمكنت من القضاء عليها تماماً في ألمانيا، كما تظن الـ دي إس تي (DST) أنها قضت على الظواهر المشابهة في فرنسا. لكن الحقيقة تخالف هذا الاعتقاد. فالظواهر الشبيهة ـ سمِّها إرهابية أو ثورية أو ما تشاء ميولك الفكرية أن تسميها ـ لا تأتي من فراغ. إذ لا وجود للفراغ في عالمنا هذا. لا يحدث شيء على وجه الأرض دون أن يكون له محرك ودافع، أو نتيجة لتفاعل يُحدث تأثيرات جدلية. الحياة جدلية وكل حركة في التاريخ جدلية، وتراكم الكمّ في هذا العالم لا بد من أن يأتي بتغيير النوع. هذا قانون علمي يمكن تطبيقه على قراءة في التاريخ وقراءة في الصراع الاجتماعي، ويمكن استخدامه أداة لقراءة المتوقع وتوقع المستقبل.

في الحديث عن أولريكه ماينهوف، لا يظنّن أحد أننا نعدها نموذجاً يحتذى به، فهي كانت تلميذة إبتدائية في هذا البحر الجدلي من الصراع الاجتماعي والتطور التاريخي. كانت تتعلم، وإن ظن الكثيرون أنها كانت تعلم. أولريكه ماينهوف

صحفية قادرة على التعبير كتابةً عن مشاهداتها ومشاعرها. وهي امرأة تتأثر بما يدور حولها، وبما تشاهده وتسمعه وتحس به. وَعت ما يحدث من تناقضات في فترة تاريخية شهدت مخاضات إجتماعية عميقة في كل أوروبا. عبّرت هذه المخاضات عن نفسها بأشكال متعددة: إنتفاضة باريس الكبرى في أيار/ مايو ١٩٦٨، مظاهرات ألمانيا الصاخبة، إنتفاضات متفرقة في هولندا وإيطاليا وإسبانيا واسكندنافيا.

بطبيعة الحال فشلت كل هذه الانتفاضات في إحداث التغيير. لكن أي تغيير؟ هذه قضية مهمة لم تتمكن كل الفصائل الثورية أو الإرهابية من إيجاد إجابة عنها. فمن ناحية، كانت هذه المجموعات تشعر بما يشعر به المظلومون والفقراء، وسكان مدن التنك المحيطة بقصور الأغنياء في أوروبا. أي إن هذه المجموعات عانت كما عانى فقراء مدن التنك الأوروبية، وأحست بمطرقة الرأسمالية الظالمة والمستغلة تنهال سحقاً على رؤوسهم لتحويلها إلى جماجم. ومن ناحية أخرى، كانوا يلمسون أن الأحزاب الشيوعية التقليدية أو الإصلاحية لم تنجح في إنقاذ رؤوسهم من مطرقة الرأسمالية، بل تحولت إلى سندان يكسر عظام أجسادهم. بين مطرقة الرأسمالية الظالمة وسندان الأحزاب الشيوعية الفاشلة، وجد هؤلاء أنفسهم وقد حاولوا الانتفاض على الوضع ففشلوا، لأنهم لم يحددوا لأنفسهم هدفاً أو طريقاً لبلوغ هذا الهدف. فتحولت تحرّكاتهم إلى تشكيلة من ردود الفعل، أو إلى حالة من العنف الفوضوي، الذي يتلاشى تأثيره بسبب ضياع الهدف. كانوا جميعاً ككرة مصنوعة من أشرطة قماشية: كلما صوبتها بقوة باتجاه ما، تفككت الأشرطة وانطلقت الكرة نحو هدف آخر.

أن يعرف المحللون هذه الظروف هو العامل الأهم في تحليل هذه الظواهر، وإيجاد حلول لأسبابها، ولا يمكن أن تكون المطرقة حلاً من الحلول. فالقانون العالمي يسري مفعوله في هذا السياق أيضاً، فلكل فعل رد فعل موازٍ له في القوة، وهنا يجوز استخدام تعبير وصفيّ أدق: «كل عنف تستخدمه السلطات الرأسمالية



أندرياس بادر وأولريكه ماينهوف مؤسسا الخلايا الحمر الألمانية

الظالمة ضد الفقراء والمسحوقين سيواجَه بعنف مضاد، ولا شك لدي في أن أجهزة الرأسمالية الظالمة ستطلق عليه صفة «الإرهاب» بينما لا تصف عملها وعنفها الظالم إلاّ بـ«الإجراءات القانونية»، أو «حفظ الأمن» أو «حفظ النظام». فهذه التعابير كانت تعني لهذه المجموعات استمرار البطش وإرهاب السلطة ضد المطالبين بأبسط حقوق الإنسان الحياتية: الأجر المناسب لقوة عملهم، وإنتاجهم الذي تنهبه الرأسمالية الظالمة».

إذا استوعب العالم هذا الأمر، سهُل تفسير هذه الظواهر. قد يكون ضرورياً أن نفسر أيضاً علاقة هذه المجموعات بالثورة الفلسطينية والدكتور وديع حداد قائد العمليات الخاصة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لماذا التفّت المجموعات الثورية أو الإرهابية ـ كما يحلو للرأسمالية والصهيونية تسميتها ـ حول الثورة الفلسطينية وحول دائرة العنف الثوري بقيادة المعلم وديع حداد؟ هذا الموضوع هو

أيضاً موضوع رئيسي لا بد من استيعابه وفهمه ليكون تفسير الظواهر الثورية في العالم الرأسمالي، في تلك الفترة، تفسيراً علمياً ومنطقياً.

المطرقة والسندان في الساحة الفلسطينية كانا المطرقة والسندان نفسيهما. فالأوروبيون والامبريالية الظالمة، والصهيونية التوسعية الدموية، مطرقة تهوي على رأس الفلسطينيين؛ وحلفاؤهم في المنطقة شكّلوا السندان. فالظلم الذي أُلحق بالفلسطينيين هو أفتك وأعمق بكثير. إذ إن عملية النهب طالت أرض الفلسطينيين، وبيوتهم وأملاكهم ومقدساتهم، وحوّلت شعباً بأكمله ـ عبر سياسة الترحيل بالقوة ـ إلى شعب لاجئ في أحزمة من التنك في أكثر من بلد محيط بفلسطين. لم تطَل عملية النهب والسلب التي مارستها الامبريالية الظالمة وشريكتها الصهيونية التوسعية قوت البشر فقط، بل سرقت الشجر والحجر، وحرمت بقوة السلاح حرية شعب، وحقه في العيش حراً مستقلاً، يقرر لنفسه مستقبله ديموقراطياً. سمِّيت إرهاباً عملية الدفاع عن النفس من قبل شعب آمن سُرقت أرضه وطرد من قراه ومدنه، ورُحِّل أولاده إلى مخيمات التنك من قبل معسكر الامبريالية الظالمة والصهيونية الدموية التوسعية. أما ما أنزل بالشعب الفلسطيني من ظلم وقتل، وما ارتكبته الصهيونية الدموية التوسعية، بدعم من الرأسمالية الظالمة، من مجازر ضد الشعب الفلسطيني (دير ياسين، كفر قاسم، السموع، الجليل)، فلا يسمى إرهاباً!

القانون مقلوب على رأسه، لكن الهرم لا يمكن أن يبقى صامداً طويلاً إذا أوقف على رأسه.

لقد اختبرت الحركة الفلسطينية الثورية كلها (جميع فصائلها التي شَكّلت منظمة التحرير الفلسطينية) الوضع نفسه الذي مرت به تلك المجموعات الأوروبية مع ملاحظة الفوارق النسبية. فقد كانت تواجه عدواً يتفوق عليها عدّة وسلاحاً ومقدرة وأجهزة، ويُهوى على رأسها بالمطرقة دون توقف ـ مثلما كان فقراء أوروبا

يواجهون مطرقة الرأسمالية الظالمة. أجبرت الظروف القاسية الفلسطينيين على الدفاع عن أنفسهم بما لديهم من أجساد وحجارة، في حين أسمتهم الرأسمالية الظالمة والصهيونية الدموية التوسعية إرهابيين.

إستوعب الدكتور وديع حداد، بعقله العلمي وقدرته على الرؤية الشفافة، أنْ لا سبيل أمام الفلسطينيين سوى مراكمة عمليات الدفاع عن النفس ومقاومة من نهبوا أرضهم وطردوهم من بيوتهم، كيما يتحول هذا التراكم إلى تغير نوعي، يشمل الميزان على الأرض، والرأي العام العالمي، ومواقف الدول الغنية والأمم المتحدة. كان عليه أن يجد المعادلة المناسبة: إذ كان الهدف واضحاً، إنما يتطلب اختيار السبل والوسائل للوصول إليه، أي سبل ووسائل إحداث التراكم الكمي في مقاومة العدو، والدفاع عن النفس. وبينما حار الثوريون الأوروبيون في الإجابة عن سؤال «ما العمل؟»، إختطّ وديع حداد تكتيكاً يسهل عليه عملية التراكم.

فآلة العدو الضخمة والمعقدة والمتقدمة تكنولوجياً لا يمكن مواجهتها والانتصار عليها بأدوات شبيهة، لكن من الممكن إحداث خلل فيها من خلال براغيها أو مفاصلها أو تيارها الكهربائي. أي إن توجيه ضربات إلى نقاط ضعف هذا العدو الظالم والمعتدي والمغتصب أرضَ شعب آمن، سوف يربك آلته العدوانية الضخمة. بما أن هذه الآلة ممتدة الأذرع ومتناهية الأطراف، فلا شك سوف تطال عملية ضرب مناطق الضعف ذراعاً، أو قدماً، أو مفصلاً في بقعة أخرى من العالم المتّحد ضد الأنظمة الرأسمالية الظالمة والصهيونية الدموية التوسعية.

هكذا كان الوضع في نهاية عام ١٩٦٨، وهكذا تبلور شعار «وراء العدو في كل مكان». و«في كل مكان» كانت تعني ملاحقة العدو في أكثر من مكان وبمشاركة تحالفات ثورية دولية. فإسرائيل هي طفل الرأسمالية الظالمة المدلل، لأن مصالحها تقتضي ذلك. والصهيونية الدموية التوسعية حركة استغلالية رأسمالية قابضة. كما لا علاقة للصراع الدائر في الشرق الأوسط بالدين والديانات أو

خزعبلات التاريخ. ما يجري هو حرب مصالح، حرب الجشعين الرأسماليين، من ضمنهم الصهيونية الجشعة التي تستغل اليهود والدين اليهودي.

من ناحية أخرى، نضيف أن انتفاضات ١٩٦٨ في أوروبا جمعت ذوي الانتماءات الفكرية المختلفة، بعد إصابتهم بخيبة أمل إزاء الأحزاب الشيوعية وما سبّبت من انشقاقات (تروتسكية، غيفارية، ماوية)، كما جمعت فوضويين كانوا ينشدون إنتصاراً في كسر قانون الرأسمالية الظالمة. لذلك نجد، مثلاً، إلى جانب أولريكه ماينهوف، الكاتبة الصحفية والمطّلعة على الفكر اليساري، أندرياس بادر غير المتعلم ولص الشوارع وهاوي سرقة السيارات، الذي كان يمتلك الجرأة المجنونة، من دون أن يحسب للحياة حساباً. كان يعتبر أن حياته ليست ذات قيمة. فطالما أنه سيبقى فقيراً مسحوقاً، قرر أن يستولي على أموال الرأسمالية إلى أن يقضى عليه. كان أندرياس بادر سارق سيارات فخمة. لم يهمه أن يسرق سيارة عادية لشخص عادي، بل عمد إلى سرقة أفخم السيارات التي يمتلكها الأغنياء.

الحقيقة أن مجموعة الجيش الأحمر التي عرفت باسم بادر ـ ماينهوف لم تكن قائمة على فكر أي منهما، بل لعب آخرون دوراً أهم بكثير من دور أولريكه ماينهوف في بلورة وكتابة مواقف الجيش الأحمر الألماني. انطلاقاً من هذا الفهم العميق لأسباب نشوء هذه الظواهر، بغض النظر عما تطلقه الرأسمالية الظالمة والصهيونية الدموية التوسعية على هذه المجموعات، نقول إنها ظواهر لم تختفِ، ولن تختفي طالما بقيت الأسباب قائمة.

ما يعزز هذا الاحتمال أن الفقراء والمسحوقين والمطرودين من أرضهم لا يعدّون الحركات الإسلامية المتطرفة معبرة عن تطلّعاتهم، لكنهم مضطرون للدفاع عن أنفسهم كلما تراكم الظلم، وتلاشى المنطق، وانعدمت أبسط أسس العدالة.

غريبة هي العفوية التي طبعت ولادة أولى مجموعات الجيش الأحمر. فإزاء الأوضاع الاقتصادية المزرية في ألمانيا، تجمعت بعض النسوة الغاضبات، وعلى

رأسهنّ روتي زورا، في تنظيم يفتقر إلى الحدّ الأدنى من الهيكلية. وحدث أن التقت هؤلاء النسوة بمجموعة من الشباب المعجبين بفكرة الحكم الذاتي (AUTONOMEN) ـ أن يحكم الشعب نفسه بنفسه. وقد عمد أحدهم إلى رسم صورة شعبية لتنظيم يساري جديد. فتحلّق حول الصورة أفراد متمرّدون على سلطة الرأسمالية الظالمة الجشعة، أمثال أندرياس بادر.

لكن إشهار التنظيم، لاتخاذ موقعه في الخريطة السياسية النضالية، وذيوع اسمه «الجيش الأحمر الألماني»، جاء بعد مشاركة هذا التنظيم الفعلية في ساحة المعركة العملية ضد الرأسمالية الظالمة والصهيونية الدموية التوسعية، في عملية عنتيبي، عام ١٩٧٦. فقد شارك عضوان منهم في عملية اختطاف طائرة «إيرفرانس» إلى أوغندا، وشاركا المقاتلين الفلسطينيين الآخرين في معركة ضد القوات الخاصة الإسرائيلية التي أُنزلت باتفاق مع كينيا وضباط أوغنديين. وتعمّد بالدم التحالف بين العمليات الخاصة في الجبهة الشعبية بقيادة وديع حداد، مع الجيش الأحمر الألماني. وانخرط أعضاء الجيش في المعركة المشتركة، ما أدّى إلى ترسيخ غير مسبوق في أوساط الجيش الأحمر لهويته الفكرية. ساهم في بلورة تصور وديع حداد العام للمواجهة، إقتناعُه في أن طريق التصدي لأنظمة الرأسمالية الظالمة هو النضال ضدها مع حركة التحرر في العالم الثالث، حيث تدور عملية النهب والجلد والقتل بأبشع صورها الامبريالية والصهيونية. كانت عملية مقديشو إحدى محاولات الخلايا السرّية الألمانية للإفراج عن زملاء لهم اعتقلتهم السلطات الألمانية. لكن «رشوة» النظام في مقديشو مكّنت القوات الخاصة الألمانية من اقتحام الطائرة والسيطرة عليها، حيث قُتل الكابتن الفلسطيني محمود، الذي قاد الفريق الألماني ـ الفلسطيني في عملية اختطاف الطائرة ومساومة ألمانيا للإفراج عن المعتقلين الألمان.

الاتصال الأول والصلة مع الجيش الأحمر الياباني

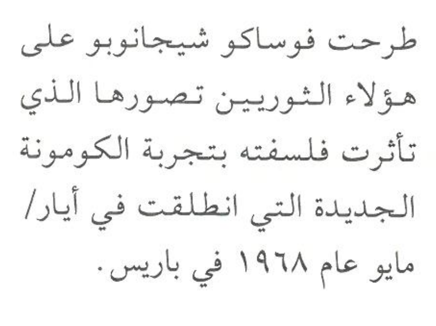
عصفت رياح الثورة على الأوضاع الاقتصادية السائدة في البلدان الرأسمالية، أيضاً باليابان في عقد الستينيات. فقد اتّسعت الهوة بين الفقراء وأثرياء الغنى الفاحش. فها هي الشركات تندمج وتتمحور في مجمّعات ضخمة ومركبة، استحوذت على قوت الفقراء بهيمنتها على الإنتاج والأسواق. بالتالي، نشأت تنظيمات صغيرة متعددة أطلقت على نفسها أسماء تشير إلى نواياها، من دون أن تتحول هذه النوايا إلى أفعال حقيقية ملموسة. كنتَ تقرأ في تلك الأيام، خاصة مع بداية عام ١٩٦٨، بيانات ثورية صادرة عن تنظيمات كالجيش الياباني، والثوريين الحمر، والجنود الحمر، وجيش الفقراء، وغيرهم.

رغم عدم قدرة هذه التنظيمات على ترجمة أقوالها إلى أفعال، استغِلت التناقضات بين أعضائها، إلى حدّ خوض معارك تصفية جسدية في ما بينهم، في مناطق جبلية نائية.

في ظل هذه الظروف المعقّدة والصعبة، لمعَت فوساكو شيجانوبو «المرأة الحديدية»، التي تمكنت من قيادة مجموعة من الثوريين المنتمين إلى تنظيمات يابانية صغيرة، والمتمسكين بآراء ثورية ضد النظام الرأسمالي.



فوساكو شيجانوبو زعيمة الجيش الأحمر الياباني



طرحت فوساكو شيجانوبو على هؤلاء الثوريين تصورها الذي تأثرت فلسفته بتجربة الكومونة الجديدة التي انطلقت في أيار/ مايو عام ١٩٦٨ في باريس.

شارك في انتفاضة باريس عام ١٩٦٨ كافة الفصائل الثورية الصغيرة. كان معظمها مؤلفاً من شيوعيين انفصلوا عن الحزب الشيوعي الفرنسي احتجاجاً على فشله، ورفضاً لتحوّله إلى حزب مؤسسات أو شركات رأسمالية حسب تعبير بعضهم. كانت بعض المجموعات ماوية التوجه، وبعضها تروتسكية وبعضها غيفارية. فشل الجميع، لأن أحداً منهم لم يتمكن من طرح وجهة نظر قادرة على إقناع الثوريين ممّن يعصف بهم كبت الفشل أمام أجهزة الرأسمالية، أو خطّة شمولية تنظم وتؤطر هذا المدّ الثوري، في إطار فاعل ومنتج على طريق دحر الرأسمالية التي كانت عماد أنظمة بلدانهم.

حتى فوساكو التي طرحت على الثوريين اليابانيين فكرة التحالف الدولي، لم تكن قد بلورت وجهة نظر قادرة على التجنيد المنتج. لم تتمكن من ذلك إلاّ بعد تحالفها مع وديع حداد، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. فقد بلور الدكتور وديع حداد وعدد من رفاقه فكرة التحالف الدولي بين الفصائل الثورية الصغيرة المستعدة للتضحية لمواجهة الإمبريالية، عبر حركات التحرر في العالم الثالث، بالاشتراك معها في كفاحها الوطني ضد الامبريالية وأدواتها ـ سواء أكانت أنظمة حليفة لها، أم مستعمرات زرعت في أراضي شعوب العالم الثالث، كنظام جنوب أفريقيا

العنصري، والجيوش الإمبريالية في فيتنام، وإسرائيل التي اصطُنِعت في الشرق الأوسط.

كانت فوساكو شيجانوبو معروفة للأمن الياباني الذي لم يعتقلها، لكنه منعها من السفر خارج البلاد. فقد كانت شخصية محبوبة على امتداد اليابان، لها علاقات وثيقة بكبار الفنانين، والممثلين، والسينمائيين، والمسرحيين، والأكاديميين، والكتّاب، والمثقفين إجمالاً، ما وفّر لها نوعاً من الحماية. ولعلّها استفادت من معرفتها وصداقاتها بكبار الكتّاب اليابانيين، ممن حازوا على جوائز عالمية ـ من بينهم البروفسور أوادا من جامعة طوكيو.

لفت انتباه فوساكو شيجانوبو الشرق الأوسط والمعركة المحتدمة فيه منذ احتلال إسرائيل سيناء، والجولان، والضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧. كما شدّتها إلى الصراع في الشرق الأوسط عملية اختطاف الطائرات الضخمة عام ١٩٧٠. فقررت التوجه هناك لإجراء لقاء مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وفي ليلة تجمعُ أكثر من أربعين يابانية ويابانياً، حُجِز مطعم ياباني وسط مدينة طوكيو لمناسبة سعيدة. كانت ليلة زفاف فوساكو شيجانوبو، حين حضرت صديقتها الحميمة توكيكو كاتو، إحدى أشهر مغنيات اليابان وأكثرهن شعبية. فغنّت OH, LE JOLI MOIS DU MAI A PARIS (يا شهر أيار الجميل في باريس). هي أغنية تمجّد الانتفاضة الثورية التي انطلقت في باريس في أيار/ مايو عام ١٩٦٨. أعلن ليلتها زواج شيجانوبو من شاب جميل الطلعة، غاية في الوسامة، طويل القامة، ذي بنية رياضية، هو تاكاشي أوكودايره TAKASHI OKUDAIRA. لقد لُقِّب بعد مجيئه إلى الشرق الأوسط بـ «باسم».

وقع جون كريغ في خطأ جسيم عندما كتب في **الملكة الحمراء** أن العلاقة بدأت بإرسال عراقي إسمه «باسم» إلى طوكيو، لعقد لقاءات مع الجيش الأحمر الياباني عام ١٩٧٠. ينطوي هذا الكلام على أخطاء فادحة، فاللقاءات بين الجيش الأحمر

الياباني والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين جرت في بيروت، وجبال عجلون في الأردن، حيث نُقلت قواعد المقاتلين خارج عمان بعد معارك أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٠. أما باسم الذي سافر إلى اليابان فهو أوكودايره الذي سمي في الشرق «باسم»، وهو إسم شائع جداً. أعتذر من جون كريغ، لكن الحقيقة هي أسمى من الجميع. فمن الأمانة على أي كاتب ألاّ يخترع الأمور بل أن يقول الحقيقة، وإذا كان لا يعرفها فلا شيء يرغمه على اختراعها.

بعد زواجها، حملت شيجانوبو اسم زوجها، فمكّنها الحصول على جواز سفر جديد باسم السيدة أوكودايره. هكذا خرجت فوساكو شيجانوبو من اليابان برفقة زوجها ومجموعة من الفنانين السينمائيين: مخرج، مصور، وفنّيي صوت. كان هذا هو الطاقم الذي سينتج فيلماً عن الحرب في الشرق الأوسط والمقاومة المسلحة، كما كان عذراً للخروج وغطاء للمباحثات. أما الرجل الأهم في فريقها فهو المخرج الياباني الرائع ADATCHI، أحد أشهر مخرجي اليابان الثوريين على الإطلاق، وهو رجل سمح الوجه، قصير القامة قوي البنية، حادّ الذكاء، وفنان عظيم. تسترعيه كل حركة ولفتة وزاوية. كانت بيروت المحطة الأولى للفريق السينمائي الياباني.

إذ كانت مجلة **الهدف** التي أسستها الجبهة الشعبية بعد أن اشترت الامتياز حسب القوانين اللبنانية، هي الباب الوحيد الذي يمكن لأي جهة أن تطرقه للاتصال بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وبالفعل توجه الفريق الياباني إلى عنوان مجلة **الهدف** في كورنيش المزرعة، للبحث في تصوير فيلم عن المقاومة المسلحة من خلال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

كان ذلك أواخر عام ١٩٧٠، على أثر توقّف المعارك بين قوات الثورة الفلسطينية والجيش الأردني، وتوقيع الاتفاق الذي يلزم منظمة التحرير الفلسطينية بإخراج



فوساكو شيجانوبو مع ابنتها مي

قواتها وأسلحتها من العاصمة عمّان إلى أحراج دبين في منطقة عجلون.

كانت قوات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من ضمن هذه القوات. تمركزت القيادة في هذه المنطقة، حيث اتخذ الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين خيمة «مقراً» له، فيما اتخذ ياسر عرفات مغارة في أعالي منطقة دبين مقراً له.

أول مَن التقت بهم فوساكو شيجانوبو وأداتشي كان غسان كنفاني، المسؤول الأول عن إعلام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. أما أنا فقد لذت بالصمت معظم الوقت، وانصبّ ذهني على مراقبة كل حركاتها وخلجات وجهها، كذلك وجه أداتشي. كان وجهها ناعماً، وعيناها صغيرتين لكنهما تشعّان حيوية فورَ الحديث عن الثورة. يدها صغيرة الحجم، وأصابعها دقيقة جداً. كانت تتصرف كرفيقة مقاتلة، لا كسيدة مهتمة بالسينما.

أثناء الحديث، انتفضت واقفة أكثر من مرة لتربِّت بكفها الصغير كتفي تأكيداً على

أحد المواضيع. وإذْ كانت كلمة ما تتعثر في التلفّظ من فمها إلى العلن، بسبب ضعفها في اللغة الإنكليزية، كانت تلقي برأسها إلى الخلف وتصرخ: «ا...م»، ثم تقفز حالما تجد الكلمة طريقها، رغم الخطأ الواضح في اللفظ. لكننا تأقلمنا بسرعة مع طريقة النطق، وصار التفاهم أسهل. فهمْنا القصد من الزيارة، والهدف من الفيلم. وعرض أداتشي جزءاً رائعاً من فيلم أخرجه.

قرر غسان كنفاني إرسالهم إلى جبل عجلون، على أن يعودوا إلى بيروت لترتيب لقاء لهم مع العمليات الخارجية. أبلغتهم بالرحلة التي تنتظرهم ومخاطرها، في ظل الظروف الراهنة والأجواء المشحونة في المنطقة التي سيتوجهون لها. لكنهم ازدادوا إصراراً؛ وبشجاعة فائقة همّ الجميع للسفر. رتبنا لهم كل شيء. بلغوا الجبال، حيث تمركزت قواتنا، وحيث كان كارلوس مستنفراً مع القوات، من دون أن يعرفوا أنه يعلم عنهم. إلتقوا بمصطفى «أبو علي مصطفى»، وبعد تصوير المشاهد المطلوبة، جرى حديث خاص بين أبو علي وشيجانوبو. لم يكن أبو علي يتحدث إلاّ العربية، فتعذّر التفاهم. وما كان منه إلا أن أحالها إلى بيروت لتتحدث مع أبو هاني «د. وديع حداد». أمضوا الليلة في الجبال، وانطلقوا إلى بيروت مساء اليوم التالي، بعد أن أكملوا التصوير: والتقينا بهم بعد أربعة أيام من مغادرتهم بيروت إلى الأردن. حسب الاتفاق، كنا قد أبلغنا القائد وديع حداد بوصولهم وبرغبتهم في بحث التعاون، فرحّب بذلك. كما هي العادة، أُطلق على أفراد المجموعة أسماء عربية للحفاظ على سرّيتهم: مريم هو الاسم العربي لفوساكو شيجانوبو؛ نبيل كان الاسم العربي لأداتشي، وباسم كان الاسم العربي لزوجها تاكاشي أوكودايره.

بالنسبة إلى شيجانوبو كان هذا موعدها مع نفسها وما تؤمن به. كان طريقها لتقود الثوريين اليابانيين، في مسيرة جديدة لمواجهة نظامهم الرأسمالي، جنباً إلى جنب مع الثوريين في البلدان الرأسمالية المتغطرسة بوسائل القهر والتحكم بالشعوب.

إنها فلسطين، إنها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

فلسطين هي البوابة التي سيعبر فيها، ومنها، الثوريون اليابانيون إلى ساحة المعركة الفعلية ضد الإمبريالية؛ والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هي الحاضن الذي سيجمع الثوريين من بلدان العالم على قاعدة فكرية واحدة، وممارسة ثورية تضرب وتستهدف نقاط الضعف في المعسكر الإمبريالي المعتدي على شعوب العالم الثالث، الذي ينهب ثرواتهم ويبقيهم في فقر وتخلف.

«لننخرط أيها الثوريون في البلدان الرأسمالية في حركة التحرر الفلسطينية، ولنوجه الضربات إلى أنظمتها الإمبريالية والدول التي خلقتها لتكون أدوات تدور في فلكها لحماية مصالحها من ثورات الشعوب». كان هذا لسان حال مريم أميرة الثوريين اليابانيين الجميلة، الرقيقة، الحازمة، التي لا يرمش جفنها عندما تصدر الأوامر بشن الحرب أو بالتوقف عن الضرب. توجهت لملاقاة وديع حداد، واضع النظرية الثورية الجديدة: «الحلف الدولي الثوري ينخرط في صفوف حركة شعوب العالم الثالث ليواجه أنظمته الرأسمالية في ساحات معاركها ضد الشعوب، قتال الشعوب ضد أنظمتهم كي تنتصر وسينتصرون هم أيضاً». من دون حرية تبقى الإنتاجية أسيرة، بينما الإنتاجية الحرّة هي التي تعطي الإنسان قيمته الحقيقية. لم يطل إجتماع وديع حداد بمريم القائدة الثورية اليابانية، واتُّفق على برنامج لتدريب أعضاء الجيش الأحمر تدريباً مكثفاً في الشرق الأوسط.

هكذا بدأت رحلة فوساكو شيجانوبو أميرة الثوريين اليابانيين نحو قمة التنظيمات الثورية اليابانية. وانطلق المشوار الطويل لتعريف العالم بقضايا يعاني منها الشعب الياباني. طرحت شيجانوبو ورفاقها، لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، قيادة يابانية جديدة، مع احتمال بروز قيادة تاريخية تحرر اليابان وتعيد إلى اليابانيين قيمتهم من خلال حريتهم وإنتاجيتهم الحرّة. وسيقيِّم التاريخ الدور المهمّ الذي لعبته شيجانوبو على هذا الصعيد.

عامَ ٢٠١٠، اتصل بي مخرج أفلام وثائقية، بوساطة فتاة عربية اسمها لارا، تعمل

مساعدة إخراج في هذا المجال. طلب مني إجراء مقابلة مصوَّرة لفيلم وثائقي. كانت الفكرة غريبة، لكن مثيرة.

يدور الفيلم حول فكر الأمهات من خلال بناتهن ـ أي فكر الأمهات الثوريات، وموقف بناتهن من هذا الفكر، وتقييمهن له.

بعد جهد واتصالات معقدة تمكّن المخرج من مقابلة مي، إبنة مريم (فوساكو شيجانوبو) في اليابان، ومن لقاء إبنة أولريكه ماينهوف التي نشأت في كنف أبيها دون أمها، خلافاً لمي شيجانوبو التي ترعرعت في حضن أمها، ورافقتها في رحلاتها. سألتُ المخرج ومساعدته لارا عن مي طالباً إليهما اصطحابها إلى المقابلة. أذكر في هذا السياق أن لارا وِلدت في لبنان من أب فلسطيني وأم لبنانية.

رافقتْ مي الفريق السينمائي إلى المكان المحدد لإجراء المقابلة. لم أتعرف عليها في البداية، ظناً مني أنها إحدى العاملات في الفريق. كانت شابة جميلة تبتسم بحياء، وتسير بتؤدة على الطريقة اليابانية التقليدية.

أشرت نحو مي وسألتها: مي؟ ابتسمت، وهزت رأسها إيجاباً. عانقتها مستعيداً الذكريات. اليد نفسها التي امتدت لتصافحني قبل أربعين عاماً في مكتبي في بيروت: يد فوساكو شيجانوبو. انتهى اللقاء بانتهاء المقابلة المصوَّرة. كانت مي رشيقة، قصيرة القامة، طويلة الشعر، وعيناها حيويتان لامعتان. فائضة الحركة، تلتفت بانتباه كلّي إلى المتحدث، أياً يكن موضوع حديثه، فيشعر باهتمامها، وتركيزها لتفهم حديثه، ويطمئن.

أذكر تماماً اللقاء الأول بفوساكو شيجانوبو. شعرنا جميعاً أنها وفريقها مقرَّبون ودودون.

تكرّرت لقاءاتي بفوساكو في جلسات مطوّلة. تحدّثت معها حتى بتُّ أعرف طريقة تفكيرها، وبرنامجها، والأهداف التي تطمح إلى تحقيقها.



أوكوموتو و «مريم»

لا شك لديَّ في أن مريم، فوساكو، كانت ذكية إلى حدّ الدهاء، من خلال تجربتها في اليابان. عيناها قد تعبّران عن حزن عميق، أو تواضع، أو خضوع واعٍ، أو قسوة لا مكان للرحمة بين مطرقتها وسندانها. عيْنا مريم محدّقتان بطموحاتها وأحلامها وأهدافها. لذلك لم نخشَ عليها أو منها، مهما كان تعبيرهما فاضحاً لما في الباطن والعقل، والقلب أيضاً.

أجادت فوساكو استخدام الحركات والتعابير اليابانية بهدف إيقاع الآخرين في الحرج، أو جعلهم يمتنعون عن أي حركة لا تعبر عن احترامهم لها. كانت شخصية فوساكو تتطور بتنامي العلاقة مع المحيطين بها من غير اليابانيين. فمع أن اليابانيين تحكمهم علاقة «الخضوع للرئيس»، توثقت علاقة فوساكو بنا عفوياً، فأمست تتصرف بطريقة قتالية ذكورية، كأن تضحك ملء فمها. يدلّ على ذلك امتناعها عن استعمال مساحيق التجميل الصارخة

أما في حضور المعلم وديع حداد فهي بمنزلة التلميذة التي تهاب إمعان النظر فيه فيكتشف ما بداخلها، وما يدور بخلدها. كانت مطيعة طاعة الجندي للجنرال، والتلميذ للمعلم، ما أكسبَها احترام الجميع.

إتقان التخفي ميزتها، فكان بإمكان «مريم» التخفي على أنها امرأة يابانية تقليدية، أو لاعبة «بنغ بونغ». كما تزيَّت مرة بمظهر شاب ياباني يهوى الموسيقى، ويضع على أذنيه سماعتين، ويهتز طرباً.

أطرفُ ما في الأمر تنكّرها مرة في زيّ موظف يعمل في شركة «سوني» أو «توشيبا».

قد تحضر حفلاً موسيقياً أو غنائياً، مرتدية فستان سهرة، فتتألّق كوردة. تصغي بشغف إلى توكيكو كاتو التي غدت من أعزّ صديقاتها. بدعوة من مريم زارت توكيكو بيروت، فقضت أول سهرة لها في بيت غسان كنفاني بحضوري وجورج حبش، وفوساكو، وأداتشي المخرج السينمائي الكبير الذي اعتُقل في لبنان فترة طويلة، ثم تزوّج أثناء محكوميّته من فتاة لبنانية. غنت توكيكو بعذوبة، عازفة على غيتارها لباريس، وللانتفاضة الأوروبية، ولثورة الفقراء والمظلومين.

ونظرتُ إلى فوساكو لألمح على وجهها أمارات السعادة. تلك كانت فوساكو الحقيقية.

في لقائي الأخير بها، سألتها عن ابنتها، فقالت مبتسمة بدفء ورضا إنها مقاتِلة تجيد العربية واليابانية والإنكليزية والفرنسية. إنها عالميّة. وضحكتْ قائلة: أعتقد أنه حان الوقت لأعود إلى اليابان حيث الجميع بانتظاري. لكنها لم تعد إلى لبنان.

حتى العام ١٩٨٢، ظلّ بابي يطرق بأيادٍ صغيرة وأصابع ناعمة. وعندما أفتح، ألمح إنحناءة مهذّبة، وعيوناً خجلة متواضعة دفئاً واحتراماً.

الفصل السابع

عملية مطار الثورة

شرع القائد وديع حداد يركّز أبحاثه ودراساته، فاستحدث فِرَق استطلاع عديدة، وبرامج تدريب كوادر فنية على العمليات الخاصة. كانت عملية ١٩٦٨ التي خطفت فيها مجموعة من المناضلين طائرة «العال»، أول عملية من نوعها ـ أصبحت تُدرس لتفادي الأخطاء.

ثم أجريت تجربة أخرى (١٩٦٩) على طائرة «بان أميركان» بحيث أجبرت على الهبوط في مطار دمشق. إختطف تلك الطائرة شاب إسمه أبو الدمر ـ كان بطل سورية في الملاكمة لفترة من الزمن ـ والمناضلة ليلى خالد التي انضمت إلى الجبهة الشعبية، متخلّيةً عن عملها كمعلمة في الكويت .

خطّط المعلم وديع لعملية نوعيّة، عملية خطف عدة طائرات وإرغامها على الهبوط في الصحراء الأردنية قرب الزرقاء ـ تسمى المنطقة (قاع) التي أطلق عليها البريطانيون اسم مهبط دوسون أثناء الحرب العالمية الثانية. فقد استخدموا ذلك القاع كمهبط للطائرات، إذ كانت الأرض في تلك البقعة من الصحراء صلبة ومتماسكة مشكِّلة أكبر وأطول مهبط للطائرات.



غسان كنفاني وبسام أبو شريف يعلنان أمام صحافة العالم
شروط الجبهة الشعبية للإفراج عن الرهائن

إستغرقت دراسة العملية والتخطيط لها عاماً كاملاً، إذ شملت دراسة دقيقة لمواعيد، وأماكن إقلاع وهبوط الطائرات. كما تضمّنت استطلاعاً دقيقاً وتجريباً حيوياً للمطارات التي تقلع منها الطائرات المحددة للخطف، والاحتياطات الأمنية والعقبات الإلكترونية المخصّصة لمنع اختطاف الطائرات؛ إضافة إلى استعدادات طواقم الطائرات ورجال الأمن المكلّفين الصعود إلى الطائرات لمواجهة حالات الاختطاف؛ كذلك تدريب فريق كامل على الإقلاع والهبوط لعدة أنواع من الطائرات، وقراءة اللوحات في مقصورة الطيارين. كما تدرّب أعضاء الفريق على التعليمات التي يجب أن يصدروها إلى الطيارين، لبلوغ مطار غير موجود على الخريطة. أية خريطة! نُسِّقت ساعات للبدء بالعملية، كي لا تتضارب، فتستنفر قوى الأمن، وتفشل بعض العمليات.

أروي للقارئ قصة مطار الثورة بحذافيرها، لتكون شهادةَ التاريخ على تلك العملية، التي هزّ وديع حداد من خلالها العالم إعلامياً ومعنوياً وضميرياً. في تلك اللحظة أخذ العالم يتساءل عن قضية الشعب الفلسطيني، وعن الظلم الذي ألحقته به الدوائر الاستعمارية وحليفتها الصهيونية.

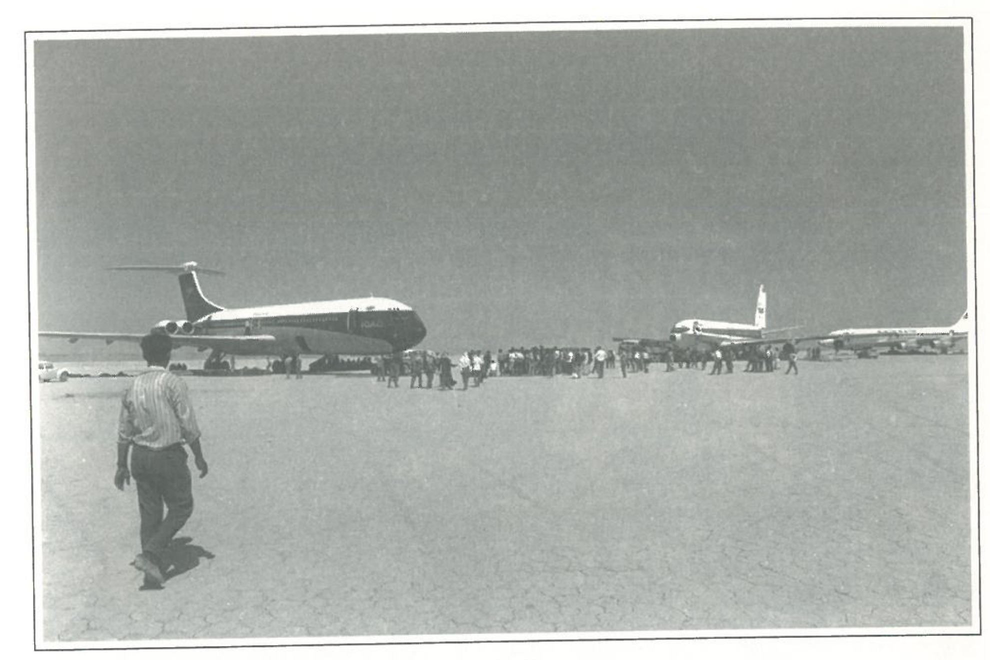
وقائع خطف الطائرات وتفجيرها في «مطار الثورة»

عشية اندلاع معارك أيلول/ سبتمبر في الأردن (منذ أربعة عقود تقريباً)، قبل ثلاثين عاماً، وخلال أسبوعين من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، عايشتُ وقائع أضخم عملية خطف طائرات في التاريخ. إنها العملية التي خطط لها الدكتور وديع حداد، ثم أعلن شروط الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لإخلاء سبيل الطائرات والإفراج عن ركابها الرهائن. نفّذتها مجموعة من مقاتلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، تمّ تدريبهم بدقة لأداء المهمة.

وللتاريخ أسجل هنا تفاصيل تلك العملية الضخمة، كما عشتها، وتابعتها، وساهمت في قيادتها.

احتفلت أسرة مجلة **الهدف** في الثامن والعشرين من شهر آب/ أغسطس ١٩٧٠ بذكرى تأسيسها الأولى، فأمضت الأسرة أمسية لطيفة خيّم عليها طوال الوقت ظُرف وأدب وذكاء غساء كنفاني رئيس تحريرها. صباح اليوم التالي توجهنا إلى مقر المجلة لنبدأ صناعة العدد الأول من عامها الثاني.

عند الساعة الواحدة بعد الظهر جاء من يبلغني رسالة شفهية من الدكتور وديع حداد، مفادها ضرورة أن أتوجه إلى عمان بأسرع وقت ممكن. لم ألقَ لدى الرسول جواباً عن أي من أسئلتي. قال: هذا ما طلب مني أن أنقله لك. واستدرك: يجب ألاّ تخبر أحداً بذلك. في اليوم التالي، توجهت جواً إلى العاصمة الأردنية من دون أن أدري أنني سوف أعيش وقائع أسبوعين هزّا العالم،



مطار الثورة

وأنهكا أعصاب معظم ساسته وقادته. فور وصولي، قصدت مكتب الجبهة الشعبية في جبل «الجوفة»، حيث تجتمع قيادة الجبهة عادة. لم أجد أحداً من أعضاء القيادة، فتركت خبراً لدى مدير المكتب أنني سأكون في بيت والدي.

لم يتصل بي أحد طوال النهار، لكن مع حلول الظلام توقفت سيارة «فولكس فاغن» أمام المنزل في جبل «اللويبدة». ترجّل منها رجلان لم أميّزهما في البداية لأن الظلام كان دامساً، لكنني عرفتهما فور دخولهما البيت، فعانقتهما مرحباً. كانا أبو بسام وأبو الدرداء، رحمهما الله. على عجل، طلبا مني أن أهيئ نفسي للبقاء في عمان فترة من الزمن «لأن هنالك مهمة ستوكل إليك».

غادرا. بعد يومين، اتصل أبو بسام وطلب مني التوجه إلى أحد المنازل في جبل اللويبدة قرب خزان المياه (الحاووز)، حيث التقيت الدكتور وديع حداد الذي عانقني، وبطبيعة الحال كان أبو بسام حاضراً.

كان أبو هاني (وديع حداد) كعادته مختصراً في الكلام دقيقاً واضحاً ومحدداً. وكعادته أيضاً، كان يجلس إلى طاولة الطعام وأمامه أوراق وقلم يدوّن كل نقطة من نقاط التعليمات التي يصدرها، بعد أن يكتب اسم الشخص المعني في بداية الصفحة. أبلغني الدكتور وديع أنه خطط لتنفيذ عملية ضخمة ستهز العالم، وأنه يتوقع أن يحتشد في عمان مئات الصحافيين لتغطية الحدث، فلهذا السبب استدعاني إلى عمان. طلب مني الاستعداد لذلك، مؤكداً أنه سيزوّدني بالمعلومات والبيان الرئيسي في الوقت المناسب. كان الأمر مشوقاً ومثيراً.

لا أخفي أن كلمات الدكتور وديع حداد خلّفت لديّ رعشة، قد يكون سببها جسامة الأمر، أو الإثارة التي ترافق عملية ضخمة من عمليات وديع حداد.

كان وديع حداد متواضعاً وحازماً؛ رقيقاً كالطبيب ـ وهو طبيب ـ وحازماً كقائد معركة في الميدان، ومتواضعاً. وعندما يقول «عملية ضخمة ستهز العالم»، فهو يعني بالضبط ما يقول. بعد مغادرة ذلك المنزل الصغير، توجهت إلى المكتب الرئيسي للجبهة في الجوفة. هناك رحت أفكر في ما قاله أبو هاني. لقد تركني حائراً، إذ لم يعطني أية معلومات عن العملية أو طبيعتها أو حتى مكانها. لكن الأمور اتضحت في اليوم التالي حين استدعيت للقاء آخر مع الدكتور وديع حداد. كان يجلس إلى الطاولة مبادراً بالقول:

ـ كيف حالك؟ «زيّ الحديد»؟ اليوم هو موعدنا مع العملية.

أصغيت وأنا أحدّق في وجهه. أمسك بالقلم قائلاً:

ـ سنغادر عمان إلى الزرقاء برفقة الإخوان عند الساعة الواحدة بعد الظهر. قرب الزرقاء اخترنا موقعاً صحراوياً أرضه صلبة، كان يستخدمه الإنكليز أثناء الحرب كمهبط للطائرات. سيكون موقع عملية مطار الثورة. تجري الآن عمليات خطف لأربع طائرات: «العال»، «السويسرية»، «تي دبليو إيه»، و«بانام». منفذو



بسام أبو شريف يتحدث إلى الصحافيين قرب إحدى الطائرات المختطفة
في مطار الثورة ٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠

العمليات سيوجهون الطائرات إلى هنا. وستهبط الطائرات في صحراء الزرقاء.

توقف وديع حداد قليلاً، ناظراً إليّ ليرى وقع الكلام على وجهي.

كنت أحدق فيه. «يا لها من عملية جريئة!» قلت معلّقاً. وسألت الدكتور وديع حداد عن قدرة تلك المنطقة على تحمل ضغط هبوط طائرات مدنية ضخمة. فقال: «لقد أرسلت مهندسين متخصصين منذ أشهر، أجروا فحوصاً على تلك المنطقة وكتبوا تقارير علمية». وتابع يشرح: «منذ قرون كانت مياه الأمطار تتجمع في ذلك السهل الصحراوي الذي تحدّه تلال وجبال من الجانبين. فتحوّل هذا السهل إلى أرض صلبة، إنها أصلب من الإسفلت الذي يستخدم لشق مدارج الطائرات. وهو أطول وأوسع مدرج في العالم».

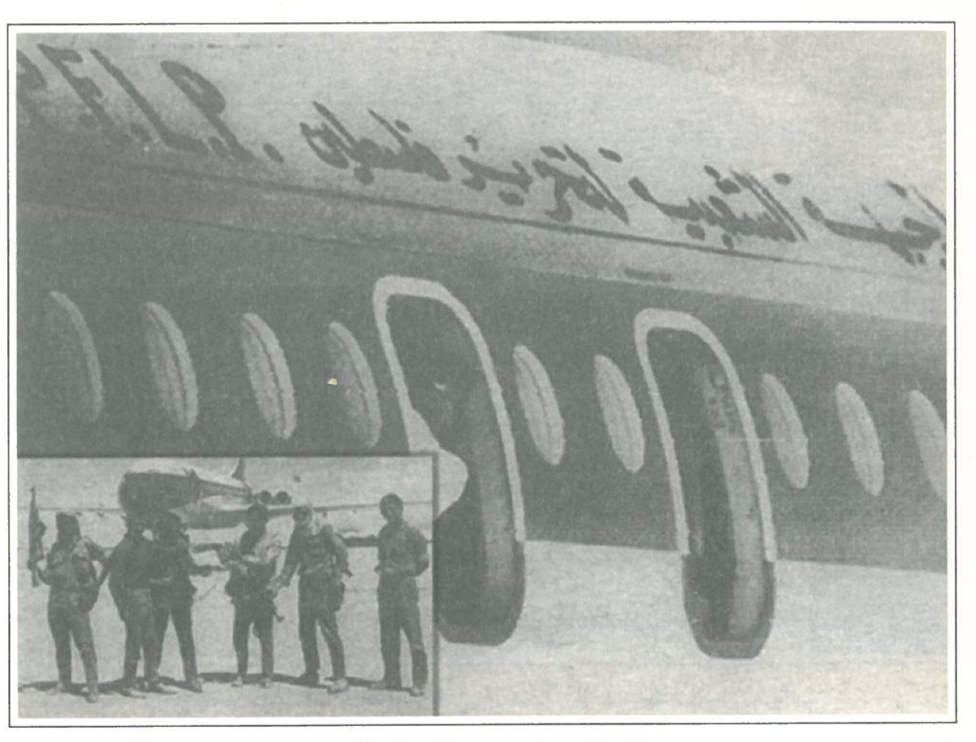
نظر وديع إليّ، وفي عينيه بريق الانتصار. وتابع الشرح قائلاً: «الهدف هو تحرير

مئات من الأسرى الفلسطينيين من سجون إسرائيل، وهزّ ضمير العالم حول عدالة القضية الفلسطينية. لذلك أريدك أن تكون مستعداً لشرح قضية الشعب الفلسطيني للرأي العام العالمي من خلال الحشد الصحفي الذي سيتوجه حتماً إلى عمان، ومن خلال الرهائن أنفسهم. أما الإعلان عن العملية والشروط فسيكون جاهزاً اليوم». ثم طلب مني التوجه مع أبو بسام قدورة والحاج فايز جابر وأبو الدرداء إلى المنطقة.

كانت الخطة التي وضعها وديع حداد تقضي بخطف أربع طائرات وإنزالها إلى المدرج الصحراوي، قرب الزرقاء، الذي كان البريطانيون يطلقون عليه اسم «داوسونزفيلد» ـ DAWSON'S FIELD؛ وباحتجاز الركاب كرهائن، وطلب استبدالهم بمئات الأسرى الفلسطينيين الذين كانوا يرزحون في سجون إسرائيل آنذاك.

توجهنا من عمان إلى الزرقاء، ومنها عبر طريق صحراوي نحو المنطقة المحددة. بعد وصولنا إلى نقطة ما ـ لم أتمكّن من تمييزها عن غيرها من الرمال الصحراوية المحيطة بنا ـ وصلت شاحنة تُقلّ عدداً من الرجال. تقدموا نحونا وخاطب أحدهم أبو بسام، مُبلّغاً أن المصابيح صودرت على الطريق من قبل حاجز أمن. حملت تلك الشاحنة مئات المصابيح التي وجب على الرجال تثبيتها على جانبي المدرج لإنارته ليلاً. تجهّم وجه أبو بسام قليلاً ثم تقدم نحونا ليبحث الأمر. اتُّفق على الإسراع في جلب صفائح فارغة وكمية من المازوت والقماش لتكون بديلاً عن المصابيح. أسرع الرجال عائدين نحو الزرقاء لتنفيذ التعليمات.

في هذه الأثناء، وصل الدكتور وديع حداد يرافقه عشرات الشباب في موكب من السيارات المدنية وسيارات «اللاندروفر» إنبرى يعطي تعليماته بحزم واقتضاب، مشيراً إلى المواقع التي يجب أن يتخذوها. ثم تقدم نحونا. أبلغه أبو بسام بما جرى لشاحنة المصابيح، فوافقه الرأي قائلاً: لكن الأمر يجب أن يتم فقد اقترب



«مطار الثورة» في مدينة المفرق الأردنية:
فدائيون من الجبهة الشعبية يحرسون طائرة اختطفها مقاتلون بقيادة وديع حداد

الموعد. ثم انتقل إلى الشرح التفصيلي للعمل المقبل، فأبلغنا أن الطائرة الأولى التي ستصل هي طائرة «تي دبليو إيه» الأميركية وأنها تُقلّ أكثر من مئتي راكب، وأن الطائرة السويسرية ستليها، ثم «بانام» الأميركية أيضاً، وبعدها طائرة «العال» الإسرائيلية.

أضاف أن الخطة تقضي ببقاء الركاب في مقاعدهم لأنه لن يتوفر لهم مكان سواها ينامون فيه تلك الليلة. ثم وزّع مسؤولية كل طائرة من الطائرات على أحد الكوادر، وسلّمهم لائحة تخصّص لكل منهم خمسة مساعدين. بعد ذلك، جمعهم وأبلغهم تعليماته التفصيلية بشأن كل صغيرة وكبيرة، إلى أن تحدث إليهم حول حُسن المعاملة واللباقة، وشرح القضية وأهدافها، والمحافظة على الهدوء والأمن.

سرعان ما كلّف علي طه[*] بالمسؤولية عن الرهائن كافة، والإشراف العام على الفرق المخصصة لكل طائرة. حدّد علي طه فوراً مقر قيادته، وكان عبارة عن طاولة وأربعة كراسيّ وأوراق وأقلام وأختام. وكلّف الحاج فايز بمسؤولية الأمن والمواجهة العسكرية. كما شرح للجميع مطوّلاً احتمالات وقوع هجوم عسكري إسرائيلي، أو أردني، وكيفية الدفاع عن النفس، مشيراً باستمرار إلى أهمية الحفاظ على حياة الرهائن وعدم إصابة أيّ منهم بأذى. ثم كُلّف أبو بسام أمام الجميع بالمسؤولية الرئيسية والتنسيق بين المسؤولين، على اعتبار أنه المرجع في كل القرارات.

بعد ساعة من الزمن تقريباً وصلت طلائع السيارات العسكرية التي تحمل المدافع المضادة للطائرات والرشاشات الثقيلة، وراحت تنتشر حسب خطة موضوعة لتكون في مواقع قادرة على حماية «مطار الثورة» من أي اعتداء محتمل. إجتمع الحاج فايز جابر بالضباط وأعطاهم تعليماته، ثم عاد لينضم إلى المجموعة القيادية. ساد صمت مَشوب برهبة الانتظار المثير.

قبل غروب الشمس بنصف ساعة حلّقت فوق «مطار الثورة» طائرة من طراز «بوينغ». ثم توارت في الأفق. «الطيار يستطلع المنطقة»، قال الدكتور وديع متابعاً: «سيعود بعد لحظات على ارتفاع منخفض ليستطلع مرة أخرى». وبالفعل شاهدنا الطائرة تقترب من المنطقة بعد لحظات. كانت طائرة «تي دبليو إيه». حلّقت الطائرة فوق رؤوسنا وعلت في الجو ثانية.

كان الطيار يستطلع على علوّ منخفض ليتأكد من مدى المدرج الصحراوي. علّق

(*) كان عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. من سكان القدس، حيث عمل دليلاً سياحياً، ثم اضطر للخروج بعد ملاحقة الإسرائيليين له. عمل في جهاز الاستطلاع في فرع العمليات الخاصة. المناضلة عبلة طه هي أخته. هم عائلة من منشأ خليلي.

الدكتور وديع: «سيعود للهبوط». كانت النيران قد أُضرِمت في الصفائح التي ملئت بالمازوت والقماش، فحددت المدرج للطيار، وبدت كأنها شموع تحف بطريق لا نهاية له.

عادت الطائرة الأميركية لتهبط تدريجياً من مسافة بعيدة، وإذا بها تلامس الصحراء عند الحيّز المضاء من المدرج. كان الهبوط عادياً. لكن الطيار استخدم كابح السرعة بتوتر مما جعل الطائرة تهتز بعنف. ثم تمهلت الطائرة وراحت تتدرج ببطء نحو نهاية المشاعل، حيث أشير للطيار بأن يحول مقدمة الطائرة شرقاً، وتلقّى التعليمات بالابتعاد عن المدرج، من دون أن يعلم أن الهدف منها إتاحة المجال للطائرات الأخرى القادمة للهبوط تجنباً لارتطامها بطائرته. أوقف الطيار طائرة «تي دبليو إيه» شرق المدرج، وفتح أبواب الطوارئ فوراً خشية أي تطور غير متوقع. تدافع الركاب من كل أبواب النجاة مهرولين في كل الاتجاهات، بعيداً عن الطائرة، خشية حصول انفجار أو حريق. لكنهم سرعان ما توقفوا، إزاء الصحراء المظلمة بعيداً عن أنوار الطائرة ونيران صفائح المازوت.

عندها صدر الأمر باستخدام مكبر الصوت اليدوي، طلباً من الركاب التجمع عند نقطة مضاءة بمصابيح قوية تعمل بقوة البطاريات. بالفعل، إقترب الجميع. كُلِّفتُ بالتحدث إليهم، فطمأنتهم وشرحت الوضع لهم. ثم طلبت منهم العودة إلى الطائرة. كان المقاتلون قد نصبوا سلالم للصعود والهبوط من باب الطائرة الرئيسي. صعد الركاب مرة أخرى إلى الطائرة بتلكؤ، مخافة نسف الطائرة.

بعد بضع دقائق جرى اتصال لاسلكي مع الدكتور وديع حداد أُبلغ فيه أن عملية اختطاف طائرة «العال» فشلت، وأن أمن الطائرة أطلق النار على باتريك أرغويللو فقتل على الفور، وأنهم ألقوا القبض على ليلى خالد وسلّموها إلى الشرطة البريطانية بعد هبوط الطائرة هبوطاً اضطرارياً في مطار هيثرو (لندن).

من «مطار الثورة» في اليوم الأول لخطف الطائرات... وديع حداد (الملثم) وإلى جانبه فايز قدورة عضو القيادة المركزية للجبهة الشعبية



ملصق أصدرته الجبهة الشعبية عن الشهيد باتريك الذي قتل على طائرة العال، أيلول ١٩٧٠

ثم تتالت الأحداث بسرعة: هبطت الطائرة السويسرية في «مطار الثورة» بسلام، وجثمت إلى جانب طائرة «تي دبليو إيه». حوّل خاطفو «بانام» مسارها إلى مطار القاهرة حيث هبطت، ثم أخليت من الركاب ونسفت بعبوات متفجرة.

أما في «مطار الثورة» فقد أعيد ٣٠٠ راكب إلى مقاعدهم ليناموا، تحت حراسة المقاتلين المحيطين بالطائرتين تحسباً لأي محاولة هجوم. قامت الفرق المكلفة بالشرح والتفسير بالتجول بين الركاب للإجابة عن أسئلتهم وتوزيع المنشورات التي تشرح الخطوط العريضة لمأساة الشعب الفلسطيني. أما عناصر المجموعات التي نفذت العمليتين فقد أخرجوا من الموقع فوراً في سيارات نقلتهم إلى جهة مجهولة.

مع ساعات الفجر الأولى بدا «مطار الثورة» خليةَ نحل: سيارات عسكرية تجوب المكان، وأخرى تحمل مدافع مضادة للطائرات تتجول حول المكان، وفرق عمل تتخذ لنفسها مواقع قريبة من الطائرتين. وبدأ الجميع بتنفيذ التعليمات. جُمعت جوازات السفر، وراح فريق متخصص يرأسه علي طه يفحص الوثائق، وفتشت مراحيض الطائرة فضبطت فيها جوازات سفر إسرائيلية ألقى بها أصحابها داخل المراحيض. كان معظم أصحابها أميركيين ممن يحملون الجنسية الإسرائيلية إلى

جانب الأميركية. قام فريق آخر بإنزال البريد الموضَّب في أكياس كبيرة، فانهمك في تفتيشه والتدقيق فيه. كما طُلب من الطيارين فتح الصناديق الخاصة.

كُلِّفتُ وغسان كنفاني بالتوجه إلى عمان لعقد مؤتمر صحافي في مقر الجبهة الرئيسي في جبل الجوفة. أُطلق على المقرّ اسم «المالية» لأن أبو ماهر اليماني، عضو القيادة، كان يتخذ من غرفة في هذا المقر مكتباً له، بصفته مسؤولاً عن المالية المركزية في الجبهة الشعبية. زوّدني الدكتور وديع حداد ببيان حدّد أهداف العملية، وعدّد مطالب الجبهة مقابل الإفراج عن الرهائن والطائرات. كان الحشد الصحافي هائلاً. انهالت الأسئلة بعد تلاوة البيان، بيد أن الأهم بالنسبة إلى الحشد الصحافي كان زيارة الموقع، والتحدث إلى الركاب. سألتُهم التريث إلى أن تسمح القيادة بزيارة الموقع. أرسلتُ برقية لاسلكية إلى وديع أعرض عليه طلب الصحافيين، فردّ بوجوب التريث. وبدوري طلبت من الصحافيين العودة بعد ظهر ذلك اليوم لإبلاغهم بموعد توجههم إلى «مطار الثورة» لمقابلة الركاب والطائرات. ثم توجهت إلى الزرقاء ومنها إلى الموقع، حيث اجتمعت إلى الدكتور وديع حداد والحاج فايز جابر وأبو بسام قدورة وأبو الدرداء وعلي طه، وأبلغتهم بما جرى في عمان وبإلحاح الصحافيين على زيارة الموقع. وأبديت وجهة نظري المؤيدة تلبية طلبهم، شارحاً أن الرأي العالمي يتابع الموضوع باهتمام وقلق وإثارة، وأن رؤية المراسلين للرهائن وإرسال تقاريرهم حول سلامتهم وحسن معاملتهم سيعطي ردّ فعل إيجابياً.

قرّ الرأي على استقبال ممثلي وسائل الإعلام العالمية في «مطار الثورة» بعد الظهر. لكن مفاجآت خطيرة حدثت قبل وصولهم. شاع نبأ مقتل باتريك أرغويللو على يد ضباط الأمن الإسرائيليين، واعتقال ليلى خالد وتسليمها إلى الشرطة البريطانية. أصدر وديع حداد تعليماته بتوجيه تحذير إلى السلطات البريطانية حمّلها فيه المسؤولية عن ليلى خالد.

جاء ردّ الفعل البريطاني سريعاً، إذ تتالت الاتصالات من شخصيات بريطانية معروفة بنزاهتها، كلّفتها الحكومة البريطانية بطمأنة الجبهة الشعبية حول سلامة ليلى خالد، والتأكيد على أنها لن تُسلم إلى إسرائيل. بعد عودتي إلى مقر الجبهة تلقيت عدة مكالمات من شخصيات بريطانية كانت إحداها من أسقف كنتربري، ومايكل أدامز رئيس مجلس التفاهم العربي البريطاني (كابو).

مفاجأة «ورق عنب وكوسا»

في هذه الأثناء، كان شباب الجبهة الشعبية في كل مكان على استنفار تام. بيد أن أحدهم ـ كان عاملاً في ورشة للخراطة الحديدية ـ استنفر على طريقته الخاصة من دون تعليمات مركزية. فعند انتهاء دوام العمل، خَرَط مسدّساً حديدياً على شكل مسدس البكرة، ثم اشترى بطاقة سفر على طائرة تابعة للشركة البريطانية «BOAC». بعدما أقلعت الطائرة، قام باختطافها، مستخدماً مسدسه (اللعبة)، وآمراً الطيار بالتحوّل نحو الأردن. كانت الطائرة قد أقلعت من البحرين. عندما اخترقت أجواء الأردن، جرى الاتصال ببرج مراقبة عمان الذي ربط الاتصال بين مقر القيادة والطائرة. كانت مفاجأة للجميع، بمن فيهم الدكتور وديع حداد الذي اعتقد في بادئ الأمر أنها خدعة، وأن الطائرة تحمل قوات مدربة ومجهّزة لاقتحام الطائرتين المخطوفتين وتحرير الرهائن.

في اتصال مباشر طلب الدكتور وديع حداد من الخاطف، الذي أصرّ طوال الوقت على تسمية نفسه بـ«صديق»، أن يعطي علامة ما تؤكد أنه صديق فعلاً، وأنه يعرف الدكتور وديع حداد كما ادّعى. فأجاب: «ورق عنب وكوسا». ضحك أبو هاني قائلاً: «إنه صديق، اسمحوا له بالهبوط».

هبطت طائرة «BOAC» في «مطار الثورة» فبلغ عدد الرهائن بذلك ٤٦٥ رهينة، وعدد الطائرات ثلاثاً. أما قصة «ورق العنب والكوسا» فإنها قصة ظريفة. فالطبق

المفضل لوديع حداد هو «ورق العنب المحشوّ والكوسا المحشوّ». وكان المقربون منه يعرفون ذلك، فإذا ما أرادوا الاحتفاء به أو الاحتفال معه بمناسبة ما، كانوا يحضرون وجبة ورق عنب وكوسا. عندما ذكر «الصديق» هذا الأمر، تأكد وديع حداد أنه مقرَّب يخشى ذكر اسمه خشية انكشافه.

لا شك في أن عملية «الصديق» بدّلت كثيراً في موازين القوى. فقد استنفرت الدوائر الأمنية في الغرب وإسرائيل ظناً منها أن حبل اختطاف الطائرات سيمتد. كما اعتبرت بريطانيا أن وديع حداد لا يترك مجالاً للاحتمالات، فهو قام بترتيب خطف طائرة «BOAC» ليحشر البريطانيين تحت ضغط أشدّ، فيفرجوا عن ليلى خالد. وافقت السلطات البريطانية فوراً على السماح بزيارة ليلى وبتعيين محامٍ لها. أتذكر الآن أن طالبة من قطر كانت تدرس في بيروت صودف أنها في زيارة إلى لندن. هي ليلى فانوس ـ تشغل الآن منصب الملحق الصحافي في سفارة قطر في لندن ـ التي قامت بزيارة ليلى خالد في السجن، فنُشرت صورتها في معظم صحف العالم في اليوم التالي باعتبارها زائرة ليلى خالد.

كان عليَّ العودة إلى مقر القيادة للتعامل مع الحدث الجديد. تدفّق إلى عمّان مئات المراسلين الأجانب العاملين في شبكات التلفزيون والإذاعات والصحف والمجلات العالمية. حال وصولي إلى مقر القيادة لفتني حشدهم كمظاهرة أمام المقر، في الردهات، وفي القاعة الرئيسة. اعتذرت لعدم إمكانية زيارتهم الموقع ذلك اليوم، ووعدتهم بأن يتم ذلك صبيحة اليوم التالي. حاول بعضهم التوجه إلى «مطار الثورة» من دون تصريح، إلاّ أن المقاتلين ردّوهم على أعقابهم في محيط المطار البعيد. قُبيل الغروب بقليل تجمع حشد الصحافيين مرة أخرى، في الردهات وعند المدخل الرئيس، وامتلأت القاعة الرئيسة بالكاميرات. فجأة اهتز المبنى. إرتمى المراسلون على الأرض. حاول آخرون الفرار. كانت طائرات حربية إسرائيلية قد اخترقت جدار الصوت فوق مقر الجبهة. تناثر الزجاج في كل مكان، دون أن يصاب أحد بأذى. عندما أراد المرتمون أرضاً النهوض، انهال

سرب آخر يخترق جدار الصوت فارتموا مرة أخرى. كانت رسائل تهديد. حاول الإسرائيليون استعراض قوتهم أمام الجبهة التي لا تملك السلاح والعتاد لمواجهتهم. لكن الجبهة كانت أقوى منهم بإمساكها الحلقة التي تتحكّم بالسلسلة.

اشتدّت الضغوط من كل الجهات، بدأت الأمور تتداعى وتتفاعل. شرع رؤساء الدول يتصلون بكل رئيس أو زعيم أو وزير يعتقدون أن له تأثيراً على قيادة الجبهة الشعبية، فيمارس ضغطه عليها للإفراج عن الرهائن. إتصل عدد من قادة الدول الأوروبية بالرئيس جمال عبد الناصر طالبين تدخله في الأمر. كما اتصلت دول كثيرة بياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، للتدخل لدى الجبهة. كذلك، كلّفت عدة حكومات أوروبية شخصيات من بلدانها للاتصال مباشرة بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين... وإسرائيل تواصل تهديداتها.

دعا أبو عمار القيادة المركزية للمقاومة إلى الاجتماع لبحث الأمر، لكنه لم يؤدِّ إلى النتائج المرجوة. تمسكت الجبهة الشعبية بمطالبها للإفراج أولاً عن كافة الأسرى الفلسطينيين من سجون إسرائيل وأوروبا. باتت الأجواء مشحونة ومنذرة باحتمالات الصدام العسكري.

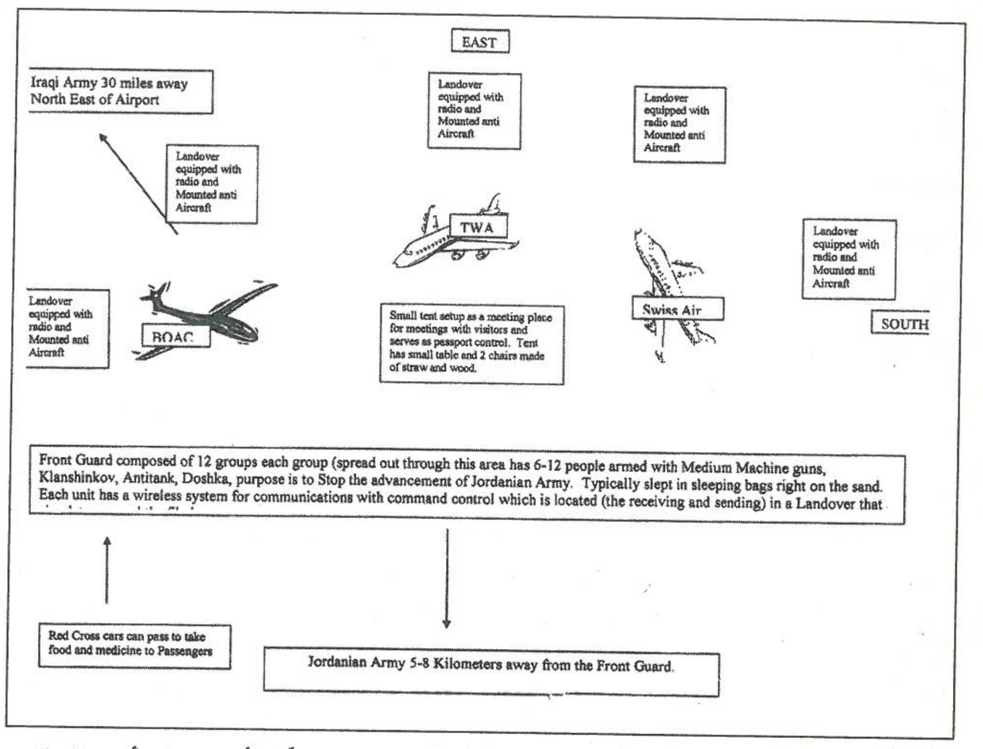
في تلك الأثناء، كنت وفريق العمل الخاص نتابع كل ما يُنشر ويبث، ونبلغه فوراً للدكتور وديع حداد، وقيادة الميدان. كان جزء أساسي من تقاريرنا يسلّط الضوء على ردود الفعل السلبية على احتجاز نساء وأطفال كانوا على متن الطائرات المخطوفة. فتقرر الإفراج عن مئات النساء والأطفال والرجال الذين لا يؤثر الاحتفاظ بهم على مفاوضات الإفراج عن الأسرى الفلسطينيين.

جاء ردّ الفعل على هذا الإجراء إيجابياً. اصطف مَنْ تقرر الإفراج عنهم أمام «مكتب» علي طه على أرض «مطار الثورة» الصحراوي، كي تختم جوازات سفرهم بذلك الختم الشهير، الذي أصبح الآن رمزاً نادراً وثميناً.

نقلت حافلات الصليب الأحمر مئات الركاب إلى فندق الأردن في جبل عمان، حيث خصَّص غرفة طوارئ لترتيب سفر المفرج عنهم إلى بلدانهم. مِن بين هؤلاء شاب بحريني كان على متن «BOAC» تقرر الإفراج عنه. فأبلغ الفريق المسؤول أن الفتاة الأجنبية الجالسة بجانبه هي خطيبته، فأفرج عنها أيضاً، رغم اعتقاد الفريق أنه لم يكن خطيبها! ثم أعطى الدكتور وديع حداد موافقته على زيارة الصحافيين منطقة المطار، ورُتب الأمر بحيث يغطي الصحافيون لحظة الإفراج عن مئات الركاب.

فوجئتُ بعددهم الذي فاق الألف. كنا على يقين أن عدداً لا بأس به منهم ينتمون إلى أجهزة استخبارات، إنما يتموهون برداء صحافي. إنطلق من أمام مقر القيادة موكب من مئات السيارات، وعندما بلغت طلائع القافلة الأطراف البعيدة لـ «مطار الثورة» وأمكنَ رؤية الطائرات بالعين المجردة، أُوقفت القافلة. تقدم أحد العسكريين، ليجدني في سيارة «لاند روفر» في مقدمة القافلة، فسألني مندهشاً: كل هؤلاء؟ أجبته: نعم. أفسح لنا الطريق، ثم أُوقفت القافلة على مسافة من الطائرات المخطوفة وطوقتْها قوات عسكرية خشية المفاجآت. إذّاك سمح للرهائن بالتقدم نحو وسط الدائرة التي شكّلها الجسم الصحافي. قدمتُ شرحاً سياسياً قصيراً؛ بعدها أتحتُ المجال للصحافيين لتوجيه الأسئلة إلى الرهائن بحرية. وما هي إلاّ دقائق حتى توجه اهتمام الصحافيين إلى عملية الإفراج، فانهالت الكاميرات تصويراً.

بعد الإفراج عن مئات الركاب، أبقى الدكتور وديع حداد رهن الإحتجاز قرابة السبعين ممن لهم أهمية تفاوضية. كان معظمهم ممّن يحملون جنسيتين: إسرائيلية وأخرى، أو من متبوّئي المناصب الدبلوماسية والحكومية الحساسة. وسرعان ما شعر الجميع أن العد العكسي بدأ، فقد توالت الضغوط الدولية على إسرائيل وعلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية. وعلى



خريطة «مطار الثورة» التي أعدتها الاستخبارات الاسرائيلية والغربية لتحدِّد الأهداف على أرض المطار

الرغم من أن إسرائيل لم تكفّ عن توجيه رسائل التهديد من خلال مواطنين فلسطينيين لهم مكانتهم الاجتماعية، فهي وافقت على بحث الموضوع مع الصليب الأحمر. كما لم يتوانَ الأوروبيون عن إرسال مبعوثيهم إلى عمان، في محاولة لإقناع الجبهة الشعبية بالإفراج عمن تبقى، مقابل وعود بالإفراج عن فلسطينيين في السجون الأوروبية، وبالضغط على إسرائيل للإفراج عن مئات المعتقلين الفلسطينيين. لكن تلك العروض رُفضت.

إنها ساعة الحسم تقترب. أدرك وديع حداد أن الأمر بلغ مرحلة الخطر والجدّية، وأنه آن الأوان لسحب الرهائن من «مطار الثورة» وتوزيعهم في أماكن متفرقة، ليصعب على من تسوِّل له نفسه القيام بأي هجوم الإقدام عليه. فأصدر تعليماته بتهيئة السيارات. سلّم كل مقاتل رهينة وطلب منهم تصويب بنادقهم إلى الرهائن

أثناء عبور المواكب خطوط الحصار العسكري المفروض. كما أصدر تعليماته لمجموعة من المقاتلين بالبقاء في الطائرات الثلاث لمنع أيٍّ كان من الاقتراب، أو محاولة السيطرة على الطائرات.

مضى الركب متمهلاً من حيث جثمت الطائرات في وسط الصحراء، نحو التخوم المؤدية إلى الطريق العام بين الزرقاء وعمان. كانت قوات حاشدة من الجيش الأردني قد طوّقت المكان معزَّزة بدبابات ومصفحات، إذ كان احتمال التدخل الإسرائيلي وارداً في أية لحظة، فأُعدت العدة لمواجهة أي تدخل.

اقتربت القافلة من الطريق الصحراوي الفرعي المؤدي إلى طريق عام سدّته دبابتان، جلس على مقدمة إحداها ضابط برتبة عقيد. دار نقاش بين أبو بسام قدورة والعقيد الذي أبلغ الأول أن التعليمات تقضي بتسلّم الرهائن وعدم السماح بنقلهم إلى مكان آخر. فأشار أبو بسام بيده إلى الرهائن الجالسين في طابور السيارات، كيما يرى الضابط أن بندقية مصوبة إلى رأس كل رهينة من الرهائن، حاسماً الأمر: «إن أي حركة من هذا النوع ستؤدي إلى قتلهم جميعاً، فدعونا نمّر بسلام». أجابه الضابط بحزم أيضاً: «لا أستطيع. لديّ أوامر». بعد النقاش، أصدر أبو بسام أمراً بالاستعداد، فقال: «إتصل بالجهات العليا، سنتحرك حتى لو أطلقتم النار وستتحمل بنفسك المسؤولية». تحرك الضابط بسرعة نحو سيارة «لاند روفر» مزوّدة بأجهزة اتصال لاسلكية، وتحدث لمدة عشرين دقيقة، عاد بعدها ليبلغ أبو بسام أن الجهات العليا سمحت بالمرور، لكن على قواته مواكبة القافلة طوال الطريق وحيثما سارت.

ابتعدت الدبابتان عن الطريق، وما إن تحرك موكب السيارات الطويل حتى حفّت به من كل جانب سيارات عسكرية تقلّ جنوداً مدججين بالسلاح. عندما اقترب الموكب من الجامع الحسيني الكبير وسط عمان، حيث تتفرع الطرق جنوباً نحو

مخيم الوحدات، أو شمالاً، انقسم الموكب إلى موكبين: إتّجه أحدهما جنوباً، والآخر شمالاً، وانطلقا بسرعة فائقة جعلت المواطنين يهرولون بعيداً عن طريق الموكبين. حارَت السيارات العسكرية المواكِبة. فقد خشي بعضها من مواصلة السير جنوباً حيث مخيم الوحدات كان معقلاً للمقاتلين الفلسطينيين، من دون أن يتمكن البعض الآخر من الاستدارة وسط الازدحام لمتابعة الموكب الذي أسرع شمالاً. إنتهى الأمر بوصول الرهائن سالمين إلى المخيمات الفلسطينية.

أما عن قرار التفجير، فكان وديع حداد، يرافقه أبو الدرداء وعلي طه، قد غادروا الموقع الليلة السابقة على نقل الرهائن. أما الحاج فايز جابر وأبو بسام فقد توجّها مع قافلتَي الرهائن كلٌّ باتجاه. عند الثالثة من فجر اليوم التالي، وبسبب رفض إسرائيل الإفراج عن المعتقلين، اتخذت قيادة الجبهة قراراً بتفجير الطائرات إنذاراً إلى الجهات المعنية للإفراج عن المعتقلين.

فوجئتُ بالقيادة تطلب مني عدم إبلاغ الصحافيين والمصورين بالأمر. لكنني ناقشتهم وأقنعتهم بأنه لا بد من تصوير هذا الحدث، وإلاّ كيف ستصل الرسالة إلى الجهات المعنية. فما كان منهم إلاّ الموافقة على اصطحاب مصور صحافي من **النهار** اللبنانية، ومصور تلفزيوني أجنبي مقيم في عمان.

مساء الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر اتصلتُ بالمصورَين، طالباً منهما الحضور مع أجهزتهما إلى مكتبي عند منتصف الليل، دون الإفصاح لهما عن الهدف من ذلك. حضرا في الموعد المحدّد. ابتسمت قائلاً: «لدينا مهمة هذه الليلة». ورغم محاولاتهما رفضت الإفصاح عن شيء، مكتفياً بالقول إننا سنكون معاً. عند الفجر كنا على مشارف «مطار الثورة». توقفت السيارة، فنظرا إليَّ متسائلين. قلت: ستشهدان حدثاً، لم تشهداه من قبل. سوف يتم تفجير الطائرات بعد قليل. نظرا بذهول؛ ولا إرادياً أخرج كل منهما «العدة»: كاميرات وعدسات وأسلاكاً.

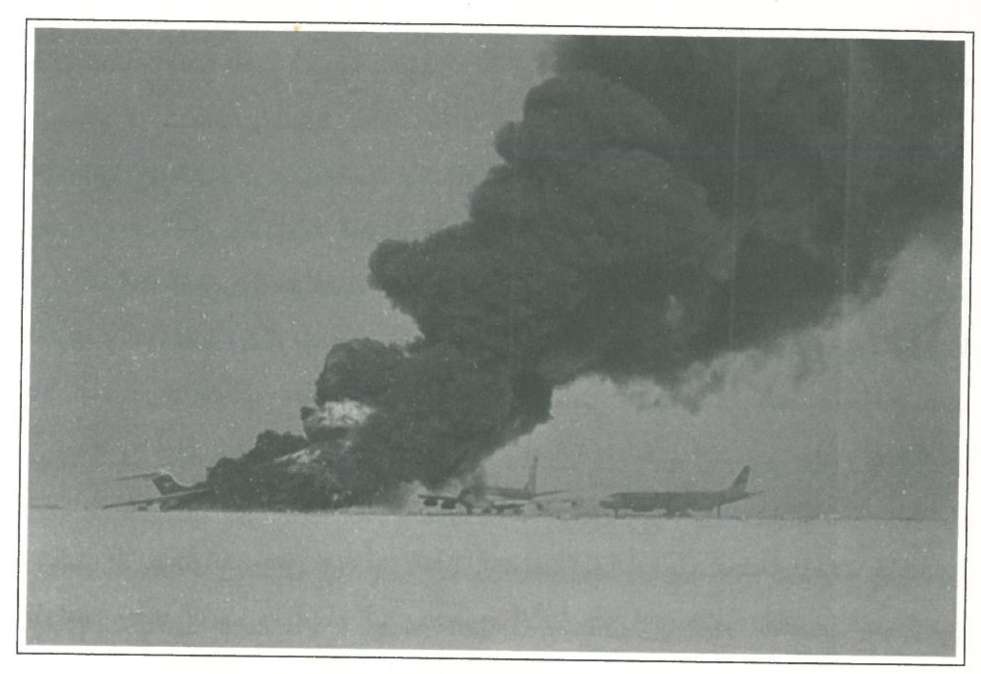
طلبا التقدّم أكثر نحو الموقع، فقلت إن في هذا خطراً، فالإنفجار سوف يقذف بالحطام إلى مسافات بعيدة.

ومع خيوط الفجر الأولى، فجر الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، إقتربت سيارات المقاتلين من مواقعنا. ضغط الضابط على جهاز التحكم عن بعد، فدوّت السماء والتهبت، وتناثرت قطع الطائرات الثلاث وحطامها لمسافات بعيدة. وفيما كان المصوران منكبّين على التقاط الصور، أصابني الذهول في الحقيقة، فجمدت في مكاني أراقب الانفجارات المتتالية: أصوات، فنيران، ثم حطام يتطاير، وشظايا تتناثر في كل مكان. لهيب يغزو السماء ثم ينحرف قطعاً بكل الاتجاهات. وتتالت الانفجارات حتى همدت الطائرات بهياكلها أرضاً، بعدما فقدت كل منها أطرافها ومحركاتها وذيلها. لم يستغرق الأمر طويلاً. عشر دقائق كانت كافية لتخلّف أجسام الطائرات هامدة تلتهمها النيران على مهل.

عدنا أدراجنا إلى عمان، من دون أن يتفوه أحدنا بكلمة. كان الجميع مذهولاً. وصلنا إلى مكتبي، فصافحني المصوران قبل أن ينطلقا كالبرق نحو سيارتيهما لتوزيع ما بحوزتهما من سبق صحافي لا مثيل له في العالم. إرتميت على سريري في المكتب لأنال قسطاً من النوم بعد ليلة طويلة، وعندما استيقظت كانت ردهات المكتب ومداخله تعجّ بالصحافيين والمراسلين والمصورين. لقد هزّ الخبر العالم. بدأت الحسابات تختلف. وانهالت الأسئلة: ماذا بعد؟

لقد دمّرت الجبهة الشعبية الطائرات، تصميماً على تلبية مطالبها! أخفت الرهائن في أماكن متعددة من المخيمات، دون أن يعلم أحد أين. توترت الأجواء بشكل دراماتيكي. من كل حدب وصوب وُلِد الإحساس الحقيقي بما قاله وديع حداد: إنها بداية العدّ العكسي.

أدركنا أن الجهات الدولية المعنية كافة، أخذت تنظر إلى الأمور بعين الجدِّ.



تفجير الطائرات

فتضاعفت الضغوط من كل الجهات. لكن الدول الأوروبية المعنية ركّزت اتصالاتها بالرئيس جمال عبد الناصر، الذي أوفد مجموعة خاصة من كبار ضباط الاستخبارات للانضمام إلى الضباط المتمركزين في عمان كحلقة وصل مع فصائل الثورة الفلسطينية. ووجهت إسرائيل إنذارات إلى الأردن من خلال الولايات المتحدة، مهدّدةً بشنّ حملة عسكرية مباشرة ما لم يُمنع الفدائيون الفلسطينيون من استخدام أرض الأردن منطلقاً لعملياتهم. أما مصر، فكثّفت اتصالاتها بقيادتي منظمة التحرير الفلسطينية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وأُبلغت قيادة الجبهة أن عبد الناصر تلقى تأكيدات من قادة أوروبيين على الإفراج عن الفلسطينيين المعتقلين حال الإفراج عن الرهائن، وعلى متابعة الأمر مع إسرائيل من خلال الصليب الأحمر الدولي. لكن الأمور تسارعت باتجاه آخر، إذ لم تعد الأطراف تمتلك خيارات كثيرة، فأُعلن في عمان تشكيل حكومة عسكرية، برئاسة اللواء محمد داود، فرضت الأحكام العرفية، فراح الجميع ينتظرون المعركة.

مساء الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر خيّم على عمان صمت كصمت القبور. خلت الشوارع تماماً من البشر والسيارات. بدت مدينة مهجورة تتطاير في شوارعها الأوراق بفعل الريح، وتحوم قطط تبحث عن زادها. قمتُ بجولة وسط العاصمة، حيث كان الوضع أينما اتجهتُ كحال جبل الجوفة نفسه ـ مقر قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. عدت أدراجي بعد حين. لم يكن ثمة أحد في المكتب سواي. فالكل استنفر، والكل توجه إلى موقعه. ببزوغ فجر السادس عشر، اندلعت معارك أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠.

ماذا حلَّ بالرهائن

لم تهدأ الاتصالات على الرغم من اشتداد القصف وإطلاق النار في شوارع عمان. فقد نشط ضباط الاستخبارات المصرية، بناءً على أوامر صادرة عن الرئيس جمال عبد الناصر.

تقرر التداول سريعاً بين أعضاء القيادة لبحث طلب الرئيس جمال عبد الناصر بالإفراج عن كافة الرهائن، مقابل وعد منه بالعمل على الإفراج عن المعتقلين بحسب مطالب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لبّت القيادة طلب جمال عبد الناصر معتبرةً هذه الخطوة بداية جديدة في العلاقة مع مصر وجمال عبد الناصر. ويذكَر أن تلك العلاقة فترت إلى حدّ كبير جرّاء الالتباس الذي سببه انشقاق نايف حواتمة ليشكل الجبهة الديموقراطية. بالفعل، صدرت الأوامر بتسليم الرهائن إلى الضباط المصريين. كان الرهائن موزعين على ثلاثة أماكن متباعدة: عمّان، شمال الأردن، وجنوبه. سُلِّم الجميع باستثناء دبلوماسي سويسري كنت قد اصطحبته إلى مستشفى الأشرفية لتسليمه إلى الصليب الأحمر. لكن اقتحام قوات البادية المستشفى مكّنه من تسليم نفسه إليهم.

الحصيلة أن كل الرهائن سُلِّموا وهم بصحة جيدة. لم يصب أيٌّ منهم بأذى أو

جرح أو حتى مرض. فقد كانوا يتناولون وجبات ساخنة، في حين لم يتوافر الطعام حتى للمواطنين.

في الحقيقة، بعد مرور فترة غير طويلة من الزمن، أُفرِج عن كافة المعتقلين في السجون الأوروبية، وعدد من المعتقلين في الأرض المحتلة.

الفصل الثامن

عمليات في كل مكان بعد أيلول ١٩٧٠

كان العام ١٩٧١ عاماً ملتهباً، رغم الخروج بعد خط المواجهة عند نهر الأردن. لم يعرف «المعلم» وديع حداد الهدوء في أحداث الأردن، ما بعد معارك أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠. فبعد عودة الدكتور جورج حبش إلى الأردن، قطع زيارته إلى الصين وكوريا، وتسلم زمام الأمور. إنكبّ وديع حداد على التخطيط لعمليات نوعية وخاصة، وتدريب الطواقم لأداء العمل، والإشراف على التنفيذ. في تلك الفترة تخطّت عملياته أماكن جغرافية متباعدة ما دل على قدرات عالية ودقة في التخطيط والتنفيذ. كان هدفه الدائم إيذاء العدو في مفاصله الضعيفة، وتثبيت منهج الثورة العملي في التصدي للإمبريالية والصهيونية الدموية التوسعية.

ورداً على وديع حداد والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أصدرت غولدا مئير تعليماتها لـ «العمليات الخاصة» بإنشاء «جويش ديفنس ليغ» **رابطة الدفاع اليهودية** JEWISH DEFENCE LEAGUE، التي تأسست في نيويورك عام ١٩٦٨. يتضح من سماح الحكومة الأميركية بإنشاء وتسجيل عصبة إرهابية في نيويورك، أن مصدر الإرهاب هو الإمبريالية والصهيونية التوسعية، وأن جرائم الحرب التي تُرتكب ضد الشعوب، كحرب فيتنام وغزو عام ١٩٦٧، وقتل الأبرياء واغتيال

الزعماء لا تعتبرها مصادر الإرهاب إرهاباً، بينما دفاع الشعوب عن نفسها وعن ممتلكاتها وثرواتها وأرضها وأطفالها هو «إرهاب».

عقدت أجهزة الأمن الأميركية اتفاقاً مع **رابطة الدفاع اليهودية** للقيام بعمليات إرهابية ضد الاتحاد السوفياتي، الذي اتهمته الولايات المتحدة وإسرائيل بتزويد الفلسطينيين والأيرلنديين والفيتناميين بالسلاح. تركّزت أعمال الرابطة الإرهابية على الأهداف السوفياتية والفلسطينية، وعلى كل من يعترض الإرهاب الإسرائيلي. استخدمت الرابطة الإرهابية اليهودية العمليات الإرهابية ضد الاتحاد السوفياتي لابتزازه كي يسمح لمئات الآلاف من اليهود السوفيات بالهجرة إلى إسرائيل. وما أن فتحت موسكو باب الهجرة، تبيّن أن أكثر من ٦٠٪ من المهاجرين إلى إسرائيل هم من الأورثوذكس الآملين في الهجرة لاحقاً إلى الولايات المتحدة.

تأسست شركات ذات طابع مافيوي (مافيا) لتشغيل السوفياتيات (الروسيات) في سوق الدعارة المحلية في إسرائيل، بعد أن حجزت الشركات جوازات سفرهن. كانت الشركة تشغّل الفتيات الروسيات (وما زالت) في سوق الدعارة مدّة أربع سنوات، مقابل إعادة جوازات سفرهن، وتأمين تأشيرة إلى الولايات المتحدة ـ ما لم يحدث في معظم الحالات. مع الإشارة إلى أن تل أبيب تحتل الموقع الأول في سوق الدعارة في العالم حسب مجلة **تايم**.

تأسّست الرابطة اليهودية الإرهابية في نيويورك على يد الراباي مئير كاهانا، الذي غادر نيويورك عام ١٩٧١ متوجهاً إلى إسرائيل، ومؤسساً حزب كاخ.

وتفادياً للإعتقال أعلن انشقاقه عن رابطة الدفاع اليهودية التي أسسها بعد اغتيال أليكس عودة، مدير ورئيس اللجنة العربية الأميركية لمناهضة التمييز (من قادتها: أربعنع روبي الذي انتحر في السجن، وإيرل كروجر الذي قتل في السجن بعد أن حكم عشرين عاماً).



ليلى خالد بطلة عدد من العمليات التي خطط لها وديع حداد، اعتقلت في لندن عام ١٩٧٠ بعد فشل اختطاف طائرة العال، حينما قتل المناضل باتريك أرغويللو

كان برنامج كاهانا (حزب كاخ) يدعو إلى ضم كافة الأراضي المحتلّة (سيناء، والجولان، والضفة، وغزة)، وطرد كل العرب، فتصبح هذه المناطق يهودية خالصة. قُتل كاهانا في نيويورك بعد عامين من منع الكنيست حزب كاخ من المشاركة في الانتخابات.

وجد وديع حداد وجهاز العمليات الخاصة والجبهة الشعبية، والفلسطينيون عموماً، أنفسهم في حالة مواجهة استثنائية مع إسرائيل وأجهزتها وحلفاء إسرائيل الإرهابية.

تفاقم الوضع جرّاء أحداث الأردن، فقد خسرت المقاومة موقعاً من أهم مواقعها، لأنه على تماس مع الأرض المحتلة، حيث التنظيم السرّي المقاتل في الداخل. كانت قوات الثورة الفلسطينية التي انتقلت إلى جبال عجلون، بعد قمة القاهرة،

تعاني التضييق الخانق، ما جعلها عاجزة عن أداء أي عمل ضد العدو الإسرائيلي عبر الحدود مع الأردن ـ أي عبر نهر الأردن.

رسم وديع حدّاد خريطة عمل تُشعل جذوة النضال، وتعكس نفسها، وتحث الهمم لمواصلة مقاومة العدو الاسرائيلي، وفي الوقت نفسه تكشف العصب الذي يربط مصالح الإمبرياليين بالصهيونية التوسعية وبحلفاء الامبريالية في المنطقة. ففي عام ١٩٧١ وجّه عدة ضربات إلى شريان النفط الذي تنهب الإمبريالية ثروات المنطقة من خلاله. كما ركّز على توجيه مجموعات من الخارج تضرب داخل الأرض المحتلة، وتنقل السلاح والذخيرة عبر طرق بديلة لنهر الأردن والبحر الميت والعقبة، مثل صحراء النقب.

في العامين ١٩٧١ و١٩٧٢ مرت منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها المقاومة للاحتلال بظروف صعبة ومعقدة. فقد استنفرت إسرائيل كافة إمكاناتها وعلاقاتها، واستغلّت نفوذ وقدرة الولايات المتحدة وبلدان أوروبا للضغط على دول العالم (ومنها العربية) بغية شلّ منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها المقاتلة، وتصفيتها تدريجياً.

رأت غولدا مئير (رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك) وموشيه دايان (وزير الدفاع) في نمو منظمة التحرير، واتساع نفوذها، وقدرتها على استنهاض وتوحيد وتعبئة الفلسطينيين، خطراً استراتيجياً لا يهدد أمنها فقط، بل يقضُّ «شرعية» وجودها!

خرجت قوات المقاومة من المدن الأردنية عام ١٩٧٠، وظلّ التوتر حادّاً. تسبّبت بعض الاشتباكات المتفرقة بإشعال معركة فاصلة أراد بها الأردن إزالة كافة أسباب عدم الاستقرار الداخلي. وفي تموز/ يوليو وآب/ أغسطس من عام ١٩٧٦ غادرت قوات منظمة التحرير الفلسطينية الأردن إلى سورية. كانت الحسابات الإسرائيلية تؤشر إلى أن هذا الخروج هو نهاية المقاومة، لأن سورية ستحوِّل جيش التحرير الفلسطيني إلى جيش «إنقاذ جديد»، سرعان ما ينتكس ويتحول إلى

«لافتة» أو شعار فارغ من أي مضمون. لكن قيادة فصائل المقاومة الفلسطينية خططت وعملت بصمت لتفادي هذا الأمر، بنقل مواقعها العسكرية إلى جنوب لبنان تدريجياً، مستخدمة طرقاً مختلفة منها سفوح جبل الشيخ. لطالما شاع عن ياسر عرفات قول تناقله الجميع: الجبل، الجبل، يا سارية الجبل.

إذاً، قوبل إغلاق إسرائيل الجبهة الأردنية (الضفة الغربية) بفتح جبهة شمال فلسطين من جنوب لبنان. أعادت قوات المقاومة رسم خرائطها وأهدافها، وتدريب وحداتها الخاصة على أرض جنوب لبنان وشمال فلسطين.

أما الدكتور وديع حداد فقد انهمك ـ كما سبق ذكره ـ في التخطيط لعمليات موجهة إلى التحالف الإمبريالي الصهيوني التوسعي. ففي عام ١٩٧١ أصدر الأوامر بنسف أنبوب التابلاين (أنبوب النفط عبر البلاد العربية TRANS ARABIAN PIPELINE /TAPELINE). ففي تموز/ يوليو من عام ١٩٧١ أصدر وديع حداد تعليماته لمجموعة من المقاتلين المختصين بصنع العبوات الناسفة بالتوجه إلى الجولان لنسف أنبوب النفط الرئيسي (تابلاين)، في الوقت الذي اشتعلت معارك متطرفة في عجلون بين القوات الأردنية وقوات الثورة الفلسطينية. إنما فشلت المجموعة بقيادة أبو محمد (درّب في سورية ومصر والصين) في نسف الأنبوب، فاشتعلت النيران التي شوهدت ألسنتها من مسافات بعيدة. قامت المجموعة بنسفه مرة أخرى في أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، فاستعرت فيه النيران. لم يصب أحد بأذى في تلك العمليات، لكن رسالة السياسيين كانت واضحة وضوح الشمس. أراد الدكتور وديع حداد التنبيه إلى أن النفط ـ شريان الحياة الأساسي للدول الصناعية الكبرى ـ لن يكون في مأمن، ولن يستمرّ تدفقه في ظل السياسة الإمبريالية الداعمة بالمطلق للسياسات التوسعية الإجرامية الإسرائيلية.

وفي الوقت عينه كانت تلك العمليات التي استهدفت أنبوب النفط الكبير، رسالة

إلى الدول المنتجة للنفط بضرورة استخدام الثروات العربية لخدمة قضايا الأمة العربية سياسياً، فلا تستمر هذه الدول في التصرف حيال الدول الإمبريالية الداعمة لإسرائيل، تسليحاً وتمويلاً، وكأنها لا تعادي الأمة العربية. أصدر وديع حداد تعليماته لمجموعة من مقاتلي البحر بالتدرُّب على ضرب ناقلة نفط عملاقة كانت، مع ناقلات أخرى، تنقل النفط من الآبار العربية إلى ميناء إيلات الإسرائيلي.

صمّم وديع حداد، من خلال تلك العملية، على توجيه رسالة إلى الدول العربية المنتجة للنفط، والدول الرأسمالية الظالمة، والداعمة للعدوان الإسرائيلي والجرائم التي ترتكبها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، مفادها أن الفدائيين الفلسطينيين قادرون على إعاقة هذا الطريق وتحويل عملية نقل النفط إلى عملية مجازفة محفوفة بالمخاطر.

تدربت المجموعة بقيادة المقدم (أبو حنفي)، ليلاً نهاراً، انطلاقاً من جزيرة البريم قرب باب المندب، لضرب ناقلة نفط عملاقة تنقل النفط من الخليج العربي إلى إيلات. فوقع الاختيار على ناقلة عملاقة مسجَّلة في ليبيريا، تبحر تحت علمها ناقلة النفط العربي إلى إسرائيل. شملت عملية التدريب دراسة خط السير البحري، واحتمال التعرض لأي اعتداءات عبر باب المندب، وسرعة الناقلة، وحركة الأمواج وعلوّها؛ إضافة إلى اختبار الزوارق السريعة المناسبة لتنفيذ عملية الهجوم، بحيث تكون قادرة، بعد ضرب الناقلة، على الوصول إلى شاطئ اليمن في وقت أقصر مما تحتاجه زوارق خفر السواحل في المنطقة لبلوغ المجموعة المهاجمة. إختير نوع السلاح وجُرب أكثر من مرة على أهداف وهمية، وفي اللحظة المقررة انطلقت زوارق الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بأقصى سرعة فالتفت حول مقطورة القيادة على مسافة مناسبة، ممطِرةً الناقلة بوابل من الصواريخ المضادة للدروع قبل أن تتمكن من إطلاق عشرين صاروخاً، فتصاعدت النيران من أماكن مختلفة من الناقلة العملاقة إثر إصابتها.

أُحبطت الناقلة في الوقت الذي أسرعت الزوارق الخاصة نحو الشاطئ الأقرب، فكان شاطئ اليمن الشمالي، حيث سلّمت المجموعة نفسها وأسلحتها للقوات العربية اليمنية الشمالية.

في أعقاب العملية، قُطِرت الناقلة كورال سي (CORAL SEA) إلى ميناء إيلات لإصلاحها، ما وفّر دليلاً على ملكية إسرائيل الناقلة واستخدامها العلم الليبيري تمويهاً. سرعان ما ذاعت الرسالة السياسية التي أرادها الدكتور حداد في العالم أجمع.

عام ١٩٧١ طالب الدكتور وديع حداد، باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كافة الثوريين في العالم، ومناضلي الحرية بتصعيد عملياتهم ضد التحالف الإمبريالي الصهيوني. وبالفعل، قام الثوريون بشنّ عشرات العمليات المحدودة المتمثلة بقنابل يدوية، أو بهجوم مسلح، قوامه صواريخ مضادة للدروع، على أهداف صهيونية وإمبريالية في أكثر من عشرة بلدان لا مجال لذكرها هنا.

من ناحية أخرى ركّز الدكتور وديع حداد في هذا العام (نهاية ١٩٧١ ـ ١٩٧٢) على المساعدة الفعالة في نقل السلاح والذخيرة إلى الأرض المحتلة. لقد تعذّر استخدام الجبهة الأردنية ـ الإسرائيلية (نهر الأردن، البحر الميت، العقبة) طريقاً لتهريب السلاح والذخيرة؛ إنما نجح الدكتور وديع حداد، وفرع العمليات الخارجية الخاصة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، في اختراق هذا الحصار. ليس هذا فحسب، بل تعاون الدكتور وديع حداد لأول مرة مع «فتح» لإنجاح المحاولات لكسر الحصار. فاستُخدمت لهذه الغاية هيئات دبلوماسية وبريد دولي وعمليات شحن تجارية. ويمكن الكشف (لأول مرة) أن شركات إسرائيلية أسسها ضابط استخبارات متقاعد استُخدِمت لتهريب السلاح والذخيرة إلى الأرض المحتلة مقابل مبلغ من المال. وما زالت هذه الوسيلة معتمدة وحيّة حتى الآن. كذلك، استفاد تحالف أبو جهاد ـ أبو هاني من بعض القذائف المرسلة إلى

الأرض المحتلة لقصف منطقة بتاحتكفا. كان المنفذون من صفوف المقاتلين الثوريين المنتمين إلى تنظيمات ثورية أوروبية، ألمان بشكل أساسي.

هكذا استثمرت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فرع العمليات الخاصة، الوقت «المهدور» في معارك جانبية، لتسديد ضربات موجعة إلى التحالف الإمبريالي الصهيوني الاستيطاني ولبثّ الحياة في العمل داخل فلسطين المحتلة، وتوجيه رسائل سياسية شكّلت عناوين العمليات الفعّالة، في أعقاب الخروج من الأردن.

الفصل التاسع

نجاح فرع العمليات الخاصة في تطوير أقلام التوقيت ووسائل القتال

لم يتوقف القتال ضد الاحتلال. استمرت العمليات عبر الحدود الفلسطينية المحتلة، من لبنان، وبدرجة أقل من طريق الجولان. ركّزت المقاومة الفلسطينية على إعادة بناء التنظيم داخل الأرض المحتلة، منهمكةً في إيجاد طرق لتهريب السلاح والذخيرة والمتفجرات. فابتدعت وسائل لم تكن بحسبان العدو. لقد ساهم المعلم وديع حداد مساهمة خلّاقة في هذا المجال، عبر تطوير أقلام التوقيت وصناعتها، وصناعة القنابل محلياً، وتمويه المتفجرات، وتهريبها بأشكال متعددة، ما أثار جنون المحتلين الصهاينة. راحوا يلهثون وراء وديع حداد الذي سبقهم بمسافات، كأنهم كلما اكتشفوا طريقة من طرقه فاجأهم بابتداع أخرى.

من الأمثلة الشهيرة تمكُّن قسم الأبحاث في «المجال»، أي العمليات الخاصة، من صناعة قنبلة يدوية بدائية من عبوات الكوكاكولا المحشوة حتى ربعها بكُرات معدنية صغيرة، في حين حُشي القسم الآخر بمادة الهكسوجين. أمكَن زرع فتيل فيها. ما إن ينوي المقاتل استخدامها، يشعل الفتيل، فتتحول عبوة الكوكاكولا إلى قنبلة قاتلة. ومثل آخر على صناعة حقيبة السمسونايت من مادة بلاستيكية قوية

كتلك المستخدمة في صناعة هذه الحقائب، مع فارق أن إطار جانبَي الحقيبة كان مصنوعاً من المتفجرات الشبيهة تماماً ببلاستيك السمسونايت القوي.

كما اكتشف قسم الأبحاث أن القشرة الخارجية للكركند البحري، الوفير عند ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي قرب باب المندب، لا تخترقها أشعة أجهزة الفحص الأمني في المطارات. وبالتالي يمكن استخدام هذا الحيوان لتغطية شحنات من المتفجرات أو قنابل حديدية أو ذخائر. كذلك صنع قسم الأبحاث درعاً واقياً من الرصاص خفيف الوزن، وأعدّ في مختبراته مناظير ليلية كان من الصعب شراؤها، وطوّر المسافات التي يمكن لجهاز التحكّم عن بعد ضبطها لتفجير العبوات الناسفة.

أما الدائرة الأنشط التي أسسها المعلم وديع حداد فكانت دائرة الطباعة التي احتوت على أحدث أجهزة التصوير والطباعة والورق الخاص، بهدف تزوير الوثائق وجوازات السفر اللازمة للعمليات. كان بالغ الحرص على منع أي نوع من الخلل في هذه الدائرة بحيث لا يتمكن أحد، كائناً من كان، من تزوير وثيقة سفر، أو جواز سفر، دون قرار منه، لأسباب مرتبطة بالعمليات، خوفاً من انكشاف الموضوع. كذلك الأمر بالنسبة إلى تزوير العملة. كان بمقدور هذه المطابع تزوير الدولار طبق الأصل ـ وهو قد جرّب هذا ـ لكنه منع منعاً باتاً تزوير الدولار، لأسباب أهمّها عدم رغبة المعلم وديع حداد في استفزاز الولايات المتحدة، أو القيام بعمليات فيها، ولا في استنفار أجهزة الولايات المتحدة ضد «المجال».

كانت دائرة الطباعة هذه تعمل بدقة متناهية فاقت دقة المحترفين، مكتسبة خبرة واسعة في أنواع الورق ومصادره التي كانت بحد ذاتها عقبة أمنية كأْداء. كانت بريطانيا، مثلاً، ترفض بيع الورق من النوع الذي تستخدمه في صنع جوازات السفر التابعة لها. فاضطرّت الدائرة للحصول عليه بطرق معقدة كأن تهرب منه

كمية قليلة جداً خارج المصدر، فلا تلفت انتباه المصدر أولاً، ولا انتباه الشاري ثانياً. إن الصعوبات الجمّة إزاء الحصول على الورق الخاص بكميات مناسبة، حثّت العاملين في هذه الدائرة على مضاعفة الجهود والتركيز، بحيث يستخدمون كمية أقل مما هو مطلوب في إنتاج الجوازات. هكذا جرى في إعداد جوازات سفر يابانية لليابانيين الذين شنّوا العملية الانتحارية في مطار اللد. ورغم أن جوازات السفر في بعض البلدان كانت مثبّتة بالخياطة لا بالصمغ اللاصق، فقد تمكّنت الدائرة من حلّ هذا الإشكال.

أثارت عملية «اللوفتهانزا» حفيظة المعادين للدكتور وديع، خاصة ممّن يرون في عملياته انتصاراً داخلياً لتياره الذي كانوا يسمّونه التيار النضالي، باعتباره إضعافاً لتيارهم اليساري. على رأس هؤلاء أبو أحمد يونس (يونس البجيرمي) الذي كان يعمل في قطر قبل ترحيله مع حسين القلا إلى لبنان. كانا عضوين في المكتب السياسي، فشغل أبو أحمد يونس مسؤولية الأمن الداخلي والخارجي في الجبهة، في حين كان حسين القلا مسؤول المالية المركزية بعد أن تخلى وديع حداد عن المهمة.

راح أبو أحمد يونس يخطط وينفذ عمليات تدرّ أموالاً على الجبهة، إلاّ أن فريقه الأمني انشغل بعمليات تدر مالاً على جيوبه وجيوب العصابة التي أنشأها تحت شعار جهاز الأمن.

فبعد عملية «اللوفتهانزا»، اتّهم فريقُ أبو أحمد يونس الدكتور وديع حداد بجمع الأموال للسيطرة على الجبهة الشعبية. في الواقع، اتفق حداد مع جورج حبش على استثمار جزء كبير من المال في مشاريع تدر أرباحاً على الجبهة الشعبية لتغطية نفقاتها. من بينها إنشاء بنك شراكة، ما زال يعمل، مع مجموعة من الممولين، ومشاريع سياحية ومطاعم في مصر وبغداد.

استُثمر جزء من الأموال في بورصة بيروت، لشراء وبيع الأسهم والمتاجرة بها، فيستفاد من ربحها في تغطية النفقات. كما مُوِّلت عدة مشاريع في الولايات المتحدة للغاية نفسها.

اختطفتْ مجموعة أبو أحمد يونس شاباً لبنانياً، كان الدكتور وديع حداد كلّفه باستثمار مبلغ من المال في الأسهم ببورصة نيويورك. كان متوقعاً من هذا المبلغ توفير دخلٍ للجبهة الشعبية يساعدها في تغطية مصاريفها. لم يعلم أعضاء المكتب السياسي بهذا الأمر.

كان ذلك الشاب اللبناني صديقي. فبلَغني من أحد حراس السجن أن مصطفى هذا قيد الاعتقال، وأنه يتعرض للتعذيب. أوهموه بأنني أرسلتُهم لإحضاره إلى مكتبي. ثم قادوه إلى سجن أبو أحمد يونس. فأسرعت لإبلاغ الدكتور جورج حبش الذي استبعد الأمر. احتدّ النقاش بيني وبينه، فتوجهنا إلى السجن، ليتبيّن لنا أن الرجل موجود هناك. فأمر الحكيم بالإفراج عنه فوراً. إلا أن أبو أحمد يونس أخّر الإفراج عنه يومين لإخفاء آثار التعامل القاسي معه.

التقيت مصطفى، كان متعباً جداً. قلت له إن الجبهة بحاجة إلى المال. فأجابني بأن المال مسجّل لحساب مجموعة أبو أحمد يونس، وأن الانتظار حتى نهاية الشهر سيدر على الجبهة ربحاً، فمن الخطأ والخسارة للجبهة سحبه الآن، لكن الحكيم أصرّ حتى يفنّد آراء أبو أحمد ومجموعته. وتمّ سحب المبلغ.

أبلغني مصطفى أن ضابطاً إنكليزياً يدعى داتون (DATON) مسجون في الزنزانة المجاورة لزنزانته، وبالإمكان مبادلة هذا الضابط بمبلغ من المال. طرحت عندها الموضوع على الحكيم والمكتب السياسي، وافقوا على أن يكون الحد الأدنى نصف مليون ليرة لبنانية. سخر مصطفى من الطلب معتبراً أن الإنكليز سيدفعون أكثر بكثير لو طلبت الجبهة، فأجرى اتصالاته، وتمّت مبادلة السجين شارلز داتون، بنصف مليون ليرة لبنانية.

واصلت مجموعة أبو أحمد يونس عملياتها المنحرفة تدريجياً نحو الإجرام المنظّم. فقد اختطفت ضابط استخبارات أردنياً قيد الإعارة للتدريب في دولة الإمارات المتحدة، هو رفاعي الهزايمة، الذي كان يقضي بضعة أيام للاستجمام في بيروت. جرى اختطافه أثناء خروجه من نادٍ ليلي، بعد سهرة طويلة. لم يعلم بالأمر أي من أعضاء المكتب السياسي. دفعت الإمارات مبلغاً كبيراً من المال للإفراج عن الضابط، وتسلم أبو أحمد يونس المال دون الإبلاغ عنه.

لفتت هذه الممارسات انتباه المعلم وديع حداد الذي كان يشكّك بأن أحد أعضاء المكتب السياسي يسرّب أخبار «المجال الخارجي» إلى جهة معادية. ناقش هذا الأمر عدة مرات مع الدكتور جورج حبش، الأمين والصادق دوماً مع رفاقه.

كان وديع حداد قد التزم بقرار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي يشترط على «المجال الخارجي» (وديع حداد) الحصول على موافقة الحكيم على أي عملية يفكر في تنفيذها. كانت مراحل تنفيذ القرار تلزم الدكتور وديع حداد ببحث العملية المقترحة مع الدكتور جورج حبش من حيث المبدأ بعد دراسة تأثيراتها السياسية المحتملة. إذّاك، يقوم «المجال الخارجي» باطلاع حبش على خطة العمل؛ أما المرحلة الثالثة فكانت أخذ موافقة الدكتور جورج حبش على بدء التنفيذ، أي التوقيت. كانت أمانة جورج حبش وصدقه يقضيان بإطلاع المكتب السياسي على ما يُحث مع «المجال الخارجي».

جزم الدكتور وديع أكثر من مرة بوجود مسرِّبٍ للأخبار، فالمعلومات ستصل إلى العدو، ما سيعرِّض المجموعات المنفذة للخطر، والعملية للفشل.

رفض حبش فكرة الإندساس، فواظب على إعلام المكتب السياسي، بعد اختصار عدد أعضاء المجموعة ـ من بينهم أبو أحمد فؤاد (المسؤول العسكري)، وأبو أحمد يونس (المسؤول الأمني)، وفؤاد المراغي، ويونس البجيرمي.

وما زال حداد يشكّك حتى ساعدته علاقاته الواسعة في الحصول على نسخة من الشيك المدفوع لأبو أحمد مقابل الإفراج عن رفاعي الهزايمة. فأرسل صورة شيك البنك العربي إلى جورج حبش ليطلعه على المعلومات، ويبلغه بما يدور دون علمه.

لم يكتفِ أبو أحمد يونس بسوابقه، بل قام فريقه بخطف صديقي عصام السلفيتي الذي كانت صداقة حميمة تربط والده حليم السلفيتي بوالدي. كانا جارَيْن في جبل اللويبده. كان حليم السلفيتي من كبار صرّافي عمان، وقد توسّعت أعماله إلى بيروت. أما رحلاته، من عمان وإليها، فقصيرة، حيث نقلُ الأموال بحقيبة من وإلى بيروت هو مصدر ربح لا بأس به، نتيجة الفارق في سعر صرف العملات بين عمان وبيروت. اختطف فريق أبو أحمد يونس عصام السلفيتي، وأفرج عنه سريعاً ـ دلالة على أن المبلغ المطلوب دُفع فوراً إلى المجرمين. ولعلّ المبلغ الذي حمله عصام في حقيبته قد صودر ـ لا أملك المعلومات الدقيقة عن ذلك، إذ كتِم الموضوع عن المكتب السياسي.

ومن الأعمال الإجرامية لهذا الفريق اختطاف عبد الكريم الكباريتي، الطالب في الجامعة الأميركية في بيروت.

من ناحية أخرى، كان وليد قدورة ينتظر التحاور معه في الهوية الفكرية للجبهة، وفي الاستراتيجية والتكتيك، إذ يعتبر أن «المجال الخارجي» هو السبب الرئيسي وراء مراوحة الجبهة الشعبية في «مستنقع» فكرها الوطني اليميني، وعدم تخطيها الحواجز لتصبح تنظيماً يسارياً. في تلك الفترة، كان العقيد أبو الزعيم (ضابط سابق في الجيش الأردني)، قد انضم إلى «فتح»، وأصبح مسؤولاً للاستخبارات العسكرية فيها.

في إحدى ليالي نيسان/ أبريل ١٩٧٢ اعتقل أفراد من استخباراته وليد قدورة

ومواطناً لبنانياً في منطقة ساقية الجنزير. تبين أن اللبناني كان ضابطاً في المكتب الثاني، وأن وليد قدورة كان عميلاً له.

ظلّ شعار «المجال الخارجي» معتمداً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المتميّزة عن التنظيمات الأخرى بعملياتها الخاصة الجريئة جداً.

بعد عملية اختطاف «اللوفتهانزا» مباشرة، بدأ المعلم الإعداد لعملية كبيرة أخرى ـ عملية مطار اللد التي كانت أول عملية انتحارية ضخمة تشن داخل فلسطين المحتلة، وأول عملية تجسد التحالف الفلسطيني الدولي، وأول عملية يظهر فيها الجيش الأحمر الياباني عالمياً كشريك لحركة التحرر الوطني الفلسطيني، بحيث يترجم الاستراتيجية الجديدة في توجيه الضربات إلى النظام الرأسمالي الإمبريالي، عبر المشاركة في نضال حركات التحرر الوطنية الساعية إلى النيل حريتها واستقلالها.

الفصل العاشر

هجوم لم يتوقف لحظة على وديع حداد استهدفه واستهدف عملياته

بعد عملية «مطار الثورة» وأحداث أيلول، بات وديع حداد يشكّل الرقم الصعب، فتلاحقه كافة أجهزة الاستخبارات الغربية والإسرائيلية والعربية. كان يشكل خطراً عليها جميعها. فتقاطعت مصالحهم عند نقطة واحدة: تصفية وديع حداد. فهو، بما يقوم من عمليات، يشكل خطراً عليهم، ناهيك عن سعيه إلى إقامة تحالف ثوري دولي يهدّدهم في عقر دارهم. لقد رأت إسرائيل في شعاره «وراء العدو في كل مكان» خطراً داهماً عليها وعلى المؤسسات الصهيونية ومصالحها في العالم.

شحذت هذه الأجهزة همّتها على الفور، منسّقةً في ما بينها لأداء عمل جماعي، وساعية إلى تجنيد أعضاء وكوادر في الجبهة الشعبية بذرائع مختلفة، للإيقاع بوديع حداد في كمين لا ينجو منه. إلاّ أن وديع حداد ثابر إلى الأمام، تاركاً الأعداء يلهثون بينما هو يعدّ لهم المفاجآت. بدوا كلاعبي شطرنج من الدرجة الثالثة أمام بطل التحرك الهجومي.

على أثر الأحداث في الأردن، أتيحت الفرصة من أوسع أبوابها لتأطير الفصائل الثورية في العالم، وتوحيدها على أساس برنامج مواجهة الإمبريالية، بقيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. أُنشئت عدة معسكرات (في لبنان واليمن والعراق) لتدريب العشرات بل المئات من أعضاء هذه الفصائل الثورية: هولنديين، ويونانيين، وإيطاليين، وفرنسيين، وإنكليزيين، وألمانيين، وأميركيين لاتينيين، وإيرانيين، وإسبانيين، وسويسريين، واسكندنافيين.

بعد خروج قوات الثورة الفلسطينية من الأردن نهائياً عام ١٩٧١، على أثر الهجوم الكاسح الذي شنّته قوات الجيش الأردني على مواقع إعادة انتشار قوات الثورة الفلسطينية، كان قرار قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التوجه تدريجياً، من دون ضجيج، إلى جنوب لبنان. وهكذا حصل.

عصفت التناقضات بكافة التنظيمات؛ كان لكل تنظيم، وعلى رأسها «فتح» والجبهة الشعبية، قيادة في لبنان (الساحة الثانية بعد الأردن). بوصول القوات من الأردن، وقع الاحتكاك بين القيادتين: المركزية، وقيادة لبنان. فاحتدمت التناقضات حتى بلغت حدّ الصدام المسلح، فسقط قتلى وجرحى في معارك حسمِ أمور القيادة. على سبيل المثال، شهدت فتح صداماً في المخيمات، بين التنظيمات ومليشياتها المسلحة من جهة، والقيادة المركزية وقواتها الضاربة من جهة أخرى.

لم تدم المعارك طويلاً. ففي صيف ١٩٧٢ حسم أبو عمار أوضاع «فتح»: اعتقل حمدان عاشور المسؤول عن التنظيم ومليشياته. كما انبثق عن فتح تيار سرعان ما أنهاه ياسر عرفات بقصف تجمعه بالمدفعية. ومن «فتح» أيضاً نشأت مجموعة أطلقت على نفسها «اليسار»، متخذة خط المعارضة من داخل مؤسسات «فتح». من رموز هذا التيار أبو صالح عضو اللجنة المركزية، وماجد أبو شرار عضو المجلس الثوري آنذاك.

أما داخل الجبهة الشعبية، فالوضع أكثر تعقيداً. فالمبدأ العام الذي يحكم التناقضات والتعارضات داخل الجبهة الشعبية هو «الحوار الديموقراطي». وبالتالي، تعذّر على أيّ تيار أن يفرض رأيه أو هيمنته على الجبهة بالقوة. كانت ثمة مجموعة يقودها وليد قدورة من مخيم عين الحلوة في جنوب لبنان، تضم عدداً من الكوادر الطلابية والعالمية، تتحدث بلغة «السوبر يسار». هي تتلاقى مع مجموعة يقودها شاب عراقي «أبو شهاب»، تتحدث أيضاً بلغة ناعمة إنقلابية، وبلغة يسارية متطرفة.

رغم لغاته ولهجاته، لم يجد «اليسار» موضوعاً جوهرياً يختلف عليه. فقد سقط الجميع: المعارضة، والتيار الأساسي، وهاشم علي محسن رئيس اتحاد نقابات العمال العرب ـ العراقي الذي قاد حزب العمل الاشتراكي اللبناني لاحقاً. سقطوا جميعاً في فخ الحملة الثورية التي لا معنى لها في ظل الظروف النضالية الفلسطينية والعربية السائدة: ظروف تحرير الأرض من الاحتلال الإسرائيلي.

شرّعت هذه التناقضات الأبواب على مصراعيها لكل من أراد الاندساس وتجنيد العملاء داخل صفوف الجبهة. كان من الطبيعي أن تحاول أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، وغيرها من أجهزة الاستخبارات الغربية، أن تفعل ذلك منفردة، أو متعاونة، أو بالتعاون مع أجهزة استخباراتية عربية كان يهمها القضاء على نفوذ الجبهة الشعبية، وشلّ قدرتها على القيام بعمليات تضرب مصالح الأنظمة العربية، أو أجهزتها الاستخباراتية، بما لها من صلات تنسيقية وتمويلية ببعض دول الغرب، كالولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وألمانيا.

انشق أبو شهاب ومعه مجموعة من الكوادر، في ما عُرف بالجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين. وسرعان ما تلاشت هذه التجربة برحيل أبو شهاب إلى العراق، ليتبيّن أنه كان يعمل لحساب الاستخبارات العراقية.

بقي وليد قدورة؛ فاتخذ الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قراراً ببدء

فتح حوار معه. أما هاشم علي محسن فتحوّل إلى منظّر، وأمين عام حزب العمل الاشتراكي اللبناني. عاش عالةً على الجبهة الشعبية، مستخدماً رصيدها ورصيد جورج حبش، دون أن يحقّق أي إنجاز سوى البيانات المتطرفة.

اتّضح لاحقاً أن هذه الحركات لم تنجم عن الهزيمة في الأردن، ولا عن مغادرة القوات الفلسطينية الساحة الأردنية إلى لبنان، بل جاء «تفريخها» منعاً لمنظمة التحرير الفلسطينية من إعادة بناء قواعد قوية لها تمكّنها من الاستمرار في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. إنجلت هذه الحقيقة قبل السنوات الثلاث من إشعال إسرائيل الحرب الداخلية في لبنان لجرّ منظمة التحرير الفلسطينية إلى معركة جانبية، وتحويلها إلى لاعب محلي، بدل مقاومة الاحتلال.

في هذه الأثناء كان شغل وديع حداد الشاغل مواصلة العمل الثوري المقاوم. ففي الوقت الذي عقدت الجبهة الشعبية مؤتمرها عام ١٩٧٢ في مخيم البداوي، أطلق وديع حداد أول مؤتمر لممثلي التحالف الدولي الذي بدأ يأخذ شكلاً وهيكلاً من حيث التنظيم. كان تحالفاً لاستخدام العنف الثوري ضد مصالح الإمبرياليين والصهاينة، من خلال الانخراط في العمل الثوري التحرري الوطني لشعوب العالم الثالث. ممّن حضر المؤتمر: فرع العمليات الخارجية أو العمليات الخاصة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ممثلو قيادة الجيش الأحمر الياباني، الخلايا الثورية الألمانية، فدائيّو خلق، الخلايا الثورية الدانماركية، الجيش الأحمر الإيطالي، الخلايا الثورية اليونانية، جيش تحرير غواتيمالا، وفصائل صغيرة سويسرية وهولندية وإسبانية وأيرلندية، وعدد من العسكريين المتخلّين عن الخدمة احتجاجاً على حرب فيتنام.

إتّخذ مؤتمر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام ١٩٧٢ قراراً بوقف عمليات خطف الطائرات. وتحت ضغط الثوريين المتغيّبين عمداً عن المؤتمر، لأن قسماً منهم انشق باسم الجبهة الثورية، وقسماً آخر (بقيادة وليد قدورة) امتنع احتجاجاً

على عدم عزل اليمين كلياً عن القيادة. تحت ضغط هؤلاء، اقترح الدكتور جورج حبش أن يتخذ المؤتمر قراراً بعدم تنفيذ «المجال» أي عملية دون موافقة الأمين العام للجبهة الشعبية، جورج حبش، عليها. هكذا نجح مؤتمر ١٩٧٢، كل لدوافعه الخاصة، في وضع قيود وممنوعات تحدّ من حرية فرع العمليات الخارجية، بقيادة وديع حداد، في القيام بعمليات واسعة دون الحصول على الموافقة المسبقة.

لم يحضر وديع حداد المؤتمر لانشغاله بالعمل. انتخب المؤتمر لجنة مركزية أوكل إليها صلاحيات انتخاب مكتب سياسي، ورسم برنامج العمل، وتوزيع المسؤوليات، إضافة إلى انتخاب جورج حبش أميناً عاماً. كانت أولى مهمّات الحكيم هي التعامل مع حالتَي الانشقاق. انتهى أمر الجبهة الثورية بسرعة، وبمأساة، إذ راح ضحية لها الفنان الكبير إبراهيم زاير الذي انتحر ندماً على انضمامه إلى هذه المجموعة. هرب أبو شهاب، وسمير الصاحب، ولم يبق من المجموعة أحد. أما مجموعة وليد قدورة، فقد جَدْوَلَ الحكيم جلسات الحوار العملي مع وليد الذي لم يكن يرافقه أحد فيها باستثناء حضور بعضنا، وكنت أحدهم.

كان وليد ممثلاً من الطراز الأول: يدّعي التواضع والهدوء. يملأ الحزن عينيه متحدّثاً عن النضال والثورة والفقراء. إنما لسبب ما، كنت اقرأ في عينيه أعمق مما تسمح به مسحة الحزن فيهما. وكنت أسخر من تقاسيم وجهه الجدية في الحديث مع الآخرين، خاصة جورج حبش.

ولطالما استفزّني ذلك الدفتر الذي كان يحمله دائماً، إذ كنت أرى فيه شخصاً لا يجيد الكتابة. أثناء تلك الحوارات، تعمّدت الخروج معه والتحدّث إليه. فقلت: وليد، لماذا لا تكتب؟ لماذا لا تكتب لمجلة **الهدف** مقالاً، وتفسح المجال للجميع لمناقشة كتاباتك؟ كأنه صعق. نظر إليَّ قائلاً:

ـ أكتب؟

ـ أجل، تكتب. فالكتابة أهم وسيلة لشرح وجهة نظرك، فتوثقها وتتيح للآخرين النظر فيها، وربما الردّ عليها.

لم يجب! فقلت: ما رأيك؟

أجاب: سأحاول!

عرفت أنه لن يكتب، إما خوفاً أو عجزاً، أو رفضاً لتوثيق أي مقولة محسوبة عليه.

في ذلك الوقت، كانت الجبهة الشعبية تعاني أزمة مالية خانقة. ورغم الجهود التي بذلناها لجمع التبرعات من الشعب، وأصدقاء حركة القوميين العرب، وأصدقاء الجبهة الشعبية (من الأثرياء)، وأصدقاء جورج حبش ووديع حداد الشخصيين، والأصدقاء الشخصيين لكل واحد منا، لم تتخطّ التبرعات مبلغ ثلاثة ملايين دولار. لم يكن مبلغاً كافياً لتغطية المصاريف مدة عام واحد. فقمت بجولات في أميركا الشمالية وكندا وأوروبا فدول الخليج، لجمع الأموال الشعبية، فلم تتعدَّ الحصيلة مليون دولار. لم تعد مصاريف الجبهة ضئيلة، بل تضاعفت نظراً إلى نموها ونمط عملياتها.

أخذت الجهات المعادية لوديع حداد داخل الجبهة الشعبية تهاجمه، متهمة إياه باستنفاد الأموال في عمليات لا طائل منها. وما كان من هذه الجهات إلا التستّر وراء موقف الاتحاد السوفياتي، الذي طلب من جورج حبش وقف عمليات خطف الطائرات لأنه إرهاب يضع عدالة قضية الشعب الفلسطيني على المحكّ.

اقترح جورج حبش إيلاء وديع حداد مسؤولية المالية المركزية في الجبهة. فوافق حداد على هذا التحدي. وهو في الوقت نفسه، قدَّر أن عمليات «المجال» (العمليات الخاصة) والتحالفات مورد مهمّ للجبهة مهما بلغت نفقاتها.

عملية «لوفتهانزا»

باشر وديع حداد مهمته الجديدة مستخدماً خبرات فرع العمليات الخاصة لتمويل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كان قد درّب فرقاً من تنظيم الخبرات ومن النخبة على الشروع في أية خطة يضعها لتنفيذها بدقة. فجرى اختطاف طائرة «لوفتهانزا» في الثاني والعشرين من شباط/ فبراير عام ١٩٧٢. كانت «اللوفتهانزا» جديدة، من طراز «بوينغ ٧٤٧»؛ أقلعت في أول رحلة لها في نيسان/ أبريل ١٩٧١. كان على متن الطائرة المتوجهة من نيودلهي إلى أثينا ١٧٨ راكباً، حين قامت مجموعة من نخبة مقاتلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، المدرّبين تدريباً خاصاً والتابعين لفرع العمليات الخاصة «المجال»، بالإستيلاء على الطائرة في رحلتها إلى أثينا، بعد إقلاعها بوقت قصير.

تحدّثت وكالات الأنباء عن المجموعة المقاتلة على أنها تنتمي إلى تنظيم إسلامي، كإحدى وسائل التضليل التي استخدمها جهاز إعلام فرع العمليات الخاصة في بداية العملية.

أصدر المقاتلون الخمسة الذين سيطروا على طائرة «اللوفتهانزا» بياناً بُثّ من الطائرة يروي قضية الشعب الفلسطيني، وفظائع الإحتلال الإسرائيلي، مطالبين العالم بالوقوف إلى جانب الحق والعدالة. حمل بيانهم توقيع ضحايا الاحتلال الإسرائيلي.

بعدها أصدر الكابتن محمود، قائد المجموعة، أمراً لقبطان الطائرة بالتوجه إلى عدن، عاصمة اليمن الجنوبي. فحوّل مسار الطائرة، واتصل بالأبراج على الأرض، وأملى عليهم البيان ليذاع من محطات الإذاعة والتلفزيون في بلدانهم.

ما إن حطت الطائرة في مطار عدن حتى استفسر المسؤولون اليمنيون عن الأمر، وعن هوية المجموعة ومطالبها، فلم ينالوا جواباً سوى الصمت. كانت العملية

فريدة من نوعها. لا حوار، لا كلام، لا تفاوض. الشروط معروفة. وعلى الألمان التنفيذ إن هم أرادوا إطلاق الركاب الرهائن واستعادة الطائرة.

هذا ما كان يتلوه رئيس مجلس إدارة «اللوفتهانزا» وكافة مدرائها، في اللحظة التي استولت فيها مجموعة المقاتلين على الطائرة بعد إقلاعها من مطار نيودلهي.

ففي مساء ٢١ شباط/ فبراير عام ١٩٧٢، كان شاب ألماني يسير برفقة صديقته قرب المقر المركزي لشركة «لوفتهانزا» في فرانكفورت.

وهما يغنيان سعيدين قرب المدخل، ألقى الشاب رسالة في صندوق بريد الشركة، وتابعا سيرهما، وتواريا في ذلك الشارع «السعيد». صباح ٢٢ شباط/ فبراير وصلت الرسالة إلى مكتب المدير العام، حيث كانت مديرة مكتبه قد فتحتها وقرأت فحواها. فهرعت إلى مكتب المدير العام وسلّمته إيّاها. رسالة مطبوعة بأناقة، بلغة ألمانية سليمة ومهذبة جداً، ومرفقة بنصّها الإنكليزي، وبمغلف صغير يحتوي مفتاحاً. أعلمتِ الرسالةُ المدير أن طائرته محتجزة منذ دقائق، وأنها بسلام وأمان بجميع ركابها. ولسوف يبلغونه عن مكان هبوطها لاحقاً. إنما في تلك الأثناء، عليه أن يجمع مبلغ خمسة ملايين دولار، يضعها في حقيبة، ويرسلها مع أحد موظفيه عل متن طائرة خاصة إلى بيروت. ينقل الموظف الحقيبة بنفسه، ويتوجه إلى مرآب السيارات أمام مطار بيروت. سيجد في الصف الخامس، الموقف رقم (٣)، سيارة «فولكس فاغن» حمراء اللون، ألصقت على زجاجها الأمامي صورة لجمال عبد الناصر. إذّاك يستخدم المفتاح المرفق بالرسالة ليفتح باب السيارة، فيجلس ويفتح صندوقها ليجد مغلفاً يحتوي على التعليمات الواجب تنفيذها بعد تلك المرحلة. أرفق بالرسالة كشف بالعملات المختلفة المطلوبة، وكمياتها على ألا تكون ذات أرقام متسلسلة.

وأسقط في يد مدير «اللوفتهانزا». لا كلام، لا تفاوض، لا حوار، بل تنفيذ.



طائرة «لوفتهانزا» التي اختُطفت إلى عدن عام ١٩٧٢

ألزمت الرسالة مدير «اللوفتهانزا» بإجراء اتصالات مع مجموعة من السياسيين (أصحاب القرار)، للإفراج عن أربعة أشخاص معتقلين في ألمانيا، واعدةً بإبقاء الأمر سرّاً، وبنفي أي خبر ذي صلة به، لطمأنة أصدقائه.

في مطار بيروت، استأنفت مجموعة المراقبة المكوّنة من شخصين عملها بمراقبة الطائرات الهابطة. إذ لم يكن متوقعاً الإعلان عن وصول الطائرة الخاصة، لا بالمذياع ولا على لوحة الإقلاع والهبوط. تأخرت الطائرة، فقلقت مجموعة المراقبة التي اتصلت بالمركز، ليأتيها الجواب: أمر حازم بمواصلة المراقبة، فالطائرة ستصل في أي لحظة. بالفعل وصلت بعد خمس وثلاثين دقيقة. ترجّل منها رجل يجر حقيبة ذات عجلات، وبعد عشرين دقيقة خرج نحو باحة المطار الخارجية، متجهاً إلى مرآب السيارات، نحو «الفولكس فاغن» الحمراء. وشاهدته مجموعة المراقبة الخارجية يقرأ التعليمات، يدير المحرك ويسير نحو كورنيش

البحر. عند خلدة تبدلت سيارة المراقبة، فتبعته سيارة «مرسيدس» على الطريق الساحلي نحو صيدا. على مشارف صيدا تمهل الرجل، مراقباً بدقة الجانب الأيمن من الطريق ـ شاطئ البحر ـ حتى وجد ضالته: فندق قديم مهجور، أمامه ساحة مظلمة. أعطى إشارة التوجه إلى اليمين، وهبط في الشارع الفرعي المؤدي إلى مدخل الفندق الساحلي حيث توقف. فوراً أحاطت به ثلاث سيارات تقلّ مجموعات من المقاتلين المسلّحين. تقدم نحوه شاب رياضي البنية، غير مسلّح، أنيق الملابس، يتكلم الإنكليزية والفرنسية بطلاقة. بعد أن هنأه بالسلامة، سأله عن الهدية. فأجاب الرجل بصوت هدّجه الخوف وأرجَفه القلق: نعم إنها في الحقيبة. أشار الشاب بيده آمراً، فأسرع نحوه شابان آخران فتحا الحقيبة وسلّطا عليها الضوء.

كان ثمة رسالة فوق أكوام الدولارات والماركات الموضَّبة. هَمَّ الشاب بالتقاط الرسالة. أشار بيده فأُغلقت الحقيبة فوراً، وعاد الشابان إلى مكانهما. قرأ الرسالة. تضمّنت اعتذاراً عن نقص في المبلغ هو ٥٠٠ دولار لتعذّر إيجاد أكثر من هذا المبلغ متداولاً دون تسلسل، مع الوعد بمتابعة الأمر الثاني دون ضجة، وإشارة إلى أن الأمر كان يستغرق وقتاً، أمَلاً بالإفراج السالم الفوري عن الطائرة والرهائن. ابتسم الشاب، داعياً الموفد الألماني بأدب وتهذيب إلى الترجّل من سيارته «الفولكس» الحمراء والتوجه إلى سيارة الشاب (مرسيدس جديدة). جلسا في المقعد الخلفي، وانطلقت السيارة عائدة إلى بيروت، بعد أن سلم الشاب السيارة ومحتوياتها إلى موفد «المعلم» الخاص. فقد كان الدكتور وديع ينتظر على بعد مئات من الأمتار، برفقة بعض شخصيات صيدا الوطنية الملتزمة بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كالتزامها سابقاً بحركة القوميين العرب ـ بعض هؤلاء ما زالوا أحياء يرزقون.

فوجئ الموفد الألماني عندما باغته الشاب بسؤاله: ما هي التغييرات التي لمستها منذ نهاية عملك في بيروت؟ تنهّد الألماني قائلاً: أنت تعرف. لكن هذه المرة

أشعر بخوف شديد. أرجوك لا تؤذني، لا تقتلني. فأنا الآن أب. ابتسم الشاب مطمئِناً، فقال: هل ترغب بتناول مشروب قبل التوجه إلى المطار؟ قال الألماني: أودّ ذلك، إنما لا أريد التأخر عن الطائرة. قصدا مقهى على طريق المطار. فيما كانا يتناولان مشروبهما، أخرج الشاب ورقة وقلماً وكتب: «الشهيد أبو طلعت». وأعطاها إلى الموفد الألماني الذي سأله عن مضمونها. أجاب الشاب: أنت تقرأ العربية. اقرأها أمامي. فقرأها، صحّح له الشاب اللفظ. وقال: إحتفظ بهذه الورقة للذكرى. قد تبيعها يوماً لقاء مبلغ كبير من المال. طلب الشاب من السائق اصطحاب الألماني إلى المطار، والعودة دون الإفصاح بشيء.

بعد نصف ساعة وصلت الرسالة إلى الطائرة. كانت كلمة السرّ للإفراج عن الرهائن والطائرة: «الشهيد أبو طلعت».

تسلّم وديع حداد الملايين الخمسة لتمويل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حينما كان أعداؤه داخل الجبهة يتهمونه بالإسراف على «المجال»، فرع العمليات الخاصة في الجبهة.

الفصل الحادي عشر

من كان وراء العمليات المشوّهة والاحتيالية

ذكرنا أن فريقاً داخل الجبهة الشعبية كان يجهد ضد وديع حداد لزحزحته عن المسؤوليات العسكرية والمالية. قادَ يونس البجيرمي (أبو أحمد) هذه الجهات، باذلاً جهده لتحريض جورج حبش على وديع حداد.

بالنسبة إلى مسؤولية المالية المركزية، لم يرَ وديع حداد مانعاً في تسليم المسؤولية إلى شخص آخر. فتسلّم حسين القلا المسؤولية، وهو صديق أبو أحمد يونس، الذي كان يعمل معه في قطر (رُحِّلا منها بتهمة الانتماء إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين).

ارتكب أبو أحمد يونس العمليات الاحتيالية، أثناء تولّي حسين القلا مسؤولية المالية المركزية. كان الهدف جمع الأموال لمصلحة الجبهة الشعبية، على اعتبار أن وديع حداد كان يصرف جزءاً كبيراً من مال الجبهة على العمليات الخارجية الباهظة.

لم يكن هذا صحيحاً، في الواقع، إذ كانت لوديع حداد مصادر مال خاصة، يزوّد بها التنظيم الخارجي للعمليات الخارجية أو عمل «المجال»: من خلال مجموعة

من الأقارب والأصدقاء الوطنيين المتحمسين لعمله، والراغبين في دعم العمليات التي تؤذي إسرائيل. من هؤلاء الأثرياء صلاح الشما، حسيب الصباغ، سعيد خوري، ورفيق الحريري، ودول كالعراق وليبيا، وبعض السعوديين ممّن لا يريدون ذكر أسمائهم، كذلك بعض الكويتيين (منهم أفراد من الأسرة الحاكمة).

حاول أبو أحمد يونس تشويه سمعة الدكتور وديع حداد، عبر عمليات محلية ونفعية جداً، لا تمت إلى العمل الكفاحي والسياسي بصلة. فأن تخطف طائرة «لوفتهانزا»، وتفرج عنها لقاء خمسة ملايين دولار أمر، وأن تخطف عبد الكريم الكباريتي، أمر آخر.

فـ«لوفتهانزا» تابعة لألمانيا، التي تزود إسرائيل بالغواصات القادرة على إطلاق رؤوس نووية، وجزء من النادي الامبريالي، ضدّ الشعوب التوّاقة إلى التحرر والاستقلال والتخلص من الاحتلال الاستيطاني أو الاحتلال العسكري. اختطف أبو أحمد يونس عبد الكريم الكباريتي، الأستاذ في الجامعة الأميركية، دون الإعلان عن الأمر، ما جعله عرضة للتخمين. لم أكن على علم بذلك، رغم أن النظام الداخلي يحتّم على مسؤول الأمن إبلاغ المكتب السياسي بالعمليات التي قد تولّد ردوداً تمسّ الجبهة، ورغم أنني عضو في مكتبها السياسي وأحد مؤسسيها. اتصل بي والدي توفيق هاتفياً من عمان ليبلغني أن ابن صديقه قد خطف في بيروت، فطلب مني العثور عليه وإعادته إلى أهله. فما يربط العائلتين، أبو شريف والكباريتي، صداقة حميمة أخوية، لذا يُعوَّل عليَّ لإنقاذ عبد الكريم. بالفعل، استنفرت كل علاقاتي للبحث عنه، فتأكدت أنه ليس لدى «فتح» ولا لدى الكتائب اللبنانية، ولا حتى الجبهة الديموقراطية.

اتصل بي والدي ووالد عبد الكريم، مرة أخرى وأبلغاني أن المعلومات التي حصلا عليها تفيد باعتقاله من قِبل الجبهة الشعبية. فقلت لهم: مستحيل، فأنا في

مركز يتيح لي معرفة الحقائق. لا علم لي بأنه معتقل لدينا، ولا يوجد أي سبب كي نعتقله.

أنهى والد عبد الكريم المكالمة قائلاً: بسام، عبد الكريم أخوك، وأنت مسؤول عنه، وأدع الأمر لك.

جنَّ جنوني. رحت أسأل في أوساط الأمن، إلى أن أبلغني أحد المقاتلين ممّن عملوا سابقاً تحت إمرتي: عبد الكريم موجود عندنا، وأن ما يشاع عن أن وديع حداد هو مَن رتب العملية غير صحيح. فسألته: من؟ خاف أن يجيب لكنه أوحى إليّ بمكان وجوده. توجهت فوراً إلى المكان برفقة حرّاسي، وكاد الحرس أن يشتبكوا مع حراسي. فأمرتهم بالتراجع مهدِّداً حرس «السجن الأمني الخاص» باعتقالهم.

توجهت إلى جورج حبش، وأبلغته القصة، مصرّاً على عدم مغادرتي قبل الإفراج عن عبد الكريم. قلت له: عبد الكريم أخي، إضافة إلى أنه مواطن عربي. ونبّهت إلى أن هذه الممارسات تشوّه سمعتنا، وتحولنا إلى عصابة في ذهن الناس. فأُفرج عن عبد الكريم، ما غمرني بالسعادة. اتصلت بوالدي طالباً منه نقل تحياتي إلى والد عبد الكريم، وأبلغته أنه بخير، وأنه سيصل عمان خلال ساعات.

استغلّت كل الجهات المعادية هذه العملية ضدنا، وشوّهت سمعتنا، تماماً مثلما حصل مع عصام السلفيتي. هو صديق حميم لي، وتربط عائلته صداقات حميمة مع كافة العائلات المسيحية في الأردن، وبعائلتي شخصياً. كان والده جار والدي في جبل اللويبده في عمان. أقمتُ الدنيا، ولم أقعدها حتى أُفرج عنه، إذ اعتبرتُ هذه العمليات التي نفذّها أبو أحمد يونس وعصابته موجهة ضدي شخصياً، وضد وديع حداد لإضعافه أمام أصدقائه، وإظهاره أمام العالم بمظهر رجل عصابة.

أما رفاعي الهزايمة، الضابط الأردني، فقبض أبو أحمد يونس المال الذي دفعته أبو ظبي فدية له، بشيك مسحوب من البنك العربي، تمكن الدكتور وديع حداد من الحصول على نسخة منه. طُرح موضوع أبو أحمد يونس والتشكيك في عمالته لجهة ما، على الدكتور جورج حبش الذي بدأ يحذره.

كرر أبو أحمد عمليته، فاختطف اللبناني مصطفى الزين مساعِد وديع حداد في بعض الاستثمارات في سوق الأسهم. أجبرتُهم على الإفراج عنه أيضاً. تمكن مصطفى بعد الإفراج عنه من استحصال فدية للإفراج عن ضابط إنكليزي كان معتقلاً لدى الأمن، وقيد الإعارة للإمارات المتحدة للتدريب. حينها كان يقضي إجازته في بيروت. لم يتجاوز مبلغ الفدية نصف مليون ليرة لبنانية لقاء الإفراج عنه، ما يدل على السعي إلى تشويه سمعة «المجال الخارجي» والدكتور وديع. فمثل هذا الضابط كان من الممكن أن تدفع الجهات المهتمة به خمسة ملايين دولار للإفراج عنه. كشف وديع حداد أن لِيونس البجيرمي علاقات بأجهزة استخبارات عديدة، تحت غطاء الأمن. لفتت انتباهه المؤشرات التالية:

١. لم يأتِ أبو أحمد بشيء من لجنة التحقيق في استشهاد غسان كنفاني، رغم تزويدنا إيّاه بصور التُقطت أثناء نسف السيارة.

٢. لم يحصل على معطيات بشأن التحقيق في محاولة اغتيالي، رغم معرفة المصدر، ورغم توافر ختم جميل كبي، وزير الاتصالات اللبناني، على الكتاب وأغلفة الملفات.

٣. كذلك الأمر بشأن الصاروخ الذي أُطلق على منزل وديع حداد في الملا (منطقة الصنايع).

٤. اكتشاف أجهزة لاقطة في إحدى شقق العمل التي كان وديع حداد يستخدمها. كان اللاقط مزروعاً وراء لوحة في قاعة الطعام حيث يعمل وديع (كان يستخدم طاولة الطعام مكتباً).

كان لأبو أحمد يونس علاقة بسفارات أوروبية منها الألمانية، وغنيٌّ عن القول أن أي معلومات تصل إلى مسؤولي استخبارات هذه الدول سيتلقاها الموساد، بسبب العلاقات والاتفاقات التي تربطهم. كما ذكرنا، كان وديع حداد قرر تجنب العمل في الولايات المتحدة أو عبرها، وعدم التعرض بعمليات لها. والسبب عدم رغبته في توسيع معسكر المتنافرين ضد «المجال الخارجي». لكن الأحداث المتوالية أكدت لحداد دون شك أن أبو أحمد يونس الضليع مع جهات أمنية أوروبية كان يتصرف حسبما يريدون ووفق توصية الموساد. فلطالما تصرف أعضاء الموساد مع الدول الغربية على أنهم الخبراء بشؤون الشرق الأوسط، وبالفلسطينيين وبوديع حداد على وجه الخصوص. كان أبو أحمد يونس ينفذ ما يريدونه من دون أن يدري.

انكبّ وديع حداد، عام ١٩٧٤، على التخطيط لعملية ضخمة هدفها احتلال ميناء حيفا، وأخذ رهائن على الأرض، والإفراج عن أسرى الحرب الفلسطينيين. رتّب مجموعة كبيرة من ستة وعشرين مقاتلاً شجاعاً للقيام بهذه العملية الضخمة. تتلخص في صعود متدرج للمقاتلين إلى باخرة سياحية فخمة تجوب موانئ المتوسط، بحيث يستولون على زمامها في قبرص، ويوجّهونها إلى ميناء حيفا، دون الإعلان عن الأمر، ثم يرسون في ميناء حيفا للسيطرة عليه.

أثناء التدريب، طلب أستاذ في اللغة الإنكليزية الالتحاق بالعمل. كان رياضيَّ البنية. وبعد الاستفسار عنه قُبل طلبه. أنهى محمود التدريب تماماً حين وُضعت الخطط لاختطاف السفينة، وأعدّ المقاتلون. قرر وديع حداد ضم محمود إلى الفريق في اللحظة الأخيرة. ما إن رست الباخرة في قبرص، حتى أصرّ محمود على مغادرتها، رافضاً المشاركة في العملية، فاضطر حداد لإلغاء العملية لأن محمود يملك أسرارها: نزوله من الباخرة قد يعني إيصال المعلومات إلى جهات تسلّمها لإسرائيل، ما سيقضي على المقاتلين قبل بلوغهم حيفا. أما تصفية محمود فمستحيلة، لأنها ستثير البلبلة، فتتأخر الرحلة، وتفشل العملية.

أراد وديع حداد أن يحقق مع محمود، الذي لم يحضر، لا بل حاز صفة نائب مسؤول أمن أبو أحمد يونس. فاتّضح لوديع حداد أن يونس البجيرمي وراء الأكَمة.

يبدو أن الموساد الإسرائيلي قرر، عام ١٩٧٦، دفع الأمور خطوات باتجاه فتح النار بين الولايات المتحدة و«المجال الخارجي». فوقعت مأساة السفير فرانسيس مالوي الذي يكثِر التنقلات بين بيروت الغربية والشرقية، في سيارة مصفحة، مطمئناً على حياته في البيروتين. في ١٦ حزيران/ يونيو عام ١٩٧٦، كان مالوي والملحق التجاري الأميركي ينتقلان بسيارة السفير إلى المنطقة الشرقية من بيروت. كانت نوافذ السيارة مغلقة بإحكام، ولدى السائق اللبناني تعليمات صارمة بعدم التوقف أو فتح النافذة. بعد عبور السيارة إلى المنطقة الشرقية التي كانت تحت سيطرة الكتائب اللبنانية المتحالفة مع إسرائيل أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، تنفس الجميع الصعداء، رغم أن بيروت الغربية لم تظهر عداء للسفير الأميركي. باجتياز مئات الأمتار، شاهد السائق أشخاصاً ببذلات الكتائب اللبنانية شاهرين السلاح. أوقفوا السيارة مبتسمين، كأنهم يرحبون بالسفير. وبحركة لا شعورية فتح السائق زجاج نافذته، فعولج بطلقة. فتحت الأبواب، واعتُقل السفير والملحق التجاري، واقتيدا إلى مرآب مهجور للسيارات.

وصلت الأخبار بسرعة البرق. كان أبو أحمد يونس وراء الإختطاف. راحت الأفكار تنهال من كل صوب: ما العمل؟ ماذا نريد من سفير الولايات المتحدة؟

أصرّ وديع حداد على ضرورة المحافظة على حياة السفير والملحق التجاري، مبرّراً ذلك بالقول المنطقي: هذه ثروة سياسية يمكن استخدامها لإفهام الأميركان أننا لسنا إرهابيين، وأننا مقاتلون من أجل الحرية. لكن المهم الحفاظ على أمنهما وحياتهما. إنما الأمر في الميدان كان بيد أبو أحمد يونس، فالمنفذون كانوا يأتمرون بتعليماته. ثم حصل ما أثار الغرابة والريبة والشك.

كان منطقياً الاحتفاظ بهما، فمن مصلحة الجبهة الشعبية وفلسطين ألا يُقتلا أو يجرحا، ومن الممكن ترتيب سيناريو لمصلحة الفلسطينيين.

لكن، خلافاً للمنطق وللمصلحة الوطنية العليا، أمر أبو أحمد يونس بإعدام السفير والملحق ـ نُفذّت العملية. حتماً، كان أمراً مستعجلاً من الجهات التي ارتبط معها بعلاقات، رغم أن رأي الجبهة والمنطق والمصلحة الوطنية كانت نقيض ذلك.

قناعتي أن الموساد كان وراء ذلك لتشويه السمعة، ولابتزاز الولايات المتحدة، وتحريضها على الفلسطينيين، ولمحاصرة وديع حداد.

نُقلت الجثامين إلى سورية، حيث تسلمها صامويل وايمان، (SAMUEL WHYMAN) مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (CIA).

أسوق هذه الحقائق لارتباطها باغتيال وديع حداد. فبعدما عجزت إسرائيل عن قتله، أو شلّه عن العمل، راحت تحرض الدول عليه، فزجّت بأميركا في المعركة، وبكل ما لدى أميركا من علاقات مع دول عربية تتمتع بنفوذ ومال. أرادت إسرائيل إيجاد شركاء من المنطقة للعمل معها على تصفية وديع حداد. ولا شك في أن هذه الدول، أو بعض الأنظمة، كانت ضالعة في ملاحقة وديع حداد، الذي كان يسافر في معظم الحالات دون ضجة، بصحبة إحدى رفيقاته المعروفات جداً للاستخبارات العربية أو لبعضها. كانت إحدى رفيقاته قريبة له من عائلته، وأخرى كانت مناضلة من جنوب لبنان قضت في سجون الغرب سنوات، وأخرى عراقية فلسطينية ـ كن يتبدلن.

لا ريب عندي في أن من دسّ له السم مباشرة هي يد عربية، لكن الجهة التي زوّدت السمّ، ورسمت الخطط مع الاستخبارات الأميركية الضالعة في استخبارات عربية، هي الموساد. لم يدسّ السم لوديع حداد في شوكولا سويسرية كما يدّعي كلاين ـ أتعجب كيف توظف مجلة **التايم** مراسلاً لها في القدس، ينتمي إلى

الموساد، وهي قد طردت مراسلها في بيروت عام ١٩٧٦ لارتباطه بوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

كتب كلاين في مؤلفه أن إسرائيل تمكنت من قتل وديع حداد بدسّ السم له في الشوكولا السويسرية، زاعماً أن حداد يحب الشوكولا. هذه مغالطة، لأنه كطبيب يتجنب الحلويات.

السم المستخدم هو مادة الثاليوم. وضع له في فنجان قهوة حيث كان في حديقة بيت الأستاذ أكرم الحوراني في بغداد، بحضور عدد من قيادات حزب البعث (كان ذلك في أواخر تموز/ يوليو ١٩٧٧).

أبلغني الدكتور وديع أنه عندما جاء النادل يحمل صينية القهوة، لم يضعها على الطاولة بل قدّم لكل ضيف فنجانه. كان وديع يشرب القهوة دون سكر، فتناول فنجانه.

وصف لي حرفياً ما جرى:

بعد أن رشفت من فنجان القهوة رشفة واحدة، أحسست برغبة فورية في التقيؤ. فوضعت الفنجان على الطاولة، وتوجهت مهرولاً نحو المنزل لأتقيأ في الحمام. إلاّ أنني لم أتمكن من الوصول، فتقيأت في الحديقة. أحسست بألم في الحلق وفي اللسان. منذ ذلك اليوم وأنا أتقلب من تعب شديد إلى هدوء، ومن هبوط إلى استرخاء، وفقدت شهيتي على الطعام كلياً.

هكذا بدأت الحالة مع وديع حداد. دُسَّ الثاليوم في القهوة. رشفة واحدة أدخلت الثاليوم إلى جسده. الثاليوم سم لا لون له، ولا رائحة، ولا طعم. يمكن تمريره إلى جسم الإنسان بإضافة بعض منه في الماء ـ أو أي سائل ـ أو في الطعام. وما لم يعالج بما يلزم أثناء الأيام الأربعة الأولى تعذّر إبطال مفعوله. إذ يستمر في

قضم أجزاء الجسم الداخلية، فيدمر الكريات الحمراء، ويقضي على الكلى والكبد والرئتين والدماغ.

الموت محتم بعد مضي خمسة أيام، ما لم يُعطَ المصاب العلاج اللازم ـ مثلما تعرّض له خالد مشعل. فقد أرغم الملك حسين بنيامين نتنياهو المخطِّط لقتل خالد مشعل بحقنة من الثاليوم، على تزويده بمركَّب السم والدواء المضاد في الساعات الأربع والعشرين الأولى، مقابل الإفراج عن ثلاثة ضباط موساد حاولوا تنفيذ العملية في شارع الغاردنز في عمان، عند مدخل مكتب خالد مشعل.

الفصل الثاني عشر

عملية مطار اللد

بحث المعلم وديع حداد مع ممثلي التحالف الدولي في مؤتمر عام ١٩٧٣، العمل المشترك الذي يجسد الأفكار التي تمّ الاتفاق المتَّفق عليها وفق الرؤية الاستراتيجية لمعادلة جديدة في الصراع مع الإمبريالية: مشاركة الفصائل الثورية في الدول الرأسمالية في نضال حركات الشعوب للتحرر، وتوجيه الضربات إلى أنظمتها، وحلفاء أنظمتها، من خلال الانخراط في حركة الشعوب المكافحة لنيل الحرية والاستقلال. كانت قيادة الجيش الأحمر الياباني ممثلة بأميرة الثوريين، مريم (فوساكو شيجانوبو) المفعمة حماساً واندفاعاً. فقد كان انخراط مقاتلين من الجيش الأحمر في حركات التحرر ضد النظام الإمبريالي، مدخلَه إلى أممية النضال.

بحث الدكتور وديع حداد فكرة العملية، فتحمّست مريم معلنة موافقتها على المشاركة، على أن تكون المجموعة الصدامية الانتحارية يابانية بكل أفرادها. وشرحت له سبب طلبها وإصرارها. فمن خلال المشاركة الفاعلة في الهجوم على مطار اللد، كانت مريم تنشد ثلاثة أهداف:

الهدف الأول: الإعلان عن انخراط الجيش الأحمر الياباني في الصراع العالمي

بين القوى الثورية في البلدان الرأسمالية، في إطار حركات التحرر الوطني ضد الأنظمة الرأسمالية والنظام الامبريالي.

الهدف الثاني: إعلام الشعب الفلسطيني بأن قوى الثورة العالمية تسانده قولاً وفعلاً.

الهدف الثالث: مخاطبة الشعب الياباني من خلال المشاركة الفعلية بالعمل الثوري النضالي التحرري، ودعوته إلى الالتحاق بالنضال.

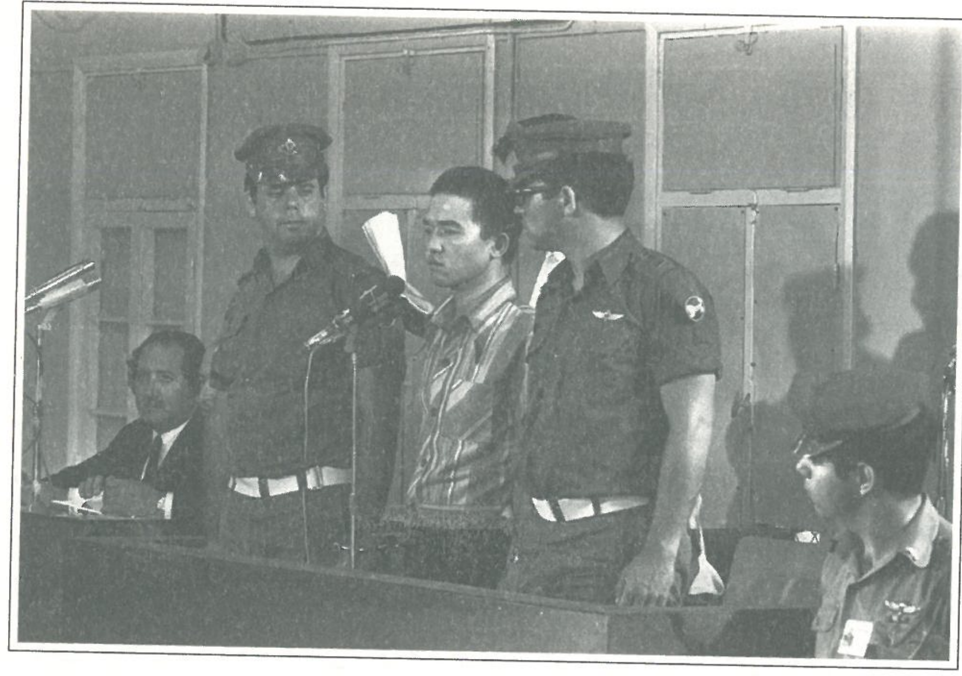
وافق الدكتور وديع حداد بعد نقاش وجيز، ذلك أنه أراد تعميد هذا الخط الثوري بالدم والتضحية، فانكب على العمل.

إستُطلِعت عدة خطوط لاختيار الأفضل، من حيث القدرة على تمرير حقائب الأسلحة والذخائر والقنابل؛ إضافة إلى ساعة الوصول، بحيث تدرس حالة المطار آنذاك، لجهة تغيير مناوبات الأمن والشرطة والجمارك والاستخبارات. كلّفت دائرة الطباعة بالبدء بصناعة جوازات سفر يابانية طبق الأصل.

أما مهمّة دائرة التدريب فهي التحضير لتدريب حيّ على الهدف المنشود (كمجسّم).

بعد دراسة سريعة، تقرر أن يستخدم المقاتلون رشاشاً تشيكياً ذا طلقات خاصة، اختير لأن حجمه يتناسب مع الحقائب: فهو أصغر حجماً من الكلاشنكوف الروسي، ورصاصاته مصنوعة من معدن لمّاع، ليس نحاسياً، تفادياً لأي خلل كـ«الروْكبة». وقد أطلق عليه في القواميس العسكرية اسم (VZT - 58). أصدرت مريم أوامرها لأعضاء الجيش الأحمر:

اختارت فوساكو ثلاثة من اليابانيين الأشداء وسلّمتهم إلى وديع حداد الذي أمر فوراً بإرسالهم إلى مكان تدريب سري في لبنان. كما أرسل معهم رجل احتياط



كوزو أوكاموتو، أثناء المحاكمة

هو كوزو أوكاموتو، الناجي الوحيد من العملية، وقد أعطب الإسرائيليون دماغه أثناء تعذيبه في التحقيق.

المقاتل الأول كان باسم. هو اسمه في الجبهة الشعبية، فيما اسمه الحقيقي تاكيشي أوكادايرا. كان الجميع يظن أن باسم هو زوج مريم، إذ كان يلازمها دائماً. كان أوكادايرا شاباً طويل القامة، وسيماً، مرحاً، محبباً إلى القلب. حاز محبة الجميع واحترامهم.

أما المقاتل الثاني فهو غسان، اسمه الحقيقي هو ياسويوكي.

والثالث هو عدنان ـ اسمه العربي ـ ولن أذكر اسمه الياباني حرصاً عليه، إذ لم يتمكن من المشاركة في اللحظة الأخيرة بسبب الحمى التي أصابته أثناء التدريب.

حلّ مكانه فؤاد، الاسم العربي لِكوزو أوكاموتو الذي بقي حياً، كما أسلفتُ،

وخرج بعملية تبادل الأسرى. حمل أوكاموتو جواز سفر يابانياً من صناعة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. آثرَ أن يطلق عليه اسم DAISUKE NAMBA تيمّناً بمناضل ياباني قديم.

حدِّد حقل التدريب في منطقة من مناطق الهرمل في لبنان ـ عبارة عن مجسَّم المطار، بحيث تكون مواقف الأمن فيه، والشرطة والاستخبارات والجمارك محددة بوضوح. استخدم الفريق آلاف الطلقات للتدريب، فرموا القنابل اليدوية، وأتقنوا إصابة الهدف الثابت والمتحرك، وإصابة الأهداف سواء أكانوا ثابتين أم متحركين. من داخل السيارة إلى خارجها، ومن خارجها إلى داخلها. كان الضابط أشرف رئيس فرقة التدريب (خريج الكلية العسكرية السورية)، يعاونه ضباط ممّن قضوا في الحياة العسكرية العملية فترة أكسبتهم خبرة، بعضهم تخرج من كليات جيش التحرير الفلسطيني، وبعضهم الآخر من دورات في الصين وروسيا وبلغاريا. وتضمّن التدريب اللياقة البدنية والملاكمة والكاراتيه والمصارعة الحرة.

ما إن شارف أيار/ مايو ١٩٧٢ على نهايته، حتى صدرت الأوامر لهم بالتحرك لتلقّي آخر التعليمات. كانت كافة الأمور قد جهزّت لهم: جوازات السفر، التذاكر، المال، والملابس، والحقائب معبأة بالأسلحة والذخائر والقنابل.

واستُعرضت كافة التجهيزات أمامهم، وفي اللحظات الأخيرة طلب منهم الدكتور وديع حداد أن يفكّكوا، ويركبوا، الرشاش وذخيرته وهم معصوبو الأعين، ففعلوا ذلك في وقت قصير قياسي. تمنّى لهم النجاح، مغادراً في سيارة «فولكس فاغن» قديمة.

في ٣١ أيار/ مايو ١٩٧٢، انقضّ المقاتلون الانتحاريون على مطار اللد.

لا أحد يدري ماذا حصل بالضبط. لماذا فتح المقاتلون النيران على تجمع بورتوريكي؟ كان مخططاً أن يبدأ إطلاق النار على الأمن الإسرائيلي حال فتح



أوكوموتو في مطار العاصمة الليبية على أثر موافقة اسرائيل على إطلاقه في إطار تبادل للسجناء

الحقائب. يلي ذلك استهداف موقع الجمارك، فموقع الأمن في الطابق العلوي. لا شك في أن عدداً من الجنود احتموا بالمدنيين فاتخذوهم دروعاً بشرية، ما أوقعهم في مرمى النيران.

استشهد باسم وغسان برصاص الإسرائيليين المتمركزين خلف الدروع البشرية. كان احتماء الجنود الإسرائيليين وراء المدنيين دافعاً لإلقاء القنابل اليدوية لتفادي إطلاق النار على المدنيين. اصطدمت إحدى القنابل بالزجاج الفاصل بين المستقبلين والقادمين وارتدّت نحو القاعة، فانفجرت مسبِّبة خسائر في صفوف الجنود الإسرائيليين، وفي المدنيين. يدلّ إلقاء هذه القنبلة، حتى تلك المسافة، على محاولة الجنود الإسرائيليين اتخاذ الحائط الزجاجي البعيد ملاذاً، والمدنيين من الجهة الأخرى سياجاً ودرعاً.

لا يستطيع كوزو أوكاموتو، الذي ألقي القبض عليه بعد نفاد ذخيرته، إعادة رسم

ما جرى، لأن الإسرائيليين أجروا تجارب على دماغه فأعطبوه. عندما وقفت في استقبال الأسرى المحررين في طرابلس (ليبيا)، نظر إليّ أوكاموتو كما ينظر طفل صغير إلى شيء أضاعه منذ زمن. إقترب مني وعانقني. وإذ جلست، لاذ بحضني، كما الطفل بحضن أمه. كان يرتعد. عاد ينظر إليّ، فابتسمت له. ردّ الابتسامة خجلاً، وأدار وجهه كما الأطفال، ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج منها ولاّعة، كنت قد أهديته إيّاها قبل سفره. تذكّر الولاعة، وربط بين وجهي وبينها. إذاً، فالرجل تذكر أنني من أعطيته الولاعة. ضحكت له وضممته. وبما أن أوكاموتو كان يتصرف كالأطفال، فهو بلّل ثيابه أثناء الاحتفال بوصول الأسرى.

كانت تلك العملية الأولى التي تشارك فيها قوة حليفة، وتبذل الأرواح، مثبتة للعالم إصرار الجيش الأحمر الياباني على الانغماس في العملية النضالية الفعلية ضد الإمبرياليين وحلفائهم، من خلال حركة التحرر الوطني الفلسطيني، وتحديداً من خلال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بقيادة «المعلم» وديع حداد.

فجوازات السفر كانت كاملة، لا يرقى إليها الشك، بما في ذلك الأرقام المتسلسلة. والتأهيل كان فعالاً، كذلك التدريب، واختراق كل أجهزة الأمن كان مدروساً والوصول إلى مطار اللد كان انتصاراً على كافة أجهزة الأمن الغربية والإسرائيلية، أما حجم الإعلام العالمي فكان برّاقاً. بات فيلم «الحرب الثورية بدأت»، الذي أنتجه الجيش الأحمر الياباني وعُرض في أكثر من مكان، حقيقة ملموسة معمَّدة بدم باسم وغسان وتضحيات أوكاموتو (فؤاد).

عُقد اجتماع لتقييم العملية، فكان إيجابياً. وخُتم بتعهد والتزام بمتابعة الحرب الثورية على الإمبريالية، وحلفائها الصهاينة، من خلال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فرع العمليات الخاصة.

الفصل الثالث عشر

حرب عام ١٩٧٢: حرب الإغتيالات والعنف الإرهابي

كان عام ١٩٧٢ حافلاً بالمعارك والتحرّكات - معارك عسكرية وسياسية ودبلوماسية، أرادت من خلالها غولدا مئير أن تثبت للعالم أن ما قالته عن الفلسطينيين صحيح، أي لا يوجد شعب فلسطيني، فلا حقوق لمن لا وجود لهم.

فيما قاتل الفلسطينيون على كل الصّعد، ليس لإثبات وجودهم فحسب، بل للقتال من أجل تحرير بلادهم التي احتلتها إسرائيل؛ وفيما أرادوا التأكيد على أن إسرائيل صنيعة الإمبريالية، وهي قوة معتدية محتلة، ويجب مقاومتها وتحرير الأرض والبشر منها؛ أصدرت غولدا مئير، متشبّثة برأيها، أوامرها للجنرال زامير، مدير الموساد، بتصفية النُّخب الفلسطينية (قادة المقاومة، وقادة الفكر، الأدباء والفنانين والشعراء والصحافيين).

كان قرار غولدا مئير، الذي أطلق عليه لاحقاً مصطلح «لائحة غولدا» (GOLDA'S LIST)، يعني شن حرب متواصلة لا هوادة فيها، لتصفية كل كينونة فلسطينية تاريخية تقدّم دليلاً على وجود الشعب الفلسطيني الخلاّق والمعطاء.

كانت غولدا مئير تشعر بالخطر الداهم الذي تبعثه نهضة الفلسطينيين التي تظلّلهم تحت راية منظمة التحرير الفلسطينية.

أمام ذلك الحشد، تحدّث المندوب الفيتنامي، وتحدثتُ مندوباً عن فلسطين. رفع الرفاق شعارات وصفقوا، مشجعين الحشد على الهتاف: فيتنام وفلسطين نضال واحد من أجل الحرية. لأول مرة يرتبط النضال الفيتنامي بالنضال الفلسطيني على الصعيد الدولي.

امتدّت هذه الموجة لتعمّ أوروبا، فأفقدت إسرائيل أعصابها، حتى جُنّ جنون غولدا مئير التي كانت تعتبر الدول الاسكندنافية معقلاً لها، وملاذاً لاستخباراتها الإرهابية.

شخصياً، بذلتُ نشاطاً محموماً؛ غدت أخبار النضال الفلسطيني على كل شفة.

وخلال تلك الزيارة السريعة التي قمت بها، بعد اختطاف طائرة «اللوفتهانزا» إلى عدن، ولفت انتباه العالم مجدداً إلى القضية الفلسطينية، أرسلني الدكتور وديع حداد إلى الدانمارك للمشاركة في مهرجان ضخم لمناصرة شعب فيتنام.

كان حشداً من مئات الآلاف، بينهم مئات الجنود الأميركيين ممّن تركوا الخدمة، وهربوا إلى الدول الاسكندنافية طلباً للحماية السياسية (اللجوء السياسي).

أجرى عدد من رفاقنا اتصالات باللجنة الدانماركية القيِّمة على المهرجان، وهي هيئة تابعة لـ«لجنة نصرة فيتنام ـ اسكندنافيا». رتّبوا وقوفي على المنصة إلى جانب ممثل فيتنام، العضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفيتنامي. أجريت اتصالات بلجان عديدة: لجان أنصار، ولجان ثورية، ولجان إنسانية، فأجمعوا على تقديم المساعدة.

قبل يوم واحد من مغادرتي كوبنهاغن إلى مالمي في السويد، تحدث إليّ أحد الثوريين الدانماركيين، طارحاً فكرة المشاركة في الكفاح معنا، ليس بصفته فرداً فحسب بل مجموعة. فرحبت به ودعوته إلى بيروت لبحث هذا الأمر معمّقاً، وهكذا كان. توجه وفد منهم إلى بيروت، حيث التقوا القائد وديع حداد. كان التفاهم الاستراتيجي بنّاءً، وتُوِّج بحضورهم مؤتمر التحالف الدولي الذي عقد في شمال لبنان آنذاك.

كان عام ١٩٧٢ حافلاً بكل معنى الكلمة، فلم أشعر إطلاقاً أن لدنيا وقتاً كافياً لإتمام ما خطّطنا له. بين الخاص والعام، تلاشى الخاص، فتحولت الحياة إلى سباق مع ألسنة النار، وإلى اكتشاف متبادل في مجال القدرة على تحمل الآلام. كنت أرى الأمور بوضوح. إذا كان الطريق الذي اخترناه هو طريق التضحية، فأقلّ التضحيات الجسيمة ألماً هو الموت. أما التحمّل، تحمل الألم والعذاب وألسنة اللهب، وانعدام الهواء، والاختناق تحت الماء، فكان الأعلى كلفة. فالموت حق، وحقيقة. كذلك هي الحياة. دربت نفسي منطقياً وعقلياً على تحمل الألم بخلق ألم أفظع. فمتى يتعايش نوعان من الألم (كبير وصغير)، يمَّحق الألم الصغير، ويطغَ الكبير.

كنا في نضالنا نخلق لأنفسنا آلاماً كبيرة، سائرين نحو الحرية المسلوبة منا، نحو بلادنا التي انتزعها الاستعمار والصهاينة منا. جميع الآلام كانت صغيرة مقارنة بألم فقدان الحرية والكرامة والأرض. لا أتحدث شعراً أو زخرفة كلامية، بل أعني ما أقول، لأنني جربت إصابة الألم في أكثر من موقع، ومن موقعة. جهدتُ لتركيز عقلي كي يمرّ البتر وتُنتزع رصاصة أو شظية من جسدي من دون ألم، بتأثير من قدرة عقلي على إقناع جسدي بأن النار يمكن أن تكون برداً وسلاماً إذا ما تحكّم العقل بالأعصاب تحكماً كاملاً. هكذا تتالت أحداث عام ١٩٧٢ فامتزجت الآلام بالأفراح، الألم الكبير امتصّ الألم الصغير. إنصهرت آلام الجراح بأفراح

الانتصارات، فإذا هي الحياة لوحة يطل منها عليك جمال الألم وهو في الغد أكثر إشراقاً. غد حرّ، غد يعطي هذا الشعب الذي كيل له العذاب والألم على مرّ السنين كي لا يمكّنوا عقله من التحكم بالألم، وليحدّوا قدرته على العمل. لكن العقل الفلسطيني حرّ في تحمّل الألم من أجل الأمل، وفي رؤية فجر يوم جديد في جراحه.

في العام ١٩٧٢ حاولت غولدا مئير وحليفها في الموساد، الجنرال زامير، تصفية وديع حداد جسدياً، ليتخلصوا من أعماله غير المسبوقة، التي شلّت لديهم قدرة العقل على التحكم بالألم. وضعت غولدا مئير بتصرّف زامير كل أسلحة الجيش الإسرائيلي. فقصف الطيران الحربي الإسرائيلي في شهر نيسان/ أبريل ١٩٧٢ بيتاً صغيراً في جبل لبنان، كان «المجال» يستخدمه لتدريبات خاصة وحساسة، كالتدريب على صنع المتفجرات، وأقلام التوقيت. ظن زامير أن عملاءه في لبنان قد زوّدوه بمعلومات كافية حول الأوقات التي يستخدم فيها الدكتور وديع ذلك البيت الحجري، وسط بستان من شجر التفاح. أصيب البيت ولم يكن «المعلم» وديع موجوداً.

بدعمٍ وإسنادٍ من عناصر إيرانيين تابعين لِموفاز، المسؤول عن شبكة الإيرانيين الموسادية المنضوية تحت غطاء الاستخبارات الإيرانية (سافاك)، في ظل حكم الشاه، قُصِف منزل وديع حداد في منطقة الملا، (الصنايع)، في رأس بيروت. كان وديع يسكن مع عائلته (زوجته سامية، وابنه هاني والعمة نصرة)، في شقة صغيرة ببناية قديمة، في ذلك الحي المسلم المكتظّ. في تلك الشقة الصغيرة المفروشة بأثاث بسيط جداً، كانت طاولة الطعام هي مكتب وديع «المعلم». لم تكن تجد على هذه الطاولة سوى أوراق بيضاء، وأحياناً دفتر مدرسة وأقلام. شهدت تلك الغرفة اجتماعات غاية في الأهمية، وإصدار أوامر بالغة الخطورة. لماذا كان بيته العائلي أهم غرف اجتماعاته؟ لأن العدو، أولاً، لا يتوقع مطلقاً أن

يجلب وديع حداد الخطر إلى بيته، ولأنه، ثانياً، سيراقب أماكن أخرى بعيداً عن بيته، حيث زوجته وابنه، لعقد اللقاءات وبحث العمليات.

في ذلك اليوم وصلت ليلى خالد، بناءً على موعد مسبق، إلى منزل وديع حداد لبحث الأمور. كانت ليلى آنذاك منشغلة مع الدكتور جورج حجار في تأليف كتابها حول قضية الشعب الفلسطيني. كانت تقضي مع حجار معظم الوقت لإنهاء الكتاب، وعرضه على الرأي العام، مستثمرة الاسم الذي خلقته عمليات وديع حداد كبطل فلسطيني معروف.

لطالما اغتنت مخيلة واندفاع الفلسطينيين بعشق شخصية البطل ـ كما هي الحال لدى الشعوب الأخرى. وإذ يبتعد البطل عن المسرح (أو يُبعد لقرار) ويتولّى الشعب استثمار ما خلقه وديع منه وبه: يكتب عن القضية الفلسطينية، ليستفاد من اسم البطل في نشر الحقيقة حول الشعب الفلسطيني، وما أنزل به من ظلم، وما تعرض له من بطش وتعذيب ومجازر على أيدي الصهاينة، شارحاً للعالم أن الشعب يقاتل من أجل حلّ عادل، وحرية هي قيمة الإنسان الحقيقية، وحقوق سنّتها التجربة والحضارة الإنسانية.

أثناء الاجتماع، كان عميل إيراني يعاونه عدد من العملاء اللبنانيين ينصبون صاروخاً لإطلاقه على بيت المعلم وديع حداد، من شقة استؤجرت خصيصاً لهذه الغاية. من شرفتها، يمكن إصابة شقة وديع حداد. بعد ربع ساعة من بداية اجتماع الدكتور وديع بليلى، هزّ الشقة صاروخ غولدا مئير فأصابها إصابة مباشرة، إلاّ أن وديع وزوجته وليلى ونصرة لم يصابوا، باستثناء الطفل هاني الذي أصيب بجروح، فنقله المعلم بسيارة أجرة إلى مستشفى الجامعة الأميركية، حيث عولج في قسم الطوارئ، وأمر الطبيب بإبقائه في المستشفى تحت الرقابة الطبية حتى اليوم التالي. بعد دقائق دخلتُ غرفة هاني، حيث كان وديع واقفاً قرب سريره، فهمست بغضب: لماذا أنت هنا؟ عليك الخروج فوراً. سوف نهتم بكافة الأمور.

إنه ابني يا بسام. قال وديع.

أجبته فوراً: هذا بالضبط ما تفكر به غولدا مئير.

أجاب: هم لا يعلمون حتى الآن ماذا حصل في بيتي، ويظنون أنني أصبت.

تداولنا الأمر بسرعة. أبقيت مقاتلين للحماية، وأرسلت لاستدعاء أم هاني، كي يخرج المعلم من المستشفى، فيتوجّه إلى «المجال» ـ مكتبه الحقيقي. كان ذلك في جزء مهدّم من مبنى قديم، يملكه أحد الأثرياء الفلسطينيين (أبو غزالة)، في منطقة قريطم (رأس بيروت)، خلف قصر دياب. صدرت التعليمات بالاستنفار، وتغيير أماكن الاجتماعات، وتفادي مواقع التدريب العادية.

لكن الاستنفار الأخطر جاء بتعليمات وديع حداد، يوم شن المقاتلون الانتحاريون عملية مطار اللد في أيار/ مايو من ذلك العام. وفي ذلك العام أيضاً، راج حديث الرئيس أنور السادات عن تحديد موعد معركة تحرير سيناء، بعد أن فقد الأمل في دور الولايات المتحدة لإقناع إسرائيل بتطبيق القرار (٢٤٢).

كان السادات كلما أعلن عن الأمر، عاد واعتذر في الخطاب التالي مبرراً عدم شن معركة التحرير بظروف تتعلق بالطقس أو بالأوضاع السياسية.

وفي ذلك العام، شنت غولدا مئير أوسع حرب إرهابية إجرامية لاغتيال الفلسطينيين من ذوي القيمة الفكرية أو الأدبية أو الإعلامية، أو قادة الكفاح المسلّح.

فحاولت قتل وديع حداد أكثر من مرة، دون أن تفلح، واغتالت وائل زعيتر الكاتب الفلسطيني الفذّ، في أحد شوارع روما. كان داعية سلام وعدالة في إيطاليا. وضع ترجمة أنيقة لكتاب **ألف ليلة وليلة** إلى اللغة الإيطالية.

كما قتلت محمود الهمشري إثر تفخيخ هاتفه. كان محمود من دعاة السلام، يتمتع بصلات واسعة برجال الصحافة والإعلام والسياسة في باريس، من ضمنهم يهود فرنسيون يؤيدون السلام.

لكن الضربة الأقسى سدّدتها غولدا مئير في شهر تموز/ يوليو عام ١٩٧٢. قلنا إن استنفاراً عاماً أعلن في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد عملية مطار اللد. في شهر حزيران/ يونيو لم أتمكن من البقاء ليلة واحدة في مكان واحد.

اتخذ المكتب السياسي قرارات أمنية. إلاّ أن تجربة أعضاء المكتب، العاملين في شؤون المال والسياسة والمجتمع والصحة، لم تكن شبيهة بتجارب من يعملون في العمل العسكري والأمني، ولا في العمليات الخاصة. عمم القائد وديع حداد تحذيراً على المواقع المحتمَل من غولدا مئير توجيه ضرباتها إليها. وأرسل تعليمات خاصة إلى بعض الوجوه البارزة في الجبهة، منها غسان كنفاني، مسؤول إعلام الجبهة، ورئيس تحرير مجلتها المركزية **الهدف**، وأبرز الصحافيين والكتّاب العرب آنذاك.

أما جورج حبش الذي أُدخل مستشفى الجامعة الأميركية متأثراً بنوبة قلبية، فقد غادر بيروت لمتابعة العلاج، وأخذِ قسطٍ من الراحة في العاصمة التشيكوسلوفاكية. إستقرّ فترة في منطقة مياه معدنية، قرب ماريا نسكي لازنه.

في ذلك الوقت، أقمتُ في منطقة الحمراء، بناية الكومودور ـ قرب فندق الكومودور. كنت على علاقة وثيقة بعدد كبير من الأصحاب والصديقات. لم أفكر بالانتقال من شقتي الصغيرة، المؤلفة من غرفة نوم وصالون. وعلى الرغم من إلحاح القائد وديع حداد على انتقالي ولو مؤقتاً، لم أحرّك ساكناً، وكأن الخطر لن يطالني. كنت أشعر بالثقة والاطمئنان، فأنا أتحرك باستمرار، من دون الزروح تحت أي مسؤوليات عائلية. لذلك كنت حراً في المبيت حيثما أريد ـ أحياناً في حديقة عامة، أو في سيارتي.

لكن المعلم كان واثقاً في أن غولدا مئير ستستهدف غسان كنفاني. فهو صيد سهل بالنسبة إليهم: فنان وكاتب وصحافي، لم يحمل مسدّساً طوال حياته، ولم يؤذِ نملة. أرسل إليه حداد مندوباً يحمل له مبلغاً من المال لشراء سيارة جديدة، ومبلغاً لاستئجار بيت في منطقة جبلية (لتغيير مكان إقامته).

أوكل غسان كنفاني هذه الأمور إلى من يلمّ بها. فلم يكن من النمط الذي يبحث ويفاوض ويوقّع عقود شراء واستئجار. فكان صديقُنا الحميم، ابن خاله، غسان فاروق غندور هو مساعدُه في هذه الشؤون.

كشفتُ المحاولة الأولى لاغتيالي أثناء انهماك المجموعة التي أرسلها زامير لزرع عبوات ناسفة في سيارتي المركونة في مرآب البناية.

كنتُ قد عدت إلى شقتي عند الثالثة صباحاً. وبينما أنا أدخن سيجارة أمام الشباك العريض المفتوح لتهوئة المكان، إذا بثلاثة رجال يقبلون على سيارتي بعد أن قفزوا من سور الجيران. إنزلق أحدهم تحت محرّك السيارة. فصرخت بهم: ماذا تريدون؟ لم يعيروني انتباهاً. نظروا إليّ دون جواب وتابعوا عملهم.

أعدتُ السؤال بلهجة حادّة: ماذا تريدون أيها الأنذال؟

أدركوا إذّاك أن الأمر ليس فضولاً من رجل ثمِل، فحملوا أغراضهم وتسلقوا سور الجيران، مهرولين باتجاه الشارع.

لحقت بهم حافي القدمين، مرتدياً سروالاً قصيراً وقميصاً قطنياً أبيض، من شارع الكومودور حتى تقاطعه مع شارع السادات. جُرحت قدمي بالزجاج المتناثر. لم أستطع اللحاق بهم، لأنهم ركبوا سيارة كانت تنتظرهم عند التقاطع. أسرعت السيارة بهم بعيداً. في اليوم التالي، أبلغت الأمن الذي فحص السيارة، وطمأنني إلى أنها خالية من المتفجرات. عندما أطلعتُ نائب الأمين العام على الحادثة،

إعتبرها مسؤولُ الأمن ـ أبو أحمد يونس ـ «غير مهمة». وسرعان ما بدأت أفكر جدياً بالطلب إلى الدكتور وديع حداد بتغيير سكني، فسألت الأصدقاء البحث عن شقة للإيجار.

صباح الثامن من تموز/ يوليو ١٩٧٢، اغتالت إسرائيل غسان كنفاني بتفجير سيارته بمجرد أن أدار محركها. كان سيتوجه بصحبة لميس نجم ابنة أخته فايزة، إلى مكتب مجلة **الهدف** حيث اللقاء.

سبق أن اصطحب لميس لتسجيلها في الجامعة الأميركية. كانت قد نجحت بامتياز في الامتحان التوجيهي، حائزة مرتبة من بين العشرة الأوائل في دولة الكويت حيث يعمل والدها ووالدتها.

إنما، للأسف، قُتل غسان، وقُتلت لميس.

في الخامس والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٧٢، أرسل إليّ الإسرائيليون كتاباً محفوراً من الداخل ومحشواً بالمتفجرات. ساهم عملاؤهم في وزارة الاتصالات اللبنانية، وقسم الطرود في البريد، في تمرير هذا الكتاب، مع تعهد الوزير بأنه خالٍ من المتفجرات، وأنه دُقّق من قِبل خبراء الوزارة. تسلّمت الكتاب في مغلف كبير ملصق، ممهوراً بخاتم الوزير جميل كبي، الذي يتعهد فيه بأنه دُقِّق، وبأنه خالٍ من المتفجرات ـ بعد أن رفضت الحكومة اللبنانية طلبَنا باستيراد آلة لفحص البريد من المتفجرات. نُقلت إلى المستشفى حيث أمضيت عدة شهور. صحيح أنني بقيت حياً، لكنني كنت مثخناً بجراح لا تندمل، كفقدان عين ومعظم حاسة السمع. عام ١٩٧٢، عدتُ أزاول العمل تدريجياً: مسؤولية إعلام الجبهة الشعبية، ورئاسة تحرير مجلة **الهدف**.

لم ينصرم العام ١٩٧٢ دون المزيد من الحركة والتحرك. لا بد من وصف دور القائد وديع حداد في حرب تشرين الأول/ أكتوبر، ابتداء من ١٩٧٢، وشرح

علاقة القائد وديع حداد بالاتحاد السوفياتي. فالعلاقة بالقاهرة وموسكو مهمة جداً في تبيان نجاح وديع حداد، مؤسس التحالف الدولي الثوري لمواجهة الإمبريالية من خلال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وحركات التحرر العالمية.

ناهيك عن النظرية الثورية الجديدة التي أضافها المعلم وديع حداد إلى القاموس الثوري، نظرياً وعملياً.

الفصل الرابع عشر

وديع حداد وعلاقته بالقاهرة

قلّة مَن يعرفون بوجود علاقة بين القاهرة والقائد وديع حداد، ومَن يعلمون بالعلاقة بين وديع حداد وموسكو.

لم تكن علاقة الدكتور وديع حداد بالقاهرة معروفة إلاّ لأفراد مقرّبين جداً منه. أما في ما يتصل بالعلاقة مع موسكو فهي معروفة لإطار ضيّق في التنظيم الخارجي «المجال». هي علاقة مميزة. وأستطيع القول بثقة، وعن معرفة أكيدة، إن ما نشره فاسيلي ميتروخين - ضابط الاستخبارات السوفياتية السابق KGB - حول وديع حداد غير صحيح إطلاقاً. وسأذكر الحقائق الكاملة إظهاراً لافتراء هذا المدعي، وكشفاً عن علاقة سرّية حميمة بين وديع «المعلم» والاتحاد السوفياتي.

سبقتِ الإشارة إلى أن الرئيس أنور السادات وعد بشنّ حرب تحريرية أكثر من مرة، بينها على الأقل ثلاث مرات في خطابات علنية. لكنه لم يفعل. كان قد أمر بإجلاء الخبراء السوفيات من الجيش المصري للإيحاء بأنه قد اتخذ قراراً مصرياً، وبأنه لن يسمح بضغوط سوفياتية، أو تأثير سوفياتي، على مسار الحرب (أو إعلانها).

في الذكرى الخامسة لحرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، واحتلال سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان، أبلغتني السكرتيرة في مجلة **الهدف** أن الملحق الصحافي المصري اتصل طالباً تحديد موعد لمقابلتي. فوجئت بالطلب، فمن المعروف أن **الهدف** تنتقد السادات انتقادات حادة، وأن الجبهة الشعبية لا تقيم علاقات مع مصر. رغم ذلك حدد له الموعد. ما أثار شكوكي مديحه للمجلة، فسألته عن الهدف الحقيقي من زيارته باختصار.

فأجاب: هل يمكن أن نتحدث خارج الغرفة لأنها ملغمة. أشار بيده ليفسر مقصده: إنها تحتوي أجهزة تنصت. سرت أمامه نحو الدرج إلى الطابق الأرضي. سألته: هات ما عندك.

أجاب: نحن نعدّ لحرب، ونحتاج إلى مساعدتكم. أجبته مشيراً إلى ذاتي، في ما لو أنه يعني الجبهة الشعبية.

قال: نعم الجبهة!

في طريقنا نحو الشارع العام، طلبت مزيداً من التوضيح.

قال: الإخوان في مصر يودّون لقاء الدكتور وديع حداد.

نظرت إليه ملياً وأجبت: سوف أسأل.

تواعدنا على لقاء في الشارع نفسه، اليوم التالي. أسرعت لأخبر أبو هاني بما طلبه المصريون. أجابني: كنت أتوقع هذا. أبلغْهم موافقتي وحدِّد الموعد، والحضور. قل إنك ستنقل الاسم، واقتراح الموعد إليّ لإبداء ملاحظاتي.

عُقد اللقاء في بيروت، ما بين ٢٠ و٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٧٢، بحضور أعلى مستوى أمني مصري.

يمكن إيجاز مقرّرات اللقاء بالتالي:

١. قرار مصر هو الحرب، نظراً إلى فشل كافة الأجواء السياسية والدبلوماسية. تبيّن للرئيس أنور السادات، أنه مهما كانت مرونة الطرف العربي، فالإدارة الأميركية (الرئيس الأميركي) لا تستطيع الضغط (أو حتى الطلب) من إسرائيل القبول بالحل السياسي المتمثل بالقرار (٢٤٢). أيقن الرئيس السادات أن الرئيس والإدارة الأميركية لن يتحركا إلاّ لإنقاذ إسرائيل، أو نجدتها، أو السعي إلى وقف إطلاق نار لمصلحتها.

٢. تخطط مصر جدّياً على كل الصُعد: عسكرية، بحرية، جوية، آلية، مشاة، وأمنية واستخباراتية.

٣. ستخوض مصر الحرب وحدها، لكنها تطلب التحرك ممّن تعي صدقهم القومي، كل حسب إمكاناته.

٤. أما من الدكتور وديع حداد، فتطلب مصر مساهمة إضافية في المعركة، بما لا يتنافى مع طلبها من منظمة التحرير الفلسطينية، ولا يشكل بديلاً بل إضافة نوعية فائقة الأهمية.

حدّد المسؤول المصري الرفيع أن مصر تتوقع من وديع حداد تشتيت انتباه إسرائيل عن المعركة المقبلة ـ أي أن يشغل استخباراتها وأمنها عن المعركة الحاسمة.

وقال المسؤول المصري بالحرف الواحد: الإسرائيليون أيقنوا بعد الإعلانات المتتابعة عن شن الحرب وعدم شنّها، أن كلام السادات هو للاستهلاك المحلي والعربي، ومحاولة لامتصاص الغضب الشعبي، وأنه لا ينوي، ولن يجرؤ على اللعب بالنار، لذلك فإسرائيل هي الآن صيد سهل لعمليات وتحركات وديع حداد.

وبما أن غولدا مئير قد أعلنت الحرب على القيادة الفلسطينية ووديع حداد وعملياته، فإنها ستُجر إلى أي تحرك، وهمياً كان أو حقيقياً. المطلوب من القائد

وديع حداد القيام بعمليات تربك إسرائيل وتشتّت اهتمامها عن قناة السويس وجبهة القتال المقبلة. المهم التحرك لدفعهم بعيداً، وليس المهم تسجيل أهداف.

إختُتم اللقاء، وقبل خروج الزائر الكبير، قال للدكتور وديع: نحن على استعداد للمساعدة في أي مضمار نستطيع تقديمه، حتى الضفادع البشرية. إننا مستعدّون لتدريبها وتجهيزها. ونظر إلى الدكتور وديع نظرة ذات مغزى. تصافحا واتفقا على طريقة للاتصال.

منذ ذلك التاريخ توالت تحركات وديع حداد خدمة للقضايا القومية والوطنية، ومساعدةً لمصر، إن كان صحيحاً ما قيل له عن المعركة.

تأخر غسان كنفاني في الانتقال إلى شقته التي استؤجِرت له في الجبل، كما تأخر في شراء السيارة الجديدة.

ليلة الثامن من تموز/ يوليو ١٩٧٢، حاولت أن أثني غسان عن الذهاب إلى منزله في مار تقلا (الحازمية)، ودعوته إلى قضاء الليلة معنا في أحد مراقص بيروت الجميلة، «بلو آب». فقال إن عليه التوجه إلى البيت لأن أخته فايزة ـ صاحبة المنزل الذي يسكنه غسان وعائلته ـ وصلت مع ابنتها لميس من الكويت. كان قد أبلغني أنها نجحت في الامتحان التوجيهي وأنها من الأوائل في الكويت، معتمِداً عليّ لاصطحابها إلى الجامعة وتسجيلها وتعريفها إلى أصدقائي المسؤولين هناك. اتّفقنا على اللقاء عند العاشرة في مكتب **الهدف**، التي كان يرأس تحريرها.

نزل غسان ولميس الدرج نحو المرآب حيث ركب سيارته القديمة. وقفت زوجته آني وأخته فايزة على شرفة الشقة لوداعهما. اختفى غسان ولميس تحت البناية وتواريا عن ناظريْ فايزة. لحظات مضت قبل أن يصم آذان فايزة وآني صوت انفجار هائل، فيتحطّم زجاج البناية والبنايات المحيطة، وتتطاير قطع حديدية في

كل اتجاه، وترتفع ألسنة الدخان الأسود من المرآب. لطمت فايزة وجهها صارخة: غسان! كانت تحبه حباً جماً، كانت بمنزلة والدته ـ هي لم تذكر ابنتها لميس في صراخها. وانهارت على بلاط الشرفة.

راحت آني تهذي وترتجف، ويداها ممتدتان إلى الأمام، كأنها تحاول إنقاذ غريق أو مصاب من حريق. في بادئ الأمر، لم يقترب أحد من المكان، إذ أصاب الذعر قلوب سكان الحي. وفيما راح البعض يقترب بوجل، وصلت سيارة الأمن العام، وتوقفت بعيداً عن مكان الانفجار. استخدم رجل الأمن جهاز اللاسلكي الداخلي ليطلب المساعدة. في ربع ساعة، كان الشارع يمتلئ بسيارات الأمن والإسعاف وكان بعض الجيران قد اقتربوا، ليشهدوا غسان ولميس وقد مزقهما الانفجار إرباً. اندفع رجال الجبهة الشعبية شاهرين أسلحتهم نحو السيارة المشتعلة، وبدأوا بإخراج أشلاء الشهيدين منها. لم يتبقّ في السيارة إلا رأس غسان والجزء الأعلى من صدره، أما يداه فتطايرتا. وارتسمت على وجهه ابتسامة؛ ربما كانت آخر تعبير قبل أن يدير المحرك وتنفجر السيارة؛ ربما كان يتحدث إلى لميس ويبتسم متفائلاً بمستقبلها وبالحياة. لميس هُشِّمت إرباً هي أيضاً.

طلب رجال الجبهة من رجال الإسعاف والأمن البحث عن الأجزاء المتناثرة من جسدي الشهيدين. صرخت آني من الشرفة تسأل عن خاتم الزواج في إصبع غسان. تمسّكت بالخاتم كأنه خشبة الخلاص أو الإنقاذ التي ستعيدُ إليها غسان! جُمعت أشلاء الشهيدين في صندوقين، وعُثر على أحد أصابع غسان معلّقاً على شجرة زيتون، في حقل يبعد مئتي متر من المرآب. أعطي الخاتم إلى آني.

لم ألتقِ بغسان حسب الموعد. وبعد سبعة عشر يوماً تفجّر كتاب بين يدي في مكتبي، لكنني لم ألقَ حتفي لقد نجوتُ.

إعتبر الدكتور وديع حداد هاتين العمليتين ضربة مؤلمة موجهة إليه شخصياً، وإلى

«المجال» والجبهة الشعبية عموماً. فأمر بشد الأحزمة، وراح يتحرك في كل اتجاه لتوجيه ضربات إلى إسرائيل ومصالحها.

لا شك في أن هذا التحرك وهذه المعارك التي خاضها «المجال» ضدّ إسرائيل في تلك الفترة بالذات، قد خدمت المصريين خدمة عظيمة من حيث توجيه ضربات مفاجئة كان الإسرائيليون لا يتوقعونها. كانوا منغمسين، لاهثين وراء وديع حداد المنشغل بتطبيق شعار «وراء العدو في كل مكان».

كانت ضربة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، وعبور قناة السويس، الأكثر إيلاماً بالنسبة إلى الإسرائيليين، وإلى خط بارليف الذي تهاوى في مياه قناة السويس. إن فضيحة الاستخبارات الإسرائيلية تخطّت المعقول. إذ أكدت تقاريرها المرسلة إلى القيادة الإسرائيلية ليلة العبور على أن كل شيء هادئ فيمكن للأعياد أن تمر بسلام، وأن المصريين لا ينوون الإقدام على شيء. وإذا بالجنود المصريين الأبطال يقتحمون غرف نوم الجنود الإسرائيليين، ويدمرون دباباتهم قبل أن يفتحوا أعينهم، ويصحوا من احتفالات الأعياد.

ونمت العلاقة السرّية بين أجهزة القاهرة ووديع حداد نمواً مطّرداً.

الفصل الخامس عشر

التحالف بين أندروبوف ووديع حداد

لعلّ الأخبار المتفرقة التي نشرت حول علاقة وديع حداد بموسكو لامست الموضوع، إنما لم تقدّم الحقيقة. لا تزال الحقيقة طيّ الكتمان حتى الآن.

هي المرة الأولى التي تُنشر فيها حقائق تلك العلاقة بين وديع حداد وموسكو.

كان السوفيات على علم بما تخطط له القاهرة. فعندما أمر السادات بإجلاء كل الخبراء السوفيات، وتسلّم الضباط المصريين الأسلحة والمعدات الصاروخية والإلكترونية، لاذ السوفيات بالصمت.

لم تتوتر الأجواء. ورغم محاولة الرئيس السادات استغلال خطواته المعلنة في الأوساط الغربية، لم يُبدِ القادة السوفيات أي ردود فعل، بل واصلوا مراقبة الوضع في الشرق الأوسط. وسط هذه الظروف، لم تكفّ غولدا مئير عن حربها المعلنة ضد الفلسطينيين، وضد كل ما هو فلسطيني.

فكان عام ١٩٧٢ يغلي بالمعارك، وبمشاعر الألم والحزن والفرح. لكن الأمر المؤكد هو أن حرب غولدا مئير ضد الفلسطينيين شغلت إسرائيل وأجهزتها إلى أبعد الحدود، لدرجة انعدم معها أي اهتمام بأمور أخرى، من بينها التحركات

المصرية السرّية، والحرب الإعلامية السياسية العلنية. فقد تركت الحبل للرئيس السادات، على التهديد والوعيد، متيقّنة تماماً من عدم إقدامه على أي خطوة عملية. ليس هذا فحسب، بل تمكن السادات من خلق الانطباع ذاته في واشنطن، بحيث استبعد البنتاغون أي تحرك عسكري مصري. باتت الابتسامة مألوفة في أعلى هيئات البنتاغون، عندما تصلهم برقيات من الشرق الأوسط حول تهديد أنور السادات ووعيده. هم أيضاً أنشدوا لحرب غولدا مئير، ولردود فعل الفلسطينيين عليها، لجهة تمكنهم من أخذ زمام المبادرة في حال توجيه ضربات مؤلمة إلى إسرائيل وحلفائها الغربيين.

ما لَفَت انتباهَ حَمَلةِ النجوم في البنتاغون أن وديع حداد «المعلم» والعقل المخطط للإرهاب ـ كما كان يحلو لهم تسميته ـ لم يمس الولايات المتحدة، ولم يستخدم أراضيها، كأنه يريد أن يبقيها على الحياد.

تركّز اهتمام إسرائيل الكلي على ملاحقة الثورة الفلسطينية وقيادتها، خاصة بعد عملية ميونيخ، التي رفض وديع حداد المشاركة فيها عام ١٩٧٢.

أرسل وديع حداد سالم الفنزويلي إلى لندن لتنفيذ عملية، رداً على اغتيال غسان كنفاني وحملة غولدا مئير. كانت مهمته إعدام لورد سيف، أحد أكبر مناصري إسرائيل، الذي كان يتبرع لإسرائيل بأرباح سلسلة محلاته الفخمة (ماركس أند سبنسر) كل يوم سبت، ما زوّد إسرائيل بأموال طائلة تستخدمها في قتل الفلسطينيين، أي دعم الإرهاب الحقيقي ضد شعب بأكمله، وحماية ما سرقه من أرض، والدفاع عن قتلة قاموا بمذابح في دير ياسين، كفر قاسم، السموع، الخليل ـ هذا هو إرهاب الإسرائيليين. أما نضال وديع حداد فكان دفاعاً عن النفس في وجه الإرهاب المتمثل في إسرائيل. إرهاب دولة خلقها الغرب وسلّحها، لتقتل وترتكب جرائم جماعية بحقّ شعب أعزل. لم يكن الغرب يشير بأي إصبع اتهام إلى إسرائيل، بل يعطل قرارات إدانتها في مجلس الأمن، دومًا.

قتل شعب كامل ليس جريمة، ولا إرهاباً ـ هذا هو التعريف الامبريالي. أما دفاع الشعب عن نفسه، وقتل جندي معتدٍ أو مستعمر مسلح انتزع بيتاً من أصحابه، وسرق أرضاً من مالكيها، فهذا إرهاب يضج له الغرب.

جميع ضباط إسرائيل مجرمون ضد الإنسانية، حسب تعريف اتفاق جنيف، ومعاهدة جنيف، ولجنة حقوق الإنسان؛ مع ذلك، ليس ثمة في الغرب مسؤول يجرؤ على قول هذه الحقيقة، بل يدافع عن إرهاب إسرائيل غير المسبوق، متهماً الضحايا بأنهم صرخوا من الألم.

وإذا أراد العالم، ومسؤولو الأنظمة المضطهِدة للشعوب المستعمَرة معرفة سبب كره هذه الشعوب لهم، فليسألوا أنفسهم عن مصدّر الإرهاب الدموي. أهي جيوشهم التي احتلت الهند، وفيتنام، والصين، والجزائر، ومصر، وفلسطين، والعراق، وسوريا، والأردن، والخليج العربي، والسودان، ودول أفريقيا، وغيرها؟ أم هي شعوب تلك البلدان التي كانت تدافع عن نفسها، وعن حقها في الحياة، وفي ثروات بلادها المنهوبة، وأسواقها التي يتحكمون بها؟ لنتذكر حرب الأفيون في الصين، وحرب ضريبة الشاي في أميركا (حفلة شاي بوسطن).

فإما أن يسود العالم مقياس واحد يحكم الجميع، أو لا مجال لحلّ هذا التناقض المصيري إلاّ بفيضان بحر من الدماء. إن قتل طفل جريمة لا تغتفر، فكيف يغفر الغرب، ويسكت، ويؤيد حرب إسرائيل لقتل كل أطفال فلسطين؟ إن لم تصدقوا، أحلتُكم إلى صحيفة **يديعوت أحرونوت** الإسرائيلية، التي نشرت مقابلة مع قناص إسرائيلي شرح للصحيفة كيف كان يتلذذ بقتل الأطفال، وكان الجنود الاسرائيليون يراهنون على من يقتل الطفل في غزة أسرع من الآخرين. ثم اسألوا الصحافة الإسرائيلية عن ضابط الحاجز الذي يفصل القدس عن قرية حزما. كان يغتصب الفتيات الفلسطينيات المتوجهات إلى العمل من أجل لقمة العيش. عاشت النساء رعباً من بطش هذا الضابط لعائلاتهم، فسكتن، إلى أن تشجعت امرأة،

فأبلغت أهل البلد الذين رفعوا شكوى. نُصِب للضابط كمين، واعتُقل وهو يمزق ثياب امرأة فلسطينية بنيّة اغتصابها.

هذا ما زرعه الاستعمار في بلادنا. عندما يدافع أحد عن نفسه وأرضه وبيته وأطفاله، يصرخون في وجهه: أنت إرهابي. ألا يكفي ما شهده العالم من جرائم تُرتكب ضد قافلة الحرية، التي شكّلها ناشطون من أنحاء العالم، لتزويد أطفال غزة المحاصرين بالغذاء والدواء؟ هل سبق أن شاهد إنسان مثل هذه الجريمة وسكت عليها؟

ماذا يجري في العالم؟ الولايات المتحدة ترفض إدانة هذا الإرهاب، وهي في الواقع لا تسميه إرهاباً، بل تتوقع من المجرم أن يحقق في جريمته مع نفسه. إنه المضحك المبكي.

نذكر أيضاً الوعد الذي أطلقه اللورد بلفور البريطاني في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩١٧. فمقابل حفنة من المال دفعها روتشيلد وسواه، للحكومة البريطانية، وَعَدَ بلفور (مَن لا يملك فلسطين) اليهودَ بإعطائهم دولة على تلك الأرض الطيّبة التاريخيّة، التي اسمها فلسطين.

ظلّ وديع حداد، حتى وفاته، يتذكر تفاصيل تلك السياسة الاستعمارية التي تواصلت حتى بعد وفاته. بما أنه الطرف الضعيف في الصراع، رسم استراتيجية وتكتيكاً لضرب العدو القوي، المدعوم بترسانة الغرب، في نقاط ضعفه، رافعاً شعار «وراء العدو في كل مكان» ليشتت قواه، ويصل النضال التحرري الوطني بنضال الفصائل الثورية في المجتمعات الرأسمالية، كي تؤدي دورها الأممي بما يخدم أهدافها في ضرب أنظمتها المستغلة لها ولشعوب العالم الثالث.

قبل حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، التي عبر فيها الجيش المصري قناة السويس إلى ضفتها الثانية، وطهّر كافة المواقع، واندفع يحرّر سيناء، طلب

كولونيل نوسكوف (مسؤول الاستخبارات السوفياتية في المشرق العربي)، مقابلة الدكتور حداد لأمر مهمّ وعاجل. أُجريت الاتصالات اللازمة، فاهتم القائد وديع حداد بالأمر اهتماماً بالغاً. رُتّب الموعد مع نوسكوف.

كان الاجتماع وجيزاً، أبلغ فيه نوسكوف وديع حداد أن الرفيق أندروبوف يرغب في لقائه في موسكو. رحّب وديع حداد، على أن يتم ترتيب ذلك في وقت لاحق. كانت رحلته إلى موسكو تحت غطاء إجازة عائلية. فتقرر أن يسافر الدكتور وديع برفقة زوجته سامية وابنه هاني الذي كان في العاشرة من عمره. أُحسنت وفادتهم، فنقلتهم عدة سيارات من المطار. في الجناح الذي حجز له في فندق لا يؤمه الأجانب، خُيّر وديع حداد بين الفندق، وفيلا على تلال لينين. أجاب أن العائلة ستتجول لتشاهد موسكو، بينما هو يفضل مباشرة العمل.

كان اللقاء الأول بين أندروبوف والقائد وديع حداد في شقة صغيرة، هادئة، لا أحد فيها سوى امرأة مسنّة أنيقة ببساطتها، تحاول بصمت واحترام تلبية طلبات الضيفين الكبيرين. إقتصرت الجلسة الأولى على التعارف، فكان أندروبوف يبتسم طوال الوقت ابتهاجاً بلقاء وديع حداد. أما وديع حداد فشعر بالفخر لنجاحه في بدء علاقة ستكون مفيدة للعمل. توقع وديع أن يطرح أندروبوف معه وقف عملياته الصدامية، كخطف الطائرات، إلاّ أن الأخير لم يشر إطلاقاً إلى هذا الموضوع.

في اللقاء الثاني تحدث وديع عن طبيعة الصراع، وطبيعة العدو، وعلاقته بالغرب، وتزويد الغرب إياه بالسلاح والذخيرة. واختصر له ما خلفته إسرائيل من جرائم ضد شعبنا مشدّداً على ضرورة التصدي والمواجهة. كان أندروبوف طوال الوقت يهز رأسه موافقاً، وموضحاً موقفه المؤيد لحقوق الشعب الفلسطيني، وحقه في الدفاع عن نفسه؛ من دون التعليق على إستراتيجية وديع حداد. لكنه قال: «لا بد من أن يشعر المعتدي بألم العدوان». كما حذّر أندروبوف وديع حداد من المتطرفين المزايدين في صفوف الفلسطينيين: «من تجربتنا الطويلة في الأحزاب

الشيوعية وحركات التحرر، حيثما يبرز «سوبر يسار» لا بد من وضع علامة سؤال عمّن رفع تلك الشعارات «السوبر يسارية». ثبت لنا أنهم كانوا في أغلب الحالات مرتبطين بجهات معادية».

صيف عام ١٩٧٣ حَمِي الوطيس بين الفلسطينيين والإسرائيليين. فبقرار من غولدا مئير اغتالت إسرائيل غسان كنفاني عام ١٩٧٢؛ وفي نيسان/ أبريل ١٩٧٣ اغتالت القادة الثلاثة، كمال ناصر وكمال عدوان وأبو يوسف النجار، في عملية شارك فيها عملاء مدسوسون في لبنان تسللوا من البحر، مدعومين بأعداد من العملاء على البر، إلى شارع فردان في بيروت. هاجموا مساكن القادة الثلاثة، واغتالوهم بالرصاص. كذلك، اقتحمت قوات خاصة المنطقة محاوِلة الوصول إلى المكتب (١٧)، مقر الرئيس ياسر عرفات. استنفرت كل القوى. إتّصل ضباط الـ «كي. جي. بي.» لتسليم رسالة إلى وديع حداد. اتُّفِق على أن يسلّم مندوبوهم في عدن تلك الرسالة، وهي دعوة موجّهة إلى حداد لزيارة موسكو ولقاء أندروبوف.

وبالفعل حُدّد الموعد فرتب وديع حداد سفره على شكل زيارة عائلية سياحية إلى موسكو.

الفصل السادس عشر

شخصيات البطل التي خلقها وديع حداد

وديع حداد والحركة الساندنستية (نيكاراغوا) ـ باتريك أرغويللو

استشهد باتريك أرغويللو برصاص رجال الأمن الإسرائيلي، على متن طائرة «العال» بعد محاولة باتريك وليلى خالد خطفها عام ١٩٧٠. هي من جملة الطائرات التي خُطّط لخطفها إلى «مطار الثورة» في صحراء منطقة الزرقاء في الأردن. قام الطيار الإسرائيلي بعملية «غطس» جوية سريعة، ما أفقد الطائرة توازنها فتناقصت نسبة الأوكسجين، وارتفع الضغط.

فيما الطاقم يضع كمامات، فقد باتريك أرغويللو توازنه، فسهُل على الأمن الإسرائيلي إصابته قتلاً بالرصاص، وتمكّن الطاقم والركاب من القبض على ليلى خالد قبل أن تحاول سحبَ صاعق قنبلة كانت بحوزتها.

كان وديع حداد يصرّ على التعليمات بعدم قتل أو جرح المدنيين، ساعياً دوماً إلى التلويح بالقوة للإفراج عن آلاف المعتقلين الذين يسامون العذاب في سجون إسرائيل، دون الاضطرار إلى استخدامها. لم تعنِ هذه السياسة عدم استخدام القوة عند الضرورة لإنجاح العملية، مثلما حصل أثناء عملية «الأوبك». فبعد أن

سيطر الفريق على قاعة الاجتماعات، واعتقل وزراء نفط «الأوبك»، حاول أحد حراس الوزير العراقي تايه عبد الكريم إطلاق النار، فما كان من المقاتلة الألمانية إلاّ أن أردته على الفور بطلقة واحدة من مسدسها.

إستشهد باتريك أرغويللو على طائرة «العال» عام ١٩٧٠، واعتُقِلت ليلى خالد. إعتُبر باتريك شهيد الثورة الفلسطينية، وأقيم له نصب تذكاري في بلده نيكاراغوا؛ ولا تزال علاقة وثيقة تربط عائلته بالجبهة الشعبية.

من هو باتريك أرغويللو؟ وكيف انضمّ إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

هو مناضل نيكاراغويّ الأصل، أميركي الجنسية تخرّج طبيباً من الولايات المتحدة الأميركية. ولد في الولايات المتحدة في آذار/ مارس ١٩٤٣ لوالد نيكاراغويّ وأم أميركية. انتقلت العائلة إلى نيكاراغوا، واستقرت في مدينة مومونومبو. كان باتريك في سن الثالثة. لكنهم كانوا يتنقلون بين مدينة لاباز في وسط البلاد وماناغوا، العاصمة. في تلك الآونة بلغت الحركة الثورية النيكاراغوية ذروتها نضالاً ضد الدكتاتور سوموزا، إلى أن تمكّن الثوار من نصب كمين له، فاغتالوه عام ١٩٦٥. لكن نجليْه لويس وأنستازيو شنّا حملة بطش وإرهاب وقتل جماعي على جميع أنحاء نيكاراغوا، لتصفية الحركات الثورية المسؤولة عن اغتيال سوموزا. نتج من حملات البطش والانتقام نزوح واسع النطاق لمواطني نيكاراغوا، خشية انتقام لويس وأنستازيو.

فغادرت عائلة أرغويللو إلى لوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأميركية، وباتريك في الثالثة عشرة من العمر. وقد انطبعت في ذاكرته مشاهد الفظائع التي ارتكبها إبنا سوموزا ضد النيكاراغويين. بعد الاستقرار في لوس أنجلوس، التحق باتريك بكلية بِلْمونت العليا. في نشأته، تعمّق باتريك في قضايا الحرية وحقوق الإنسان، بعدما شاهد بأم العين طلاباً يُعذبون ويُجرحون ويُقتلون. ظلّت هذه الصورة تعصف بمخيلته مع الأخبار الواردة عن اشتداد البطش السوموزي في بلده

نيكاراغوا. وأُسوةً بالشباب في الحركة الطلابية الثورية، زخر عقله بالرغبة في مقاومة البطش، وفي النضال من أجل الحرية والقيم الإنسانية. أضف إلى ذلك أن الثورة الكوبية وانتصارها برْعمت أحلاماً جميلة في أذهان الشباب التوّاق إلى الحرية وكرامة الإنسان. كانت دول أميركا اللاتينية مزارع لرأس المال الأميركي، فتحولت إلى مناطق مغلقة للأميركيين، بفضل أنظمة كنظام سوموزا، تدعمها الولايات المتحدة لمصلحة الطبقة الغنية الحاكمة.

في أوائل السبعينيات افتتنت جميع الأجيال الشابة بشجاعة الثوار الكوبيين، وراقبوا عن كثب تعارض وجهتَي نظر فيدل كاسترو، وتشه غيفارا. إنحاز أغلبية اللاتينيين إلى أفكار تشه غيفارا التي كانت تنقلهم، ولو نظرياً، من صفوف المتفرجين والمعجبين بالثورة الكوبية إلى مواقع المهاجمين والمدافعين: إلى ساحة المعركة لمواجهة الأنظمة الدكتاتورية في بلادهم، أنظمة مزارع الموز والمارهوانا، لحساب أثرياء الولايات المتحدة.

إثر تخرجه من جامعة لوس أنجلوس، حصل باتريك على منحة من صندوق فولبرايت لدراسة الطب في تشيلي، عام ١٩٦٧، في الوقت الذي بلغت الحملة ذروتها ضد الطغاة في تشيلي، تحضيراً للانتخابات التي خاضها القائد الاشتراكي، ألاندي. تأثر باتريك أرغويللو بأحداث عام ١٩٦٧ في تشيلي، فهو إنسان رقيق وحضاري ـ هكذا أنشأه والداه. وكان يرغب بتغيير هذا العالم حيث تلتهم الحيتان الكبيرة السمك الصغير.

أطلق الاشتراكيون التشيليون حملة داعمة لسلفادور ألاندي، وعانوا الأمرّين على أيدي الطغاة. أمّا في نيكاراغوا، فتضاعف إجرام آل سوموزا ضد الساندنستيين. فاغتالت عصابات البطش تشه غيفارا في بوليفيا، واحتلت إسرائيل ما تبقى من فلسطين وسيناء والجولان. كان العامل المشترك بين هذه الأحداث التي هزّت باتريك، هو الولايات المتحدة الداعمة للطغاة في أميركا اللاتينية، والمتآمرة

لاغتيال غيفارا، والمزوَّدة إسرائيل بكل الدعم لترتكب الفظائع ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية.

في لوس أنجلوس، تعرّف باتريك إلى طلبة فلسطينيين، كان بعضهم يحمل الجنسية التشيلية ويؤيد سلفادور ألاندي أيّما تأييد ـ علماً بأن بضعة أثرياء منهم مدّ يد المساعدة لخصوم هذا الأخير.

أصرّ باتريك على العمل بجديّة دفاعاً عن الحرية وحقوق الإنسان، فتوجّه من تشيلي إلى نيكاراغوا ليساعد الحركة الساندنستية، حيث مأساة جديدة في الانتظار. فمن ناحية كان نظام سوموزا يلاحقه لاعتقاله، ومن ناحية أخرى كان الساندنستيون لا يثقون به، بسبب خلفيته الأميركية، ظنّاً منهم أنه يحاول الاندساس لمصلحة الاستخبارات الأميركية.

رفض كارلوس فونسيكا، رئيس الساندنستيين التعاون معه، وأمر بإبقائه بعيداً عن التنظيم. في عام ١٩٦٩ نفى السوموزيون باتريك من نيكاراغوا، فتوجه إلى جنيف حيث لجأ عدد من النيكاراغويين ممّن اضطهدهم نظام سوموزا. التقى باتريك في جنيف بمجموعات من النيكاراغويين، لمناقشة السبل العملية للنضال. كانوا على اتصال ببعض الفلسطينيين، منهم المرحوم الدكتور منذر عنبتاوي. قرروا أن يتدربوا عسكرياً للتمكّن من المشاركة الفعلية. وفي الأردن (أواخر ١٩٦٩ ـ مطلع ١٩٧٠) بدأوا التدريب العسكري المخصص للأجانب، في مزرعة الكردي ـ على حافة نهر الزرقاء (حيث أقيم سد فيما بعد).

ضمّ المعسكر مقاتلين إيطاليين (الفيالق الحمر Brigada Rossa) وهولنديين ونمساويين، إضافة إلى النيكاراغويين. كانت حالة باتريك ورفاقه مختلفة عن حالة القادمين من الأنظمة الرأسمالية: باتريك ورفاقه يشكّلون حركة تحرر، والتعاون مع المقاتلين الأوروبيين يكون بانخراط التحالف الدولي في صراعهم التحرري

ضد النظام الرأسمالي العالمي. لكن باتريك ورفاقه عزموا على اكتساب الخبرة العملية في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قبل العودة إلى نيكاراغوا، لمشاركة رفاقهم نضالاً ضد النظام السوموزي.

وفي حين عاد رفاق باتريك إلى نيكاراغوا، غدا هو شهيداً في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٠ إبّان عملية اختطاف طائرة «العال» في أجواء لندن.

كان من المفترض أن يصعد أربعة من المقاتلين إلى طائرة «العال»: ليلى خالد ومقاتلان فلسطينيان، وباتريك أرغويللو. لكن المقاتليْن مُنعا من ركوب الطائرة، بينما تمكّن باتريك وليلى من ذلك، على أنهما زوج وزوجة من هندوراس. توجّب عليهما، بالتالي، تنفيذ تعليمات وديع حداد بمفرديهما.

عندما تقدم باتريك (الأنيق) من مقصورة القيادة، اندفع رجال الأمن. بادر الطيار إلى توجيه الطائرة بما يشبه هبوطاً اضطرارياً عنيفاً أفقد الركاب توازنهم، لا سيما عند تناقص الأوكسجين. فتح رجال الأمن الاسرائيلي نيران مسدساتهم على باتريك، فأصابوه من دون أن يُقتل فوراً. فيما كانت ليلى خالد في قبضة الركاب والأمن الذين انهالوا عليها ضرباً ولكماً.

لم يتمكن باتريك من إطلاق أكثر من خمس رصاصات على رجال الأمن. أصاب أحدهم، كما أصاب مضيفاً (تبيّن أنه رجل أمن مسلح). سقط باتريك قتيلاً.

هبط الطيار في مطار هيثرو حيث سُلِّمت ليلى خالد إلى الأمن البريطاني بعد مشادّة بين الإسرائيليين والبريطانيين، بسبب إصرار الإسرائيليين على سوْق ليلى معتقلة إلى تل أبيب، بينما أصرّ البريطانيون على تسلّمها باعتبار أن هيثرو أرض بريطانية، خاضعة للقانون والسلطة البريطانيتيْن.

في بداية الحادثة، لم تقتل رصاصات الأمن باتريك، بل هو أصيب بجراح نازفة.

إنما بعد هبوط الطائرة، وحسمِ الخلاف، أطلق رجال الأمن أربع رصاصات أخرى عليه، أردتْه قتيلاً.

الحقيقة أن سيارة الإسعاف التي نقلت باتريك وليلى إلى المستشفى هي الشاهدة على موت باتريك: إنها الرصاصات الأخيرة التي أعقبت القبض عليه، والتي أجهزت على ما فيه من حياة.

ذلك هو باتريك أرغويللو، الإنسان الحساس الرقيق، الطبيب الذي حاول تخفيف آلام الإنسان، لكنه اكتشف أن المرض الحقيقي والخطير الذي يهدد حياة البشر، هو الجرائم ضد الإنسانية، واستغلال البشر واستعبادهم، وتحويل الأحرار إلى عبيد. اكتشف جشعَ الرأسماليين وشراءهم الطغاة ليحكموا نيابة عنهم، ويقتلوا معهم ونيابة عنهم، ويعذبوا أهل الأرض، ويمتصوا دماءهم، ويسخِّروا جهدهم وعقلهم ـ هؤلاء هم المرض الحقيقي والخطير.

لذلك قرر باتريك أرغويللو خوض المعركة الحقيقية ضد المرض الحقيقي: معركة «لا حياة دون حرية». لا حياة دون حقوق إنسانية. لا نهوض لشعب، ولا انتصار على الجوع والمرض والعطش، دون عمل مُجدٍ يمنح الإنسان قيمته الحقيقية. في النهاية، كان باتريك مقاتلاً من أجل الحرية، مقاتلاً من نوع آخر. أفكاره سامية، مشاعره شفافة. تميّز بمثل عليا ضد الإرهاب الحقيقي، إرهاب الدول والأنظمة للشعوب، فدافع عن نفسه وحقوقه في سبيل الدفاع عن الحقوق البشرية.

لقد أسس باتريك ومجموعته الثورية علاقات وثيقة بين وديع حداد والحركة الساندنستية. كما ساهم حدّاد في تدريب وتأهيل العشرات من كوادرهم الذين استشهد في ساحة القتال في نيكاراغوا عدد كبير منهم أمثال: خوان خوسيه، (استشهد عام ١٩٧٣)، وبيدرو بالاسيوس (١٩٧٧)، وكارلو ألبينا (١٩٧٦)، وفريديريكو ساندوز (١٩٧٧).

كرّم الفلسطينيون باتريك أرغويللو. ودُعيت والدته إلى حفل التكريم حيث سلِّمت الشهادات التي يعتبر فيها الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية باتريك أرغويللو شهيداً وبطلاً من أبطال فلسطين.

باتريك الطبيب الوسيم المناضل من أجل حرية الإنسان، وقع في قبضة إرهابيين ساموا، ولا يزالون، الشعوب عذاباً: يسرقون قوت الفقراء وأرضهم وبيوتهم، ويهجّرونهم من ديارهم تهجيراً عرقياً تعسّفياً.

كارلوس أو سالم

في وصف إيليتش راميرز سانشيز

قال له الدكتور وديع حداد بلهجة القائد الذي يعاقب ضابطاً من ضباطه فشل في تنفيذ أوامره في الميدان، «إذا كنت تريد أن تنشئ تنظيمك الخاص، فافعل وسوف أساعدك إذا أردت المساعدة، لكن عليك أن تعلم أن المال لا يصنع تنظيماً ولا يخلق قائداً ولا يزوّدك بعقل مخطِّط».

كان صوت القائد وديع حداد حادّاً وحانقاً، لدرجة سماعه خارج كوخه في ذلك المعسكر في محافظة أبين (اليمن).

انقضت فترة طويلة على فشل عملية «أوبك»، التي خطط لها الدكتور وديع حداد وكلّف كارلوس (إيليتش راميرز سانشيز) بتنفيذها. عاد كارلوس إلى عدن من الجزائر التي استضافته مدّة، ثم مرّ بطرابلس (ليبيا) حيث قابل الرئيس معمر القذافي.

أُخضع كارلوس للتحقيق نظراً إلى عدم تقيُّده بتعليمات المعلم وديع حداد. لم

تكن المبررات التي قدّمها كارلوس مقنعة للدكتور وديع حداد الذي توصّل إلى استنتاج ذي احتمالين:

الأول، إمّا أن كارلوس تراجع، جُبناً، عن تنفيذ التعليمات الصارمة.

الثاني، أو أنه تسلّم مبلغاً من المال لقاءَ الامتناع عن تنفيذ التعليمات بإعدام الوزير الإيراني ما لم تُنفذ الشروط المعلنة ـ الإفراج عن الأسرى، ودفع مبلغ كبير من المال تعويضاً للأُسر التي ارتكبت إسرائيل بحقها جرائم يندى لها الجبين.

عزم حداد على مواجهة كارلوس، الذي بدا عليه أثرٌ من الخجل. فَراح يجيب على أسئلة الدكتور وديع حداد، بصوت مرتعش وعينين محدّقتين. كان من الممكن أن ينال كارلوس حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص، أو أن يُحتجز. إنما أمر الدكتور وديع بإطلاق سراحه وفصله من «المجال الخارجي»، أي من فرع العمليات الخاصة التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

كان مقدّراً لعملية «الأوبك» النجاح في جمع تعويضات بقيمة مليار دولار، لأُسر القتلى الفلسطينيين، ناهيك عن الإفراج عن الأسرى الفلسطينيين. لكن تبيّن لقيادة فرع العمليات الخاصة أن الحادثة انتهت بصفقة دُفع فيها مبلغ اثنين وخمسين مليون دولار، جزء منها (عشرة ملايين دولار) لتغطية نفقات. أما مبلغُ اثنين وأربعين مليون دولار فدُفع لكارلوس، الذي اتّخذ ساعِداً أيمن له هو الألماني كلاين، عضو الخلايا الثورية الألمانية. إستخدم كارلوس عدة مصارف، بعضها في أميركا اللاتينية، وبعضها الآخر في بيروت وعمان. كما ادّخر كمية من المال في برلين الشرقية وبلغراد وبودابست. واحتفظ لاحقاً بثلاثة ملايين دولار مع فلسطيني ترك «المجال الخارجي»، ملتحقاً بكارلوس الذي واظب على إدارة محطة العمل في عدن.

منذ تلك اللحظة بدأ كارلوس يتحرك لإنشاء تنظيم. كان قد استفاد إلى حد بعيد من تجربته العملية في فرع العمليات الخاصة، وأصبح قادراً على الإمساك بخيوط



كارلوس (إيليتش راميرز سانشيز)

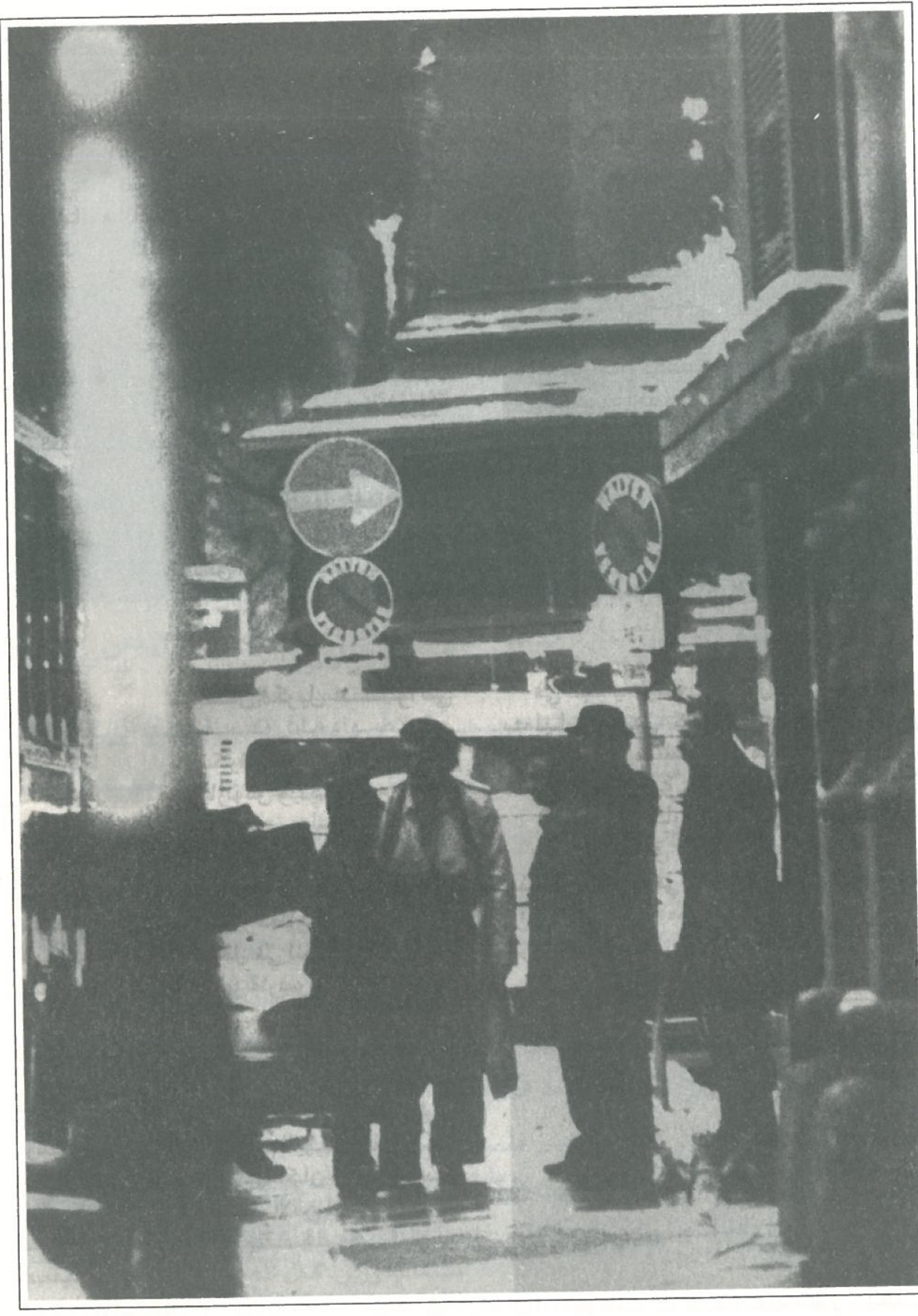
تساعده في صنع وثائق السفر، والتخفي والتنقل بطرق يصعب تتبعها. أغدق كارلوس المال على عمله وأتباعه. لكنه فشل في تأسيس تنظيم في أميركا اللاتينية، كفشله في التخطيط لعمليات ذات أفق سياسي أو بُعد جماهيري. أصبح همّه السياسي أن يُفلت وأتباعه من الحبل الملتفّ حول أعناقهم، من قِبل كافة أجهزة مكافحة الإرهاب وتحالفاتها في المنطقة العربية، سواء أكانت تحالفات معلنة أو مبطّنة.

كانت الأموال تنفق دون حساب، وغدت إجراءات الحماية وتفادي السقوط مكلفة جداً، لا سيما بشأن مآويهم الأوروبية، كلندن وباريس وفيينا وجنيف وزيورخ. لم يتعلّق الأمر بكارلوس وحده، الذي كان يفضل المنطقة العربية، بل بأتباعه (خاصة الأوروبيين).

التقيتُ كارلوس صدفة، وللمرة الأخيرة، في فندق متروبول في برلين الشرقية. كنت خارجاً من المستشفى حيث أجريت لي عملية جراحية في الأذن التي أعطبتها محاولة اغتيالي عام ١٩٧٢. تعانقنا، نظراً إلى الصداقة الحميمة التي تربطنا، بمعزل عن العمل والعمليات. تحدثنا عمّا حصل وما سيحصل. في نهاية اللقاء طلب مني المساعدة والتعاون. فضحكت، رافضاً بأدب: «أنا الآن تحت العلاج يا سالم». غادرت برلين إلى بيروت، ولم أره منذ ذلك الحين، رغم أنني كنت ملمّاً بأخباره، وتحركاته، ومغامراته المخملية أو الخشنة.

في بداية عام ١٩٧٠ التقيت كارلوس أول مرة عندما وصل إلى مكتبي في كورنيش المزرعة في بيروت. بدا لي فتى صغير السن، أبيض الوجه، أجرد خلا من بعض الشعر. تركته على سجيته، ربما ليعرّف عن نفسه بأنه شاب، لا فتى صغير السن. بدا لي طويل القامة رياضي البنية. ألقى تحية كمَن يريد أن يقول إنه مقاتل. طلبت منه الجلوس. ابتسم وجلس، وثيابه تذكّر بمقاتل متأهّب للمعركة. ابتسمت قائلاً:

أهلاً وسهلاً بك في مجلة **الهدف**. فماذا تريد من المجلة؟



كارلوس في فيينا أثناء عملية «أوبك»

ابتسم ابتسامة توحي بمحبة وإعجاب، كسباً لودّ محدثه. فقال:

«أريد أن أكون صحافياً. أريد أن أقاتل لتحرير فلسطين»!

ـ من أين أنت؟ سألتُ.

ـ فنزويلا.

ـ لماذا اخترت أن تقاتل في فلسطين؟

جعلْنا ندردش، بين سؤال وجواب، حول الصراع والقتال والمقاومة والصهيونية والاستعمار الاستيطاني. قلت له: أنت شاب صغير السن.

ـ ولدتُ عام ١٩٤٩، فلستَ أكبر مني بكثير.

لم أعلّق.

تابع: كان ذلك في كاراكاس. أسرتي مسيحية. انفصلت والدتي عن والدي لخلاف بينهما. كان والدي أحد كوادر الحزب الشيوعي الفنزويلي، ومعجباً جداً بلينين. أسماني إيليتش تيمّناً بلينين (فلاديمير إيلتش لينين)، وأطلق على أخي اسم لينين. عندما انفصل والداي، غادرت أمي كاراكاس إلى لندن حيث رافقتُها وأخي، فالتحقنا بمدرسة لمتابعة الدراسة. كانت أمي ترفض أي قرار بانضمامي وأخي إلى الشبيبة الشيوعية الفنزويلية، مصرّة على ضرورة إنهاء الدراسة، حتى نتمكن من اختيار الطريق الذي نريد. لكننا انضممنا إلى منظمة الشبيبة الشيوعية (الكلاسيكية).

في لندن التحقنا بمدرسة ستافورد هاوس تيوتوريال كولدج (STAFORD HOUSE TUTORIAL COLLEGE)، في منطقة كنزنغتون، لندن.

تابعَ: عام ١٩٦٨ حاول أبي إقناع أمي ـ وكانا مطلقين ـ بالموافقة على ذهابي وأخي لينين إلى باريس للالتحاق بجامعة السوربون. إلاّ أنها رفضت. ففي ذلك



كارلوس، الثاني من اليمين، في مطار الجزائر التي انتقل إليها من فيينا مع الرهائن

العام، كانت باريس محمومة بانتفاضة شعبية عارمة، وكادت أن تتحول إلى كومونة جديدة.

في نهاية النقاش، قرّرا إرسالي إلى جامعة لومومبا في موسكو، التي أسسها السوفيات لتعليم الوافدين من دول العالم الثالث وطَلَبة حركات التحرر الوطنية والأحزاب الشيوعية في العالم.

استأنف كارلوس: في جامعة لومومبا تعرّفت إلى عدد كبير من الشباب القادمين من حركات تحرر متنوّعة، ومنهم فلسطينيون. أمقُتُ الشيوعية الكلاسيكية. لا أعتقد أن الغيفارية أو التروتسكية تقدّم حلاً لمشاكل الفقراء والمضطهدين في العالم. لذلك ارتأيتُ الانضمام إليكم لأتجنّب إطار المثقفين. أريد أن أقاتل العدو. جئت مباشرة إلى بيروت ومجلة **الهدف** لأن رفاقكم في جامعة لومومبا أرشدوني. فُصِلت من الجامعة لمشاركتي في تحرك طلابي ضد أوضاع الجامعة



زوجة كارلوس، الألمانية كوب

السيئة. إن السوفيات يتصرفون كما تتصرف الأنظمة المستغلة تماماً. لقد فصلوا عدداً منّا ـ أنا من بينهم. لكن قراري بالالتحاق بكم لا علاقة له بفصلي. كنت أنوي الانضمام حتى لو لم يحدث ذلك. لم أكن أريد العودة إلى عائلتي.

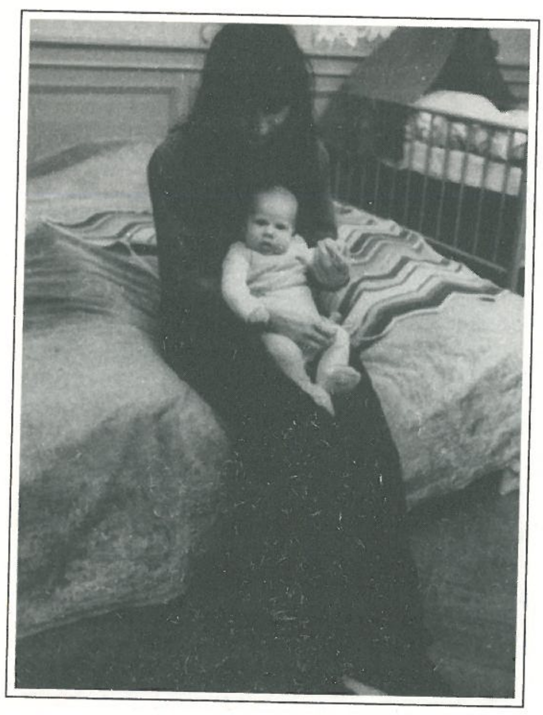
كنت أصغي بانتباه إلى كل كلمة، وأدوّن بعض الملاحظات. كان ودوداً في حديثه، معبّراً بكفيه وعينيه ووجهه. كان ينتفض واقفاً في بعض الأحيان ليفصح عن هول ما يقول؛ وأحياناً أخرى يقهقه؛ وأحياناً يبتسم أو يتأمل.

وبقيت صامتاً.

توقف فجأة عن الكلام، قائلاً وعيناه تضحكان: أنا كثير الكلام أليس كذلك؟

ابتسمت: لا، شرحك كان ضرورياً. ونظرت إليه ملياً: من الآن فصاعداً اسمك

سالم، انسَ إيليتش، حفاظاً على أمنك. فأنت الآن في بيروت. أعتقد أن خطر القتال في هذه المنطقة معناه الموت أو الإصابة البليغة. إنه رصاص حقيقي، وليس رصاص مسارح كنزنغتون. ابتسم وهزّ رأسه مُقبضاً يديه، كأنه عازمٌ على مواجهة هذا الوضع وتحمُّل المخاطر.



مجدلينا كوب وابنتها من كارلوس

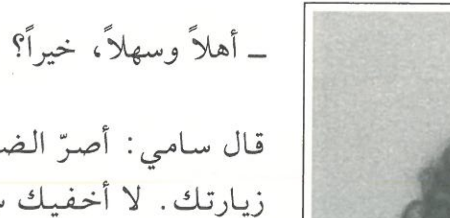
سألتُه هل حمّلك الرفاق في جامعة لومومبا رسالة مكتوبة؟

ـ أجل، ولكن هل هذا مهم؟ ونظر إليَّ نظرة خبث، وابتسم.

ـ قد تكون ضرورية بالنسبة إلى مَن ستقابلهم. فقد انتهت مقابلتك الصحافية في مقرّ **الهدف**. عليك الآن مقابلة مَن يدلّونك على ميدان القتال. نحن هنا لا نعرف شيئاً عن القتال!

صافحته متمنياً له النجاح، وطلبت من سائق سيارة **الهدف** اصطحاب الضيف إلى مخيم شاتيلا، حيث مكتب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. تأهّب كارلوس تأهُّب مصارع الثيران.

تلك الليلة، قُرع بابي قرب فندق الكومودور. نظرت من عين الباب لأرى وجه سامي، مدير إداري في مكتب الجبهة الشعبية العسكري. فتحت الباب، فإذا بسالم خلفه.





مجدلينا كوب، زوجة كارلوس

ـ أهلاً وسهلاً، خيراً؟

قال سامي: أصرّ الضيف على زيارتك. لا أخفيك سرّاً أنه لا يوجد لدينا مَن يتكلم الإنكليزية أو الإسبانية أو الروسية. فقررت أن أحضره إليك. أنا آسف لأننا لم نتصل قبل مجيئنا. ساد صمت. كنت أفكر: لماذا؟ هل هي اللغة؟

سألت: هل جلستم معه، وتحدثتم إليه قبل المجيء؟

قال: نعم! وهو يحمل رسالة من رفاقنا في موسكو. إنه آمن.

طلبت منهما الدخول. قال سامي: هل يمكنه المبيت الليلة، لأننا لم نتخذ أي ترتيب بعد. نظرت إليه مستهجناً.

فأجاب بسرعة: هذا سؤال وحسب. إذا كان غير ممكن سأصطحبه إلى مكان آخر. نظرت إلى سالم الذي كان يتابع الحديث محاولاً استيعاب ما يجري. وبكل كياسة وذكاء قال لي بالإنكليزية: أعتذر على هذا، لكن ليس ثمة من أتكلم معه. إذا كنت غير راغب فسأغادر فوراً.

خجلت من الموقف فقلت: على الرحب والسعة، لكن لا تتوقع مني تعديل برنامجي الخاص.

فأجاب بفرح: أبداً، أبداً.

أشرت إلى سامي بالإنصراف، على أن يأتي صباحاً ليرافقه إلى مقرهم.

نظرت إليه مبتسماً ومتسائلاً: هي ليست مشكلة اللغة، أليس كذلك؟

أجاب: طبعاً، لا.

زوجة كارلوس، العربية لانا

كان برنامجي حافلاً تلك الليلة حافلاً، فقد دعوت صديقات وأصدقاء لتناول البيتزا في مطعم قريب. قصدتُه وسالم سيراً على الأقدام. أعطيته فكرة عن المدعوين، وعن الجبهة السياسية، وأخبرته أنهم زملاء. كان سالم مهذباً جداً. لا شك في أن تلك الليلة زوّدتني بكافة المعلومات الوافية عن شخصية سالم، وطريقة تصرفه ومزاجه، ما يحب وما لا يحب، ما يهمه وما لا يهمه.

عرّف سالم عن نفسه من دون كلام، باذلاً جهده لنيل إعجاب الجميلات. تلاحظ فيه اللطف والكياسة والذكاء وسرعة البديهة والحركات الأنيقة، واللفتات الاستعراضية، ولمسة الفرسان تتدفق، تعبيراً عن إعجابه بإحداهنّ. مع كل هذا الفيضان الراقي، هو لا يقدم على خطوة واحدة. فينتظر، على جمر، نظرة منها ذات معنى، أو لمسة ناعمة، ليدرك أن ما فاض به من تصرف ذكي ولبق قد لاقى هوى لديها.

يرقص كالفارس المنتظَر، ويبتسم كالعاشق الوفيّ، مرافِقاً شريكته في الرقص بتؤدة وثبات كأنه يقول، «أنا الشريك الذي لن تندمي على مشاركته». هو يحب الجمال والجميلات، الأناقة والأنيقات، الذكاء والذكيات. يعشق الجمال بكل فتونه. ولا ننسَ حبه للحياة والحرية، واستعداده لبذل الغالي والنفيس في سبيلها. ولأنه يحب كل هذه الجماليات، يؤثِر أن يكون هو مصدرها، كي يحبه الآخرون، لا سيما الجميلات. لذا كان جميلاً أنيقاً مهذباً، رجلاً فارساً وأميراً. يحمل الوردة في يد، ويمتشق السيف في اليد الأخرى.

هل قاتل سالم من أجل المبدأ، أم لِيوصف بالمبدئية؟ لا أدري. ربما قاتل كي يغدو غيفارا جديداً بأسلوب ومدرسة جديدين؛ أو أنه استلهم طريقة أبطال الحرية القدامى في أميركا اللاتينية والمكسيك؛ أو ليخلق بطلاً للفنزويليين فيخوضوا سويةً معاركهم من أجل الديموقراطية والحرية. ولعلّه قاتل إيماناً راسخاً منه بأن معارك الإنسان من أجل الحرية والتقدم هي واحدة، حيثما يتعرض الإنسان للقمع والاضطهاد والإذلال والاستغلال. أخيراً، أقول إن كارلوس (أو سالم أو إيليتش راميرز سانشيز)، ارتكب أخطاء كثيرة، كان بعضها دموياً، إلاّ أنه ناضل ضد مجرمي الإرهاب، ممّن ارتكبوا مجازر ضد الإنسانية وجرائم جماعية، واستخدموا أسلحة محرّمة، ليس لقتل الأطفال فحسب، بل لافتعال أمراض مزمنة في جينات البشر. فإذا حكّمنا الفيلسوف هيغل، وسواه من الفلاسفة العلميين والإنسانيين، واستثمرنا علوم المنطق والديالكتيك وقوانين النسبية ونظرية الاحتمال واللانهاية، نستنتج أن سالم كان في الجانب الحرّ من الإنسان، ومعه؛ فيما لا يزال الأعداء يفتكون بالبشرية.

الفصل الثامن عشر

عمليات.. واغتيالات

تقرّر إرسال سالم (كارلوس) إلى معسكر للتدريب يشرف عليه الضابط باسم، زوج ليلى خالد ومدرّبها في آن معاً. كما أُرسلت مجموعات سويدية بقيادة امرأة اسمها آن شارلوت وشاب يُدعى أرنيه. علاوة على مجموعة يابانية (ثلاثة أفراد)، ومجموعة نيكاراغوية، يقودها باتريك أرغويللو، ومجموعة من الفيالق الحمر الإيطالية، ونمساويين، وسويسريين، وهولنديين، وإسباني من الباسك.

أدى المعسكر دوره على أكمل وجه، فانضم سالم إلى معسكر المقاتلين المحترفين؛ وآخرون إلى «المجال الخارجي» بقيادة وديع حداد ــ مجال العمليات الخاصة. أما سائر المقاتلين فعادوا إلى بلادهم لإنشاء لجان أنصار وإمداد للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. تكفّل السويديون والسويديات بإرسال أربعة أطباء وستّ ممرضات، للعمل مدة تتراوح بين ستة أشهر وعام، في مخيمات اللاجئين ومعسكرات المقاتلين. كان آخر أيام ذلك المعسكر مشهوداً بالنسبة إلى المقاتلين، إذ انحصر التدريب بالهجوم والدفاع. فجرَ ذلك اليوم بدأنا التدريب بالهجوم على المعسكر فيما الجميع نائم.

استخدمنا الذخيرة الحيّة، وقصفنا أطراف المعسكر بقذائف الهاون، ودمّرنا مطابخ

المعسكر لجعل الهجوم يبدو واقعياً. كما أمطرنا المعسكر (من أعلى شجرة) بوابلٍ من رصاصِ رشاشاتٍ من مختلف العيارات.

هبّ الجميع مذعورين، حملوا أسلحتهم، منفّذين ما تعلموه من خطة دفاع عن المعسكر. عبروا إلى ضفة النهر المقابِلة، واحتموا بالصخور، أو داخل الكهوف.

دخلتُ المعسكر لمعاينة الوضع، فإذا بسالم يتأمل. فسألته: ماذا تفعل هنا؟

أجاب: إنها تمثيلية. لو كنتُ المهاجم، لحرصت على تصويب القذيفة مباشرة إلى المعسكر.

ابتسمتُ قائلاً: هذا تطعيم للمعركة.

وأمرت بنقل سالم فوراً إلى معسكر المقاتلين المحترفين الواقع على قمة تلة بعيدة عن نهر الزرقاء. خضع سالم فيه لدورة صارمة، فتخرّج منها والتحق بقوات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المقاتِلة والمحمولة.

بقي سالم في تلك المنطقة حتى محاصرتها في تموز/ يوليو ١٩٧١، حين خرج من الأردن مع الخارجين من قوات الثورة الفلسطينية جرّاء إطباق الجيش الأردني على المواقع التي أقرتها قمة القاهرة. فغادر مَن غادر، واعتُقل من اعتُقل. أُمر سالم بالتوجه إلى بيروت، حيث بدأت حياته من جديد، مناضلاً من أجل الحرية، ومقاتلاً ضد الإمبريالية، وثورياً ذا طموحات وأفكار.

إلتقيت به مرة أخرى في بيروت، وهو على أعتاب المرحلة الجديدة: مرحلة البطل الذي سيقرر الدكتور وديع حداد خلقه. لطالما رأى «المعلم» أن شخصية البطل مهمَّة لجميع الناس، فهي تأسر ألبابهم وتجذبهم لمتابعة الأحداث. ففي عقود من الزمن، رتّب عمليات خلق متتابعة لأبطال ألهبوا مخيّلة الناس واستقطبوهم لمتابعة أفعالهم (سواء أيّدوا أو أدانوا). فبإمكان الأبطال أداء أدوارهم

لطرح قضية الشعب الفلسطيني، القضية العادلة، قضية الحق والحرّية. وإذا كانت بعض العمليات في حينها قد أثارت غضباً وسخطاً وإدانة، فهي، في الوقت ذاته، طرحت السؤال: من هم هؤلاء؟ لماذا يقوم الفلسطينيون بهذه الأعمال؟ لماذا يزجّون بالأبرياء في عملياتهم الإرهابية؟

من خلال عملياته، كان وديع حداد يدفع (رغم الإدانة) الرأي العام العالمي إلى طرح السؤال الجوهري: من هو الإرهابي، وما هو الإرهاب؟

إنْ تقلْ كلمة الحق، يفسِّر الغرب أنك إرهابي. إن تتهم المجرم بالقتل، فأنت إرهابي. إنْ تكشفْ أن الغرب يسلّح الإسرائيليين بذخائر محرَّمة ليستخدموا أطفال فلسطين حقل تجارب فيها، فأنت إرهابي. إنْ تتظاهرْ ضد الجرائم الجماعية، فأنت إرهابي.

أما من يرتكب الجرائم، ويستخدم الفوسفور الأبيض والقنابل العنقودية ضد الأطفال، فليس إرهابياً. طالما أن القتل عملية إمبريالية فهو مقبول، أما أن تقاوم الضحية إجرامهم، فهذا إرهاب.

من هذا المنطلق، لم يكترث وديع حداد لما سيطلقون عليه من أوصاف، أو ما سينعتون به مقاتلي الحرية، لأنهم إرهابيون مهما فعلوا، طالما أنهم يثيرون قضايا الحق والعدالة والحرية. تعاونّا مع وديع حداد لتطوير نظرة جديدة وتعريف جديد للألم: الألم الأكبر أقل إيلاماً من ألم الجرح الأصغر. إن أُصبتَ في معركة برصاصة في قدمك، فالألم سينهشك وينهكك. لكن الألم ذاته يكاد يصبح نسياً منسياً إن أنت تابعت المعركة وأصابتك رصاصة في الرأس. فألم رصاصة في الرأس أفظع، لدرجة أن ألم جرح القدم يتلاشى.

ألم الفلسطينيين الأكبر هو ذلك النابع من الظلم الذي لحق بهم، ألم تشريدهم بالقوة خارج بلدهم، ألم نهب أراضيهم وقراهم ومدنهم، ألم جريمة الاستعماريين

والإمبرياليين في إعطاء الأرض الفلسطينية لمن لا علاقة لهم بها. إنه وجع نفي الوجود والهوية، والإنسانية الفلسطينية.

هذا هو الألم الأكبر. فمهما يكن الجرح كبيراً، يبقَ ألم فقدان الحريّة والأرض أشد مضاضة؛ ومهما تكن الصفات التي تطلق علينا فهي أهون من الاستعباد. وسيأتي اليوم الذي يقول فيه التاريخ الحقيقة: إن الشريعة التي فرضها الإمبرياليون على العالم هي شريعة الغاب، «القوة هي على حق»، القوي له الحق أن يسحق الضعيف. إنْ تكن هذه شريعتهم، علينا مواجهتهم بذكاء القوة واستمرارية الحياة. فبقاؤنا أحياء في ذاكرة البشرية هو انتصار على من يريد إفناء الشعب الفلسطيني، ومحو هويته، وإذابة من تبقّى منه في أرضٍ عرضها، وشعاعها، وطولها هو عرض، وشعاع، وطول الكرة الأرضية بأكملها.

وديع حداد هو صاحب الرؤية بأن البقاء أحياء متحرّكين هو إعلان حرية ستأتي لشعبنا. رغم الألميْن الكبير والصغير، كان وديع حداد يحرص على تحذير المقاتلين من الإساءة إلى رهينة، أو إيذاء مدني، أو إطلاق النار إلاّ دفاعاً عن النفس.

رويداً دخل سالم البوابة الكبيرة. بوابة العمل الذي يولّد هزات في المجتمع الدولي، العمل الذي يحتاج إلى أعلى قدر من الدقة والانضباطية، وإتقان التحكم، والاحتفاظ بهدوء العقل والأعصاب. العمل الذي قد يفاجئك بوجوب اتخاذ قرار دون العودة إلى المعلم. العمل الذي يحمل لك في طياته الموت بأشكال متعددة. إنه العمل الذي يحولك في لحظات إلى بطل؛ والبطولة تُسكر وتزيغ النظر، أو تهيم بثقة الإنسان في نفسه فوق الحدود الآمنة. البطولة طريق إلى مزيد، إمّا من التواضع البطولي، أو الشعور بالطاووسية والتعالي. خطر الطاووسية أنها تحمل مقتلاً، بينما التواضع يرمز إلى العقلانية.

كان مطلوباً من كل بطل التركيز والتماسك، بحيث يتذكر أنه بطل لأن وديع حداد أراده بطلاً، وليس العكس. في هذا السياق، أخطأ سالم لاحقاً.

أواخرَ عام ١٩٧١، وإثر انتهاء التواجد العسكري الفلسطيني في الأردن، توجه كارلوس (سالم) إلى بيروت. كان عام ١٩٧٢ مثقلاً بالعمل، والحرب الإرهابية الإسرائيلية.

دخلت «فتح» على خط العمليات، من خلال جهاز أمنها، فراح أبو أياد (صلاح خلف) يعدّ الخطط لضربات انتقامية ضد الإسرائيليين. فقاموا بعملية «ميونخ» التي لم تهدف أساساً إلى قتل الرياضيين الإسرائيليين، بل احتجازهم لفرض ضغط هائل على إسرائيل فتفرج عن المعتقلين في سجونها، التي اكتظّت بآلاف أسرى الحرب ممّن كانوا يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب.

ماذا جرى في عملية «ميونخ»، وخطف الرياضيين الإسرائيليين؟ لم يكن المسؤولون الألمان يرغبون بإطلاق النار، بل حذروا المسؤول الإسرائيلي المشرف على التحرّكات الإسرائيلية في المطار. فإطلاق النار سوف يؤدي إلى إطلاق مقابل، فيسقط عدد كبير من الضحايا، من جملتهم الرياضيون الإسرائيليون. نصح الألمان المسؤول الإسرائيلي بعدم إطلاق النار، ومتابعة الحوار مع الخاطفين، الذين كانوا سيتوجهون بأمان إلى جهة تمكّنهم من التفاوض لتحرير عدد من أسرى الحرب الفلسطينيين.

إلاّ أن المسؤول الإسرائيلي سرعان ما أصدر التعليمات بإطلاق نار القناصة. كان مندوب الجامعة العربية حاضراً (تونسي على ما أذكر)، فكتب في تقريره أن الأمر بإطلاق النار صدر عن المسؤول الإسرائيلي. كأنّ إسرائيل تعمّدت حصول مجزرة لدواعٍ إعلامية، غير آبهة بحياة الرياضيين الإسرائيليين.

عملياً، شهد كارلوس تلك الحادثة أثناء وجوده في بيروت، فكانت مدخله إلى العمل الخاص بقيادة الدكتور وديع حداد.

شهد عام ١٩٧٢ انعقاد أول مؤتمر للتحالف الدولي الثوري، وبداية حربين على الدكتور وديع حداد: حرب خارجية تقودها غولدا مئير وإسرائيل والاستخبارات الغربية، وحرب داخلية يشنها أعداؤه من «السوبر يسار»، الذين تبيّن أن قيادتهم تؤدي هذا الدور لحساب استخبارات خارجية. من بين هؤلاء وليد قدورة، ويونس البجيرمي. في ذلك العام خاض سالم تدريبات خاصة وخطيرة في لبنان وعدن. زارني في منزلي ليودعني قبل سفره. والتزاماً بقواعد العمل، لم أسأله عن وجهته، ولا عن مهمّته. بل ابتسمت قائلاً: ليكن الوداع إسبانياً. أجريت بعض الاتصالات ودعوت بعض الأصحاب ممّن لا يعرفون سالم، إلى مطعم تصدح فيه الألحان الإسبانية. قدّم نفسه إليهم على أنه صحافي إسباني. ثم انسابت عبارة «إلى اللقاء». كان في كل مرة يعود فيها من سفر، يزورني حاملاً إليّ وردة حمراء أو بيضاء. المرة الأخيرة التي زارني فيها كانت قبل محاولة غولدا مئير اغتيالي، وبعد اغتيال غسان كنفاني. أولى المهمات التي نفّذها كارلوس وذاع صيتها، كانت إطلاق الرصاص على اللورد يوسف سيف، نائب رئيس المنظمة الصهيونية البريطانية وصاحب المحلات الشهيرة (ماركس أند سبنسر)، في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٣، في أعقاب أشهرٍ حافلة بالمعارك والاغتيال والاغتيال المضاد - أي بعد عمليتي ڤردان والفاكهاني في نيسان/ أبريل من العام نفسه.

كان اللورد يوسف سيف قد درج على دفع أرباح مؤسسته التجارية كل يوم سبت، تبرّعاً لإسرائيل، قاربَ مئتي مليون دولار بحسب أحد التقارير. إختار وديع حدّاد سيف هدفاً ردّاً منه على الاغتيالات التي دبّرتها غولدا مئير ومدير الموساد المؤتمِر بأوامرها، الجنرال زامير.

في زيارة له إلى بيروت، روى لي كارلوس مجريات العملية. فقد توجه بكامل



كارلوس يدافع عن نضاله الثوري في المحكمة الفرنسية

أناقته ووسامته إلى منزل اللورد سيف. قرع الباب، ففتح له مدبِّر المنزل الذي سأله عما يريد.

أجاب كارلوس: هناك موعد بيني وبين سعادة اللورد سيف، ترى هل نسي أن يبلغك؟

ابتسم كارلوس ابتسامة الواثق من نفسه.

- تفضل، سيدي، إلى الصالون. أشار مدبِّر المنزل عليه بالجلوس، قائلاً: اللورد في غرفته. ماذا تودّ أن تشرب، سيدي؟

فأجاب كارلوس: القهوة لو سمحت.

وما إن سار المدبّر نحو المطبخ، حتى اندفع كارلوس مسرعاً نحو الطابق العلوي. دخل غرفة نوم اللورد، ومنها إلى الحمام حيث كان الأخير يستحمّ في المغطس.

لم يفُهْ بكلمة. أطلق من مسدسه الصغير ثلاث رصاصات خلّفت اللورد في بحيرة

دماء. هرول كارلوس نحو الباب الخارجي، وانطلق إلى المطار، متوارياً بين السحُب نحو الشرق الأوسط.

لم يلقَ اللورد سيف حتفه، بل أصيب إصابات بالغة نُقل على أثرها إلى المستشفى.

دخل كارلوس المعركة ضد جيوش غولدا مئير السرّية، التي بُثَّتْ في كل مكان لاغتيال الفلسطينيين ومناصريهم. فاغتيل محمد بو ضيا في باريس، وهرب بعض من كانوا على صلة به إلى الشرق الأوسط (معظمهم من الجزائر والمغرب). ومضت فترة قبل أن يُعِدّ وديع حداد كارلوس للمسرح العملي. أمضى قرابة عام بين التدريب الخاص على نشاطات حساسة، عملاً على تمرّسه في إصابة الهدف بالمسدس. كان يُجري تلك التدريبات في كل من عدن وبغداد وبيروت.

في نيسان/ أبريل ١٩٧٣، شنّت غولدا مئير أعنف عملية اغتيال إرهابية في أحد أهم شوارع بيروت (ڤردان). أشركتْ في هذه العملية الضخمة مشاة البحرية، والطيران، والقوات الخاصة، وضباطاً و«سيريت متكال» ـ أهم فرق الكوماندوس ـ وعناصر الموساد من خارج لبنان كما مِن داخله.

إستطلع عملاء الموساد من اللبنانيين ـ بينهم ضباط أمن، وضباط من الجيش اللبناني ـ المنطقة بين شاطئ المتوسط عند الرملة البيضاء، صعوداً من فندق الكارلتون، إلى ساحة «ساقية الجنزير»، ومنها إلى شارع سكني هادئ يؤدّي إلى ڤردان.

أشرف على الاستطلاعات مدير الموساد الإسرائيلي، الذي أمضى في لبنان مدة عشرين عاماً، درّب خلالها مئات اللبنانيين لخدمة الموساد ولمصلحة إسرائيل، التي لطالما ادّعت أنها قادرة على التحكم بلبنان.

عندما اتّهمْنا إسرائيل باغتيال غسان كنفاني ومحاولة اغتيال أنيس الصايغ، وبسام أبو شريف، طُمس الموضوع من قبل أجهزة الأمن اللبنانية. لا أتردّد في القول إن شخصاً لا أعرفه قد أرسل إليّ صوراً لسيارة غسان كنفاني لحظة تفجيرها. وصحيح أن أجهزة الأمن اللبنانية ولجنة التحقيق المشتركة تسلّمت تلك الصور، فباعتقادي أن السبب الرئيس وراء طمس الملفّ هو «دسّ» عملاء للموساد وللاستخبارات الغربية في اللجنة.

لقد سلّمت باليد صور الانفجار في لحظته إلى أبو أحمد يونس، مسؤول أمن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وممثل الجبهة في لجنة التحقيق المشتركة. كانت الصور توحي بالمعلومات المفيدة، بحيث يستطيع الخبراء تحديد مكان التصوير، والمسافة، ليكشفوا (لو أرادوا) المكان الذي كمن فيه المنفذون ومساعدوهم. لكن لا الأمن اللبناني، ولا أبو أحمد يونس، حرّكوا ساكناً.

بعد سبعة عشر يوماً حاولوا اغتيالي. شُكّلت لجنة تحقيق لكشف ملابسات استخدام ختم وزير الاتصالات حينها، جميل كبي، وإرسال الكتاب إلى مكتبي بعد أن شهد خاتم الوزير على أنه مدقق وخالٍ من المتفجرات. لا بد من أن الموساد كان متواجداً في مكتب البريد. لكن المتابعة لم تحصل. لماذا؟ اسألوا الموساد.

أشرف مدير الموساد في لبنان على كل التحضيرات والاستطلاعات لشارع ڤردان، ومحيطه وشاطئ البحر، ثم أبلغ مسؤوله، الجنرال زامير، بالجهوزية: السيارات، والفرق المحلية المساعدة. وفي ليلة الاغتيالات العنيفة، تحركت قوات البحرية الإسرائيلية، فأنزلت مشاتها وسياراتهم المصفحة قرب خلدة، جنوب بيروت، وتوجهوا بسرعة نحو منطقة جامعة بيروت العربية (الفاكهاني)، حيث مقرات قيادات فصائل المقاومة، وحيث مقر قوات الـ«١٧» ـ أي مقر قيادة ياسر عرفات.

طوّقت القوة بنايتين، في إحداها مقر أحمد جبريل الذي نُسِف، وفي الأخرى مقر الجبهة الديموقراطية. نجا أحد أعضاء قيادة أحمد جبريل.

وها هي سرية من مشاة البحرية الإسرائيلية تتحرك نحو الشارع المؤدي إلى مقر ياسر عرفات، حيث دارت معركة حامية الوطيس لا ينير ليلها سوى وميض الرصاص واشتعال القنابل.

أُخرج ياسر عرفات من مقره تحت جنح الظلام، مرّ برفقة شاب اسمه خليل، يتقن العبرية، بالقرب من مجموعة مستنفرة قرب مقر ياسر عرفات. همس خليل في أذن ياسر عرفات: إنهم إسرائيليون. فما كان منهما إلا أن هرولا شرقاً، تفادياً لتلك المنطقة.

في تلك الأثناء كانت المجموعات البحرية، بقيادة باراك، تنطلق بالسيارات صعوداً من الكارلتون إلى ساقية الجنزير. فثمة زوارق مطاطية أُنزلت من بارجة إسرائيلية (حاملة هليكوبتر) في عرض البحر، مهمّتها نقل المجموعات المسلحة نحو الشاطئ، بين الرملة البيضاء والـ«غروت أو پيجون». استدار الموكب عند طرف ساحة ساقية الجنزير، ودلف إلى شارع سكني يؤدي في نهايته إلى شارع فردان، حيث ثكنة السيّار.

بلغوا البناية المستهدفة، التي تسكنها عائلات كل من القادة كمال عدوان، وأبو يوسف النجار، والشاعر الكبير كمال ناصر (هو مسيحي من مدينة بيرزيت، لم يحمل مسدساً في حياته، بل كان عازباً، جلُّ همّه الشعر والأدب والكتابة).

كان البواب غائباً. الحرس غير متواجدين، كعادتهم. ثكنة السيّار آمنة، فلا يتوقع الإسرائيليون أية مفاجآت من هذه الجهة، بضمانة حصل عليها مدير الموساد من ضباط عملاء له (كان أهمهم ضابط في القوة (١٦) التي كانت مسلّطة على رقاب المدنيين، أفسدتها السرقات والاعتداءات الجنسية، وبعض قادتها كانوا عملاء

للموساد وللاستخبارات الأجنبية). صعدت المجموعات الإسرائيلية، فاغتالت اثنين من القادة الثلاثة أمام أعين زوجتيهما. أما كمال ناصر فصُلب بالرصاص كونه مسيحياً؛ والشاهد على ذلك قلمه وأوراقه المضرّجة بدمائه. تمكّن كمال عدوان من إطلاق بعض الرشقات من رشاشه، فأصاب عدداً من المهاجمين، فأُعطبت يد أحدهم. انسحب جميع العناصر بالسرعة والوقت المحدّدين، نحو الزوارق البحرية، فإلى المدمّرة. أمّا العملاء فتواروا نحو مخابئهم في بيروت.

في تلك الفترة، كنت أقيم في بناية بركات القريبة من موقع الحادثة. ومن بين جيراني هاني الحسن، عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح» ونايف حواتمة، أمين عام الجبهة الديموقراطية.

ما إن سمعنا إطلاق النار حتى هرولنا نحو المكان. قرب مفرق بريستول، أوقفتنا سيارة القوة (١٦) حائلة دون اقترابنا، وقد شهر أفرادها أسلحتهم إزاءنا.

بالعودة إلى كارلوس، فهو نفّذ عمليات صغيرة أخرى، الهدف منها زعزعة ثقة الموساد، وإحداث إرباك في صفوف غولدا مئير. من هذه العمليات استهداف مصالح إسرائيلية: كالبنوك، وخطوط زيم البحرية، ومقاهٍ ومطاعم كان عناصر الموساد يرتادونها (كمطعم دو ماغو في باريس).

إتّخذ من لندن وباريس ميداناً مؤقتاً لنشاطه، فلم يكن وجوده في لندن واختلاطه بالمجتمع المخملي مثاراً للشك. فقد كان رجلاً وسيماً، سهل عليه التسلّل إلى حفلات هذا المجتمع اللندني، برفقة امرأة جميلة أعجبت به وبفروسيته. لكن حَدَقتيْ عينيه ظلّتا على حالهما، تراقبان وتحسبان وتخططان، وتذوبان عاطفة بمقتضى الظروف.

المعطف المخملي القرمزي. القميص المذيّل بالدانتيل الأبيض. الوردة في يد. وقبضة اليد الأخرى على السيف.

الفصل التاسع عشر

عملية «الأوبك»، وفصل كارلوس من العمليات الخاصة

تُعدّ علاقة القوميين السوريين الاجتماعيين بالنضال ضد الاستعمار والاستيطان راسخة فكرياً وأيديولوجياً. فكان الزعيم أنطون سعادة من أوائل المتنبّهين إلى خطورة الغزوة الصهيونية، بحيث ترافقت ندواته التوْعوية مع انتفاضة الشعب الفلسطيني عام ١٩٢٩، لا سيما أن زياراته إلى فلسطين كانت عديدة ومطوّلة، فحاز شعبية واسعة في الجليل وشمال فلسطين. كان أبناء القرى يتكبّدون عناء السير على الأقدام يومين لسماع الزعيم يحاضر في الغزوة الصهيونية، والسبيل الوحيد لمواجهتها: المقاومة من خلال تنظيم مسلّح سمّاه «الزوبعة».

فترسّخت بالتالي فكرة الكفاح المسلّح ضد الغزاة، وتوجيه الضربات إليهم، في أذهان القوميين الاجتماعيين. لذلك اجتذب «المعلم» وديع حداد قوميين اجتماعيين على مستوى رفيع. ومثلما اجتذب الزعيم أنطون سعادة فلسطينيين مرموقين فكرياً، أمثال هشام شرابي، وفايز الصايغ، فإن المعلم وديع حداد ضمّ إلى ساحة القتال قوميين متميّزين، أمثال بشير عبيد، وكمال خير بك، وميشيل مخربل، ممّن ساهموا عملياً في ساحة المعركة ضد عدو الأمة الإمبريالي

الصهيوني. كان ميشيل مخربل مناضلاً يعمل بصمت ضد العدو الصهيوني، مشكّلاً حلقة وصل بين وديع حداد ومجموعاته في أوروبا.

كانت باريس بالذات مدينة مألوفة للبنانيين، درسوا فيها أو زاروها مراراً، أو تعاملوا معها فنياً واقتصادياً وعلمياً. وشاءت الأقدار أن تكون تجربة كارلوس الخطيرة الثانية في باريس (عام ١٩٧٥)، إذ أفسح وديع حداد، مرة أخرى، المجال له ليتحول إلى بطل ويسجل أهدافاً في مرمى العدو. فقد أرسله إلى باريس لفترة من التأقْلم. وكعادته، قام كارلوس بكل ما يلزم العمل.

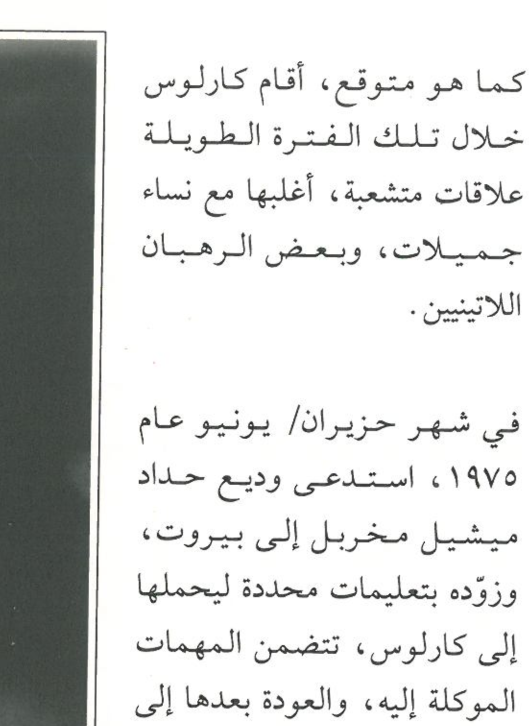
إقتضى الأمر دراسة الأوضاع والمحافظة على أمنه، والتكيّف مع المحيط، حتى تصله التعليمات والأوامر. فأقام في شقة على سطح إحدى البنايات القديمة من بيوت الرهبان، بينهم بعض رهبان أميركا اللاتينية، ممّن كانوا يعلنون ثورة داخل الكنيسة للتخلص من التقاليد البالية والتعامل مع الناس بأسلوب جديد لإرشادهم إلى طريق الصلاح. فإصلاح الكنيسة كفيل بإصلاح البشر.

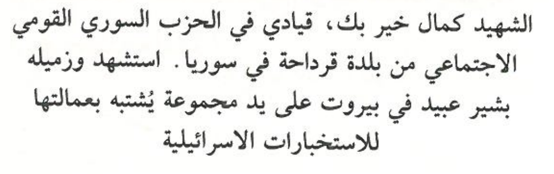
كانت الغرفة واسعة ومريحة. فيها سرير واحد وكنبة تصلح لتكون فراشاً، وطاولة صغيرة وكرسيّان، ولها شباك واسع أشبه بالباب يؤدي إلى السطح حيث زُرعت بعض شتلات الزهور.

خلال شهر أيار/ مايو، وإبّان فترة التأقلم والتأمل، وبعد التأكّد من كلمة السرّ، وصله طرد من رفيق موفد من «المعلم» وديع. غادر الرسول من دون أن يعرف بنفسه، أو يدعي أنه يعرف، إلى من سلّم الطرد.

احتوى الطرد كمية من السلاح والذخيرة مرفقاً بورقة صغيرة تطلب منه «همة وانتظار» التعليمات. أما التوقيع فهو «وعد» ـ الاسم الذي كان المعلم وديع يستخدمه في تذييل رسائله. تفحّص كارلوس السلاح، شحنه بالذخيرة، وتركه ينام في حقيبة يده الجلدية السوداء.

كما هو متوقع، أقام كارلوس خلال تلك الفترة الطويلة علاقات متشعبة، أغلبها مع نساء جميلات، وبعض الرهبان اللاتينيين.




الشهيد كمال خير بك، قيادي في الحزب السوري القومي الاجتماعي من بلدة قرداحة في سوريا. استشهد وزميله بشير عبيد في بيروت على يد مجموعة يُشتبه بعمالتها للاستخبارات الاسرائيلية

في شهر حزيران/ يونيو عام ١٩٧٥، استدعى وديع حداد ميشيل مخربل إلى بيروت، وزوّده بتعليمات محددة ليحملها إلى كارلوس، تتضمن المهمات الموكلة إليه، والعودة بعدها إلى بيروت.

جهّز ميشيل نفسه للسفر إلى باريس. وهو يستعدّ لمغادرة مطار بيروت في السابع والعشرين من حزيران/ يونيو، استدعاه رجال المكتب الثاني بطريقة تشبه الاعتقال، مستفسرين عن رحلته إلى باريس وعلاقاته بالتنظيمات الفلسطينية. علماً بأن عناصر الاستخبارات اللبنانية ـ سواء ارتبطوا بالموساد أم لا ـ مرتبطون باتفاقات تعاون أمني مع الفرنسيين. أبلغ اللبنانيون جهاز مكافحة الإرهاب الفرنسي بشكوكهم حيال رحلة ميشيل مخربل إلى باريس. إنما سُمح له بالسفر. وما إن وصل باريس، حتى تلقفه رجال المكافحة، ونقلوه إلى مكان بعيد خارج المطار. أُخضع مخربل لوابل من الأسئلة، في جوّ من التحقيق الصارم. لاذ بالصمت حول طبيعة المهمات، لكنه اعترف بقدومه لمقابلة شخص يبحث معه أموراً

سياسية تتعلق بالشرق الأوسط. طلب رجال المكافحة من ميشيل مخربل أن يقودهم إلى هذا الشخص.

حسبما روى كارلوس فيما بعد، كانت التعليمات الصادرة من وديع حداد ألا يذهب لرؤيته أكثر من شخص واحد.

في تلك الليلة كان كارلوس يستضيف فتاة أرجنتينية. بينما هما يشربان كأساً من النبيذ، سمع كارلوس وقع خطوات على خشب الأرضية في الممر القديم. كان ارتطام عدة أقدام، لا قدمين اثنتين فقط، فقدّر أن يكون القادمون ثلاثة بدلاً من واحد! والحقيقة أن القادمين كانوا ميشيل مخربل وثلاثة ضباط من جهاز المكافحة (DST). نهض كارلوس بسرعة مرتدياً سرواله، وهيّأ مسدسه بعد أن انتعل حذاءه. جلس إلى حافة الأريكة مواجهاً الباب مواربة. وما إن توقفت الخطوات أمام بابه، حتى قال ضاحكاً: أدخل يا ميشيل، فالباب مفتوح. ودخل ميشيل والضباط. انطلقت أربع رصاصات بسرعة البرق، وتحول الواقفون بالباب إلى أربع جثث هامدة.

نظر كارلوس إلى الفتاة المذعورة، ابتسم وقدم لها وردة. انحنى قائلاً: سنتابع في المرة المقبلة. وأسرع نحو الشباك، فالسطح، فالفرار إلى مطار أورلي متّجهاً إلى بيروت، قبل أن يدري جهاز المكافحة بما جرى.

ـ لماذا قتلت ميشيل؟ سأل المعلم وديع كارلوس بعد وصوله بيروت.

ـ لقد خاننا والخائن يعدم. كان هذا جواب كارلوس.

فردّ وديع: لَكُنّا استفسرنا منه عن أسئلة الأمن اللبناني وأسئلة الأمن الفرنسي، فهذا مهم.

سعى المعلم وديع حداد دوماً إلى عمل فعّال، مثمر سياسياً، لخدمة قضية

فلسطين والأمة العربية، وحركات التحرر إجمالاً، والقوى الثورية الحليفة في البلدان الرأسمالية. وفي الوقت الذي انكبّ على التخطيط والاستطلاع، ودراسة العقبات، وإيجاد الحلول لها، كانت البرامج الأخرى مستمرة، هدفها إشغال العدو طوال الوقت، وعدم إعطائه فرصة ليرتاح. كان يرفع شعار «وراء العدو في كل مكان»، لكن الحقيقة كشفت أن العدو يلهث وراءه في كل مكان.

في آب/ أغسطس عام ١٩٧٣، دعا أنور السادات الرئيس ياسر عرفات إلى القاهرة، على أن يكون وفده مختصراً جداً، ومن قيادة «فتح» فقط، وليس من التنظيمات الأخرى. فتوجه ياسر عرفات إلى القاهرة، وإثر عودته عقد اجتماعاً للقيادتين العُلْيَيْن في كل من «فتح» والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، المرتبطتين آنذاك بعلاقات تحالف داخلي استراتيجي. سأل أبو عمار، بعد أن جال بعينيه بين الحاضرين: أين الدكتور وديع؟

أجاب الحكيم جورج حبش: إنه مسافر في مهمة، ولم يتمكن من الحضور.

علّق أبو عمار: كان ضرورياً أن يحضر هذا الاجتماع التاريخي.

دخل أبو عمار في صلب الموضوع: بسرعة واختصار «الحرب آتية». ومطلوب منا أن نشارك بفاعلية لنستفيد من عائدات الانتصار. أمامنا ثلاثة محاور. **المحور الأول**: محور الجبهة السورية (الجولان)، من خلال جيش التحرير الفلسطيني. **المحور الثاني**: الجبهة اللبنانية، من خلال قوات الثورة. **المحور الثالث**: العمليات الخاصة لإرباك العدو، وإنزال الخسائر بصفوفه.

تمّ الاتفاق، وبدأ التحرك. حينها، نقل أبو عمار مقر قيادته إلى البقاع الغربي، وأشرف بنفسه على توزيع وإعادة مَوْضعة القوات، وتشكيلات الأسلحة والمدفعية والصواريخ. ثم عُقد اجتماع مع قائد جيش التحرير الفلسطيني، لتنسيق الدور على جبهة الجولان.

أُجمع على إيلاء جيش التحرير الفلسطيني دوراً تطهيرياً على تلال الجولان: تل أبو الذهب، وتل الفرس، من الإسرائيليين، قبل تقدم الجيش السوري، من خلال القوات الفلسطينية الخاصة المحمولة بالهليكوبتر.

سقط في الموقِعة ٢٢٨ شهيداً من جيش التحرير الفلسطيني. ولقد استمعت بنفسي، في مقر قيادة جيش التحرير، إلى الحديث الدائر في كل طائرة بين قائد القوة والعناصر. لم أسمع في حياتي كلاماً يرفع المعنويات، ويشحذ الهمم استعداداً للتضحية، كما سمعت ذلك اليوم. تقدمت القوات على الجبهة اللبنانية مسيطرةً على سفوح جبل الشيخ. أما العمل الخاص، فحافظ على وتيرته. وكان أهم إنجازات «المجال الخارجي» في هذا الإطار، تشتيت الانتباه الإسرائيلي عن الجبهة المصرية، وجذبه نحو شوارع باريس ولندن وبيروت.

كانت تلك أفظع نكسة مُنيت بها الاستخبارات الإسرائيلية على مرّ السنين، مشكِّلةً هزيمة نكراء لجيش كان يتباهى بأنه أقوى جيوش المنطقة، وبأنه الجيش الثالث في العالم.

واصل وديع حداد التحضير للعملية الكبرى التي ستتّخذ، هذه المرّة، أبعاداً شاملة وعميقة. فهي تصوِّب السهام إلى عصب الحياة في البلدان الرأسمالية: النفط؛ وتكشف تحالف أنظمة معروفة بقهر شعوبها مع الإمبرياليين؛ وتُثبت أن المساعدات المغدَقة على إسرائيل من العالم الامبريالي هي جزء من أرباحه الطائلة التي يجنيها من أنظمة ودول نفطية مرتهَنة له.

وانطلاقاً من هذه المعطيات، كانت الأهداف عميقة البعد أيضاً:

أزمع وديع أن تدفع هذه الدول المال اللازم لتمويل الحركة المناضلة للتحرر من قيود الامبرياليين والصهاينة؛ وأن تعترف بحقوق الشعب الفلسطيني وعدالة نضاله؛

وبالطبع، أن تفرج، بما لديها من ثروات ونفوذ، عن أسرى الحرب من الفلسطينيين وحلفائهم الدوليين.

كانت هذه العملية كسواها مدخلاً للحلفاء، وإعلاناً عن مشاركتهم في العملية الثورية في القتال مع حركات التحرر ضد الامبريالية والصهيونية. كانت مدخل اللجان الثورية الألمانية الذي أتاحه لها المعلم وديع حداد.

بعد عودة كارلوس من باريس جلس ينتظر مهمة جديدة. فحتى الآن لم يتمكن كارلوس من دخول عالم «البطل» الذي رسمه له الدكتور وديع حداد، نظراً إلى انتكاس العملية الكبيرة التي كان من المفترض بكارلوس القيام بها بعد تلقّي التعليمات من ميشيل مخربل. كان المعلم وديع حداد قد أنهى كافة التحضيرات اللازمة لشن عمليته الضخمة الجديدة. فقرر المضيّ قدماً، وإعطاء كارلوس فرصة جديدة، فيفتح له باب الشهرة العالمية، وفي الوقت ذاته يتيح للخلايا الثورية الألمانية، التي أثبت أعضاؤها جدارة وقدرة، النزول إلى ساحة المعركة.

تشكّلت المجموعة المكلّفة من ستة أشخاص، بقيادة إيليتش سانشيز بعد خضوعه لتدريب خاص، بحيث استوعب كافة مداخل ومخارج العملية، وسُلّم كافة الوثائق اللازمة. أمّا فرق «العقل المدبر»، فقد جهّزت الأسلحة اللازمة، موضَّبةً في حقائب رياضية يستخدمها لاعبو التنس، مع مضارب التنس المتنوّعة في كل حقيبة، وثياب الرياضة (سروال قصير، وقميص رياضي أبيض، وقبعات رياضية، وأحذية التنس البيضاء).

حُدِّدت مواعيد الإقلاع، ومواعيد الوصول، وساعات اللقاء، ودقيقة التوجه معاً إلى مقر «الأوبك» في فيينا، عاصمة النمسا، حيث يعقد الاجتماع الوزاري لمجلس «الأوبك» (الدول المنتجة والمصدرة للنفط).

تحركت المجموعة يوم ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٥ باتجاه المقر، بعد أن

التأم شملهم وعقدوا اجتماعاً قصيراً جداً. سار أفرادها الهوينا، حاملين حقائب التنس. بعضهم حمل المضرب بيده، فيما الحقيبة على كتفه. كانوا يضحكون ويتندّرون أثناء سيرهم نحو الهدف.

شنّت المجموعة (ومن بين أفرادها غابرييلي كروخر تيديمان) الهجوم، بشجاعة وجرأة نادرتين، فجمعت الوزراء واحتجزتهم رهائن.

بعد ذلك، ردّ كارلوس على السلطات النمساوية التي شرع أمنها يستفسر عن مطالبهم. في تلك الأثناء، حاول أحد حراس وزير النفط العراقي، تايه عبد الكريم، أن يشهر مسدسه، فأطلق غابرييلي عليه رصاصة أصابته في الرأس. ارتعب الجميع، مطالبين بعضهم البعض بالهدوء وعدم الإتيان بحركة.

طلب كارلوس من السلطات النمساوية بث بيان صادر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حول القضية الفلسطينية وما يتعرض له الشعب الفلسطيني، وحقّه في الكفاح لتحرير وطنه، وحول الدول الداعمة لإسرائيل وعدائها للإنسان والحرية وحق تقرير المصير. وشدّد الطلب على بثّ البيان إذاعياً وتلفزيونياً، مرة كل ساعة وعلى كافة الموجات والقنوات.

إضافة إلى التزام السلطات النمساوية بهذا المطلب، كانت المفاوضات تسير على قدم وساق. طلب مقاتلو الجبهة الشعبية طائرة ومسلكاً آمناً للإقلاع. لم يرضَ قبطان الطائرة بوضع نفسه «تحت رحمة مسلّحين يختطفون عشرات الأشخاص ويحتجزونهم رهائن»، على حدّ تعبيره. بيد أن الضابط نيفيل أكينسون الذي خدم في الكلية الحربية الملكية سابقاً كطيار حربي، وافق على هذه المهمة. نشير إلى أن أكينسون كان آنذاك، وظلّ حتى فترة طويلة، الطيار الخاص للرئيس معمر القذافي، الذي ربما أقنعه بقبول المهمة ـ سواء بضمان سلامته أو بالإكرامية السخية.

أقلع أكينسون بالطائرة من فيينا إلى الجزائر، حيث بدأت مفاوضات من نمط جديد.

بالنسبة إلى كارلوس، فقاد المجموعة التي ضمت كلاين، صديقه الجديد. كان هانس يواخيم كلاين ينتمي إلى الخلايا الثورية الألمانية، وهو من أشد المتحمسين لأندرياس بادر وأولريكه ماينهوف اللذين سُجنا وقتلا في السجن على أيدي جلاديهما. كما ضمّت المجموعة غابرييلي تيديمان، وبعض المقاتلين الفلسطينيين.

هذه القيادة، وهذا العمل، وفّرهما الدكتور وديع حداد لكارلوس والخلايا الثورية الألمانية، مشرّعاً لهم أبواب العمل الثوري وعالم البطولة.

الفصل العشرون

المعلم وديع حداد رفض إعدام كارلوس متوقّعاً له الفشل

ترأّس المفاوضات مع كارلوس عبد العزيز بوتفليقة (وزير الخارجية آنذاك، والرئيس الجزائري الحالي)، وهو من أمهر المفاوضين، ذو شخصية محببة، وعقل منفتح وثقافة واسعة. كان متوقعاً، في حال هبوط الطائرة في مطار الجزائر، وإبداء الخاطفين رغبة في التفاوض، فيما هم جاثمون على أرض مطار هواري بو مدين، أن تتركز اتصالات الدول التي يحتجز الخاطفون وزراءها على الجزائر، وعلى بوتفليقة بالذات. لا شكّ لديّ في أن الاتفاقات التي عقدها بوتفليقة مع الدول، لا يعرف عنها كارلوس إلاّ القليل؛ وأن المبالغ التي حصل عليها كارلوس هي غيضٌ من فيضٍ ما دُفع.

تراجع كارلوس أمام عروض بوتفليقة، فلم يعد يفكر بتنفيذ تعليمات «المعلم». وتلك كانت بداية نهايته. لقد خلقه وديع ليكون بطلاً، لا ليكون خاضعاً للإغراء. عدم تنفيذه التعليمات أجهض التأثير المزلزل للعملية، كما خطط لها وديع حداد. كان بإمكان القائد وديع إرغام الدول، الواحدة تلو الأخرى على الرضوخ لمطالبه؛

ومع كل مطلب، كما تصوَّر، ستعلو موجة إعلامية لا تدع مجالاً لأحد في العالم إلاّ الحديث عن الفلسطينيين وحقوقهم.

عُرِض على كارلوس مليون دولار فدية عن كل وزير من المحتجزين، واللجوء السياسي، والإفراج عنه وعن فريقه لاحقاً، وحمايتهم من أي طلب تسليم لدولة من الدول ـ هذا ما نمي إليَّ من بعض أصدقائي الجزائريين ومنهم رجال أمن كبار. علاوة على فرض مبلغ عشرين مليون دولار عن كل وزير، تدفعه دولته.

هامت أفكار كارلوس في مرحلة ما قبل التحاقه بالجبهة الشعبية، فالثورة في فنزويلا وأميركا اللاتينية، ثم المبلغ الضخم المعروض (٤٠ مليون دولار، وقد يناهز ٥٠ مليون دولار). مبلغ كفيل بتفجير الثورة في فنزويلا، ولاحقاً في أميركا اللاتينية.

شعر، خطأً، بأنه قوي وقادر على اتخاذ القرار والتحكم، ظناً منه أنه وحده المسؤول، إذ سلّمه وديع حداد قيادة العملية. لكنه تناسى أن «المعلم» حدّد له الهوامش، وأن نجاح العملية يبدأ بحسم أيّ تردد أو تلكؤ قد تُبديه الدول، فيُعدم أول وزير نفط حتى يتأكد الآخرون من جديّة «المجال الخارجي» وحزم وديع حداد. قرَّ الخيار الأول بإعدام الوزير الإيراني. كان الوزراء يرتعدون خوفاً، حتى قبل تنفيذ الإعدام الذي لُمِّح إليه في الطائرة. حاول أحمد زكي اليماني، أكثر من مرة، التحدّث إلى كارلوس حول تلك الخطوة، موضحاً أنه بإمكانه تدبير المال له إذا كان الهدف من العملية تلقّي فدية. لكن بوتفليقة كان أسرع وأبلغ تأثيراً على كارلوس، فهو يملك ضمان سلامته وخروجه من هذا المأزق حاملاً له، أيضاً، أموالاً طائلة.

جرى الاتفاق المبدئي، فأفرج كارلوس عن عدد كبير من الرهائن، وطارت الطائرة إلى طرابلس، على أن تعود إلى الجزائر.

دفعت طرابلس قرضاً (Cash) نيابة عن الدول. وبعد عودة الطائرة إلى الجزائر أفرج عن الآخرين، وسلم كارلوس والفريق أنفسهم إلى الجزائريين الذين أنزلوهم تحت حراسة مشددة في منطقة نادي CLUB DES PINS على الساحل، حيث قصر الثقافة، ومجموعة من الفيلات الفخمة المعدة لاستضافة رؤساء الدول. وبحجّة انتظار شفاء هانس كلاين الذي أُرسل إلى المستشفى، استقرّ كارلوس والمجموعة فترة طويلة في الجزائر، كان خلالها موضع تكريم وحماية.

كتب بعض الصحافيين أن كارلوس عاد من ليبيا وفقَ تعهد ليبي بدفع مليون دولار شهرياً له ـ هذا ما لا علم لي به. لكنني أعلم أن ليبيا كانت، وربما لا تزال تدفع مليون دولار لمركز أبحاث عربي أسسه الدكتور وديع حداد في بيروت.

أخيراً غادر كارلوس الجزائر، وصدرت إليه الأوامر بالتوجه إلى عدن، فالتقى الدكتور وديع حداد بعد أن أمضى في طرابلس الغرب بضعة أيام.

عقدت قيادة العمليات الخاصة في عدن اجتماعاً لبحث الكارثة التي سببها كارلوس. تراوحت آراء القيادة بين حكم الإعدام رمياً بالرصاص، أو السجن، أو الطرد. أثناء اللقاء، كان كارلوس يخاطب الدكتور وديع بـ MASTER أي المعلم أو السيد أو العقل. احتدّ صوت الدكتور وديع حداد موبّخاً كارلوس: أنت منفّذ ولست نجماً سينمائياً. لا مكان لديَّ لممثلي السينما ونجوم السينما. لديّ مكان للأبطال الذين يضحون في سبيل قضايا التحرر والحرية، لا لمن يغريهم المال. لقد أفسدت علينا عملية تاريخية. شرح كارلوس الظروف، والقدرة على تحصيل مال للعمل. أجابه الدكتور وديع حداد: المال لا يصنع ثورة، والثورة التي يقودها رجال أبطال هي التي تصنع المال وتنتزع الحرية.

كانت القيادة قد تركت للقائد وديع حداد حرية اتخاذ القرار بالنسبة إلى مصير كارلوس، واضِعةً بين يديه كافة «الخيارات». أخيراً قال وديع حداد: لا مكان لك بين صفوفنا أيها «النجم» اذهب وابحث عن طريق الثورة. وعندما تحتاج مساعدتي

سوف أساعدك، إذا كان هناك ضرب للعدو وانتزاع للحرية. أصدرت تعليماتي بعدم التعرض لك، وباحترامك. فأرجوك أن تغادر. لا أريد أن أراك مطلقاً إلاّ إذا احتجت مساعدتي.

هكذا أسدل وديع حداد الستار على «مشروع بطل» لم يُنجَز.

كان كلاين يلازم كارلوس الذي شعر فجأة بضعفه من دون «المعلم»: مَن كان له سنداً ومرجعاً، يشعره بالأمن والطمأنينة. الآن عليه بنفسه أن يُشعر من يعمل معه بالأمن والأمان، وبأنه مرجعية ذكية وعقل مدبر.

برهنت التجارب أن كارلوس كان بحاجة إلى المعلم وديع، وأنه لم ينجح أبداً في أن يكون عقلاً مدبراً. صحيح أنه أصبح صاحب مشروع تنظيم، إلا أنه لم يمتلك عقلاً مخططاً.

شعرتُ بأسى لما جرى لصديقي، لكنني كنت أعرفه وأفهمه. فقد طغت الذات عنده في لحظات «الأوبك». فَقَدَ الحكمة فضاع. وودعت كارلوس. كأنه ابتسم لي. حدقتا عينيه مثقلتان بالحزن والتحدي والخوف من المستقبل. كان يخرج من الباب الذي فُتح له على مصراعيه، ليواجه عالماً جديداً محفوفاً بالدسائس، والإندساس، والتجسس، والملاحقة، والرغبة في الإنجاز وإنشاء تنظيم ـ عالماً من الحلم الثوري، الذي اكتشف كارلوس لاحقاً أن ما قاله المعلم عنه كان صحيحاً. «المال لا يصنع الثورة، الثورة تصنع المال». كم أتمنى أن أراه. فله في قلبي مكانة عزيزة.

الفصل الواحد والعشرون

عملية عنتيبي: إسرائيل نجحت بفضل عيدي أمين وليس بمهارتها

في الليلة التي هاجمت القوات الإسرائيلية المكوّنة من مئتي عنصر وضابط، ينتمي معظمهم إلى القوات الخاصة التي يطلق عليها في إسرائيل «سيريت متكال»، كان الدكتور وديع حداد يجلس إلى طاولة العشاء مع الرئيس الأوغندي عيدي أمين.

لم يذق حداد شيئاً من الطعام، بل كَلّ لسانه مطالباً عيدي أمين بتوزيع الرهائن على فنادق كمبالا. كان عيدي أمين يتشدّق قائلاً: سوف ألقّنهم درساً. لا تقلق، لقد وزعت كتيبتين من القوات الأوغندية حول مبنى المطار ـ مطار كمبالا القديم المهجور، الذي شيّدته شركة مقاولات إسرائيلية قبل فترة طويلة. ألحّ وديع حداد على الطلب قائلاً: نحن نعرفهم جيداً. لا شك في أنهم سيهاجمون المطار. فلماذا المجازفة؟ إذا وزعت الرهائن على فنادق كمبالا، سيعجز الإسرائيليون عن توجيه ضربة أو شن هجوم.

أكمل عيدي أمين عشاءه، فيما وديع يتحرق شوقاً لسماع موافقته. وإذا بالجسد

الضخم يتحرك أخيراً، فقال: سوف أصدِر تعليمات إستثنائية بالحذر واليقظة، ولا داعي لتوزيعهم على الفنادق. كان كلامه ردّاً نهائياً.

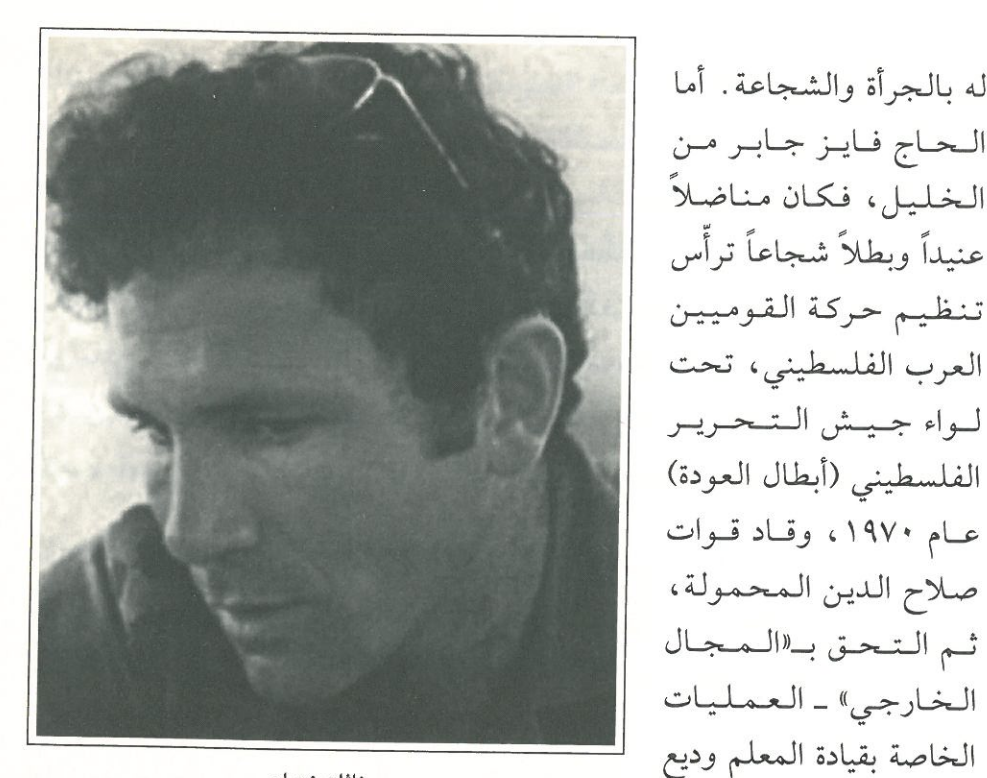
خرج وديع حداد من القصر إلى المطار، واجتمع بالمجموعة المسؤولة، ومن ضمنها الحاج فايز، وأبو الدرداء وجايل العرجا، والألمان التابعون للخلايا الثورية الألمانية (أمثال بريجيت كوهمان، وولفرد بويزي). ورغم أن وديع حداد طلب منهما الانسحاب والسفر بعد نجاح عملية الاختطاف، فقد آثرا البقاء والقتال مع المجموعة الفلسطينية في الهجوم الذي شنّه الإسرائيليون، إلى أن استشهدا جنباً إلى جنب مع كل من الفلسطينيين الحاج فايز جابر، وجايل العرجا، والعراقي أبو الدرداء ـ شهداء عملية مطار عنتيبي في أوغندا (٤ تموز/ يوليو ١٩٧٦).

كان ولفرد بويزي رئيس الخلايا الثورية. تسلم المسؤولية من بعده يوهانس واينريتش، عشيق مجدلينا كوب، وهي ثورية ألمانية تزوجت لاحقاً من كارلوس، إيليتش راميرز سانشيز.

كان وديع حداد على يقين من وقوع هجوم إسرائيلي، بإنزال قوات جوية على أرض المطار مزوّدة بمعدات ثقيلة وخفيفة. فقال لأفراد المجموعة، «كان الله معكم». غادرهم ويده على قلبه، وعقله يعرف أن عناد عيدي أمين سوف يُفشل العملية، وينزل خسائر فادحة. لكنه عجز عن إرغام عيدي أمين، الذي كان يتصرف كـ«الطاووس»، على توزيع الرهائن لإفشلال عملية إسرائيل.

استنفرت إسرائيل أجهزتها منذ لحظة الخطف. وما إن حطّت الطائرة في عنتيبي، حتى تحرّكت محطة الموساد المركزية الكائنة في نيروبي (كينيا).

قام فريق مكوّن من اثنين من أعضاء الخلايا الثورية الألمانية، وثلاثة قادة فلسطينيين، باختطاف الطائرة. بالنسبة إلى أبو الدرداء العراقي، فهو من المخلصين للدكتور وديع حداد وللجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ورجل مشهود



جوناثان نتنياهو

له بالجرأة والشجاعة. أما الحاج فايز جابر من الخليل، فكان مناضلاً عنيداً وبطلاً شجاعاً ترأس تنظيم حركة القوميين العرب الفلسطيني، تحت لواء جيش التحرير الفلسطيني (أبطال العودة) عام ١٩٧٠، وقاد قوات صلاح الدين المحمولة، ثم التحق بـ«المجال الخارجي» ـ العمليات الخاصة بقيادة المعلم وديع حداد. كان جايل العرجا القيادي المسؤول عن الجاليات الفلسطينية في أميركا اللاتينية، وعن العلاقات مع الفصائل الثورية اللاتينية. هو مسيحي من بيت جالا، مناضل شجاع، لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه.

زوِّدوا برشاشات كلاشنكوف، وعدد محدود من القنابل اليدوية، إذ رفض عيدي أمين تزويدهم بمزيد من الأسلحة لأن «قواته جاهزة ومستنفرة». كانت تعليمات ومخططات المطار بيد إسرائيل، فشركة المقاولات الإسرائيلية التي شيّدته زوّدت الجيش بها.

أما قيادة القوة الإسرائيلية جواً وأرضاً، فعُهد بها إلى جوناثان نتنياهو، شقيق رئيس وزراء إسرائيل الحالي، بنيامين نتنياهو. كان بنيامين نتنياهو أثناءها يعمل في شركة تسويق أميركية، ويحمل الجنسية الأميركية.

كان جوناثان ضابطاً متقدماً في القوات الخاصة «سيريت متكال». قاد قوة من مئتي جندي، مرفقين بطواقم طبية، وأجهزة واتصالات، وغرفة عمليات كاملة. أقلّتهم طائرة C-32 إلى نيروبي، حيث وُضعت اللمسات الأخيرة، وسرعان ما أقلعت الطائرة بهم عند ساعة الصفر إلى كمبالا، فمطار عنتيبي. أمّا على أرض هذا المطار القديم، فحَدث أمر مريب، إذ أصدر الضابط الأوغندي المسؤول الأمر إلى ثلثي القوة المنتشرة بالانسحاب من المطار، محتفظاً بالثلث، أي قرابة مئتي جندي. تلقّى هذا الضابط اتصالاً من صديق له في نيروبي، طالباً منه إصدار ذلك الأمر، ففعل. ثم غادر هو الآخر موقعه، فيما بقي الجنود المستاؤون وحدهم.

استشعر الحاج فايز والألمان هذا التحرك على أنه نوع من التآمر: علينا أن نواجه وحدنا، لذلك ينبغي اتخاذ مواقع مناسبة. اقترح بويزي استخدام الرهائن دروعاً لمنع الإسرائيليين من الوصول إليهم، إلاّ أن كلامه قوطع بطلقات من رشاش بريجيت، التي صرخت بأعلى صوتها، «إنهم يطوّقوننا». كانت الطائرة قد هبطت على مدرج بعيد قرب المبنى الجديد والمصابيح مطفأة، انطلقت سيارات الجيب المحملة بالقوات توزع العناصر، وبدأت المعركة.

أفرغ الحاج فايز رشاشه في قائد الحملة، من رأسه إلى أخمص قدميه، علماً منه أنهم يلبسون دروعاً واقية. كذلك فعلت بريجيت، فيما تمكن أبو الدرداء وجايل وبويزي من إطلاق بعض الطلقات.

وللأسف، سقطوا جميعاً شهداء.

في السابع والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٧٦، اختُطفت طائرة «إيرفرانس» (الرحلة رقم ١٣٩)، من طراز إيرباص A300، تحمل رقم التسجيل (F-VGG)، في الأجواء اليونانية متجهة إلى باريس. كانت الطائرة قد حطت في مطار أثينا، مقلِعة من مطار بن غوريون، في توقف قصير تكمل بعده رحلتها إلى باريس. كان على متنها ٢٤٨ راكباً، بطاقم مكون من ١٢ شخصاً.

اختُطفت عند الساعة الواحدة بعد الظهر بتوقيت أثينا بعد أن كانت قد أقلعت عند الثانية عشرة والنصف. أُمر القبطان بالتوجه إلى بنغازي، في ليبيا، للتزوّد بالوقود. لكن السلطات الليبية أخّرت عملية التزويد ريثما تستشير فرنسا والولايات المتحدة، في ما إذا كان من الأفضل تزويد الطائرة بالوقود أم لا، مهما حصل، ومهما كان رد فعل الخاطفين. اتّضح الهدف من عملية الاختطاف فور مطالبة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالإفراج عن أربعين أسير حرب فلسطينياً رازحاً في سجون إسرائيل، وثلاثة عشر معتقلاً آخر في سجون كينيا وفرنسا وسويسرا وألمانيا الغربية.

وأعلن الخاطفان الألمانيان، باسم العمليات الخارجية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أنهما، ابتداءً من ١ تموز/ يوليو، سيشرعان بإعدام الرهائن، في حال عدم تلبية مطالبهما. نصحت فرنسا السلطات الليبية بتزويد الطائرة بالوقود.

طلب الخاطفان إمدادهما بسلّم للطائرة، لإنزال رهينة حامل في شهرها السابع ربما تضطر للإجهاض، وهكذا كان. ما إن أزيح السلّم، حتى دارت المحركات واستعدّت الطائرة للإقلاع. أقلعت «الايرفرانس» من بنغازي إلى أوغندا، فمطار عنتيبي، حيث حطّت، وأُعلمت السلطات الأوغندية بعملية الاختطاف وبمطالب الخاطفين.

في تلك الأثناء وصل إلى أوغندا وفد من الجبهة الشعبية، العمليات الخارجية، برئاسة الدكتور وديع حداد، فاجتمع فوراً بالأوغنديين، طالباً مقابلة الرئيس عيدي أمين. فتحقق ذلك.

طلب وديع حداد من الأوغنديين السماح لهم بالتفاوض على أرض أوغندا، فوافق عيدي أمين. ونبّه وديع حداد إلى شروع إسرائيل في الإعداد لهجوم، فثمة معلومات لدى الجبهة تفيد بأن التنسيق يجري على قدم وساق مع كينيا، وأن

هنالك ضباطاً يعملون مع جهاز الاستخبارات الإسرائيلية، الموساد، ولهم صداقات في أوغندا.

وكما أسلفنا، طلب وديع حداد توزيع الرهائن على أكثر من فندق في العاصمة كمبالا، إلاّ أن عيدي أمين رفض ذلك، قائلاً: قواتي ستحمي الموقع.

صدرت الأوامر بالإفراج عن كل الرهائن، باستثناء الإسرائيليين كيما يُستبدلوا بالأسرى المطلوبين. إستعانت إسرائيل بالكينيين، واستخدمت خيوطها الاستخباراتية، فانسحبت معظم قوات عيدي أمين، وكان الهجوم. إستغرقت المعركة قرابة الساعتين، بحيث قاد دان شامرون العملية الإسرائيلية، فيما كان جوناثان نتنياهو قائد القوة، وقد قتل في المعركة. أما الثوار، فقتل منهم سبعة، بينهم بريجيت الشجاعة وبويزي رئيس الخلايا الثورية الألمانية، والقائد الحاج فايز جابر، وأبو الدرداء، وجايل العرجا. كما سقط أربعون من العسكريين الأوغنديين بين قتيل وجريح. في صفوف الرهائن الإسرائيليين، قُتل خمسة، وجُرح عشرون منهم برصاص الإسرائيليين. إضافة إلى جوناثان نتنياهو، قتل اثنان من كوماندوس سيريت متكال، وجرح عشرة منهم. حدثت تلك الموقعة في الرابع من تموز/ يوليو ١٩٧٦، أي عيد الاستقلال الأميركي.

كانت إسرائيل قد طلبت التفاوض مع الخاطفين قبل الأول من تموز/ يوليو، كسباً للوقت، ودرءاً لأي إعدامات. آنذاك، ضغط عيدي أمين على الفلسطينيين حتى يوافقوا، رغم أن الدكتور وديع أعلمه بكونها خدعة إسرائيلية، وبسعي الإسرائيليين إلى كسب الوقت، تحضيراً لهجومهم على عنتيبي. لكن وديع لم يكن صاحب القرار على أرض أوغندا، بل عيدي أمين. كان يتصرف كالطاووس الذي لا يرى بندقية الصياد.

طلب عيدي أمين إعطاء الإسرائيليين مهلة، حتى الرابع من تموز/ يوليو، ليتمكن من الذهاب إلى بورت لويس، حيث سيسلّم رسمياً رئاسة منظمة الوحدة الأفريقية



طائرة C130 الضخمة التي حملت السيارات العسكرية والقوة العسكرية الاسرائيلية الخاصة والتي هاجمت مبنى مطار عنتيبي القديم، بقيادة جوناثان نتنياهو

إلى الرئيس رانغولام. في الثالث من تموز/ يوليو اجتمعت الوزارة المصغرة في إسرائيل، وقررت السير قدماً بالعملية العسكرية ـ عملية «الرعد» OPERATION THUNDERBOLT، إنما بعد مقتل جوناثان نتنياهو حوّل الاسم إلى «عملية جوناثان»، وكلّف الجنرال يكوتيل آدم، مع نائبه مثان فلناي، بالإشراف على العملية كما كلّف البريجادير دان شامرون بقيادة العملية. رصد موشيه، نائب جوناثان نتنياهو، معلومات دقيقة، فصدر الأمر لأربع طائرات من طراز C-130 بالتوجه إلى عنتيبي.

كانت الطائرات تنقل سيارات جيب، ومدافع، وممثي ضابط وجندي، وفرقاً طبية، وأجهزة اتصال وكومبيوتر بإمكانها تعطيل الاتصالات عن دائرة واسعة، وقطع التيار الكهربائي عن دائرة أوسع.

هكذا أصبحت خريطة المسؤولين واضحة: رئيس الوزراء، وزير الدفاع، الجنرال يكوتيل، ونائبه فلناي، والبريجادير دان شامرون، وجوناثان نتنياهو، ونائبه موشيه بتسر (موكي).

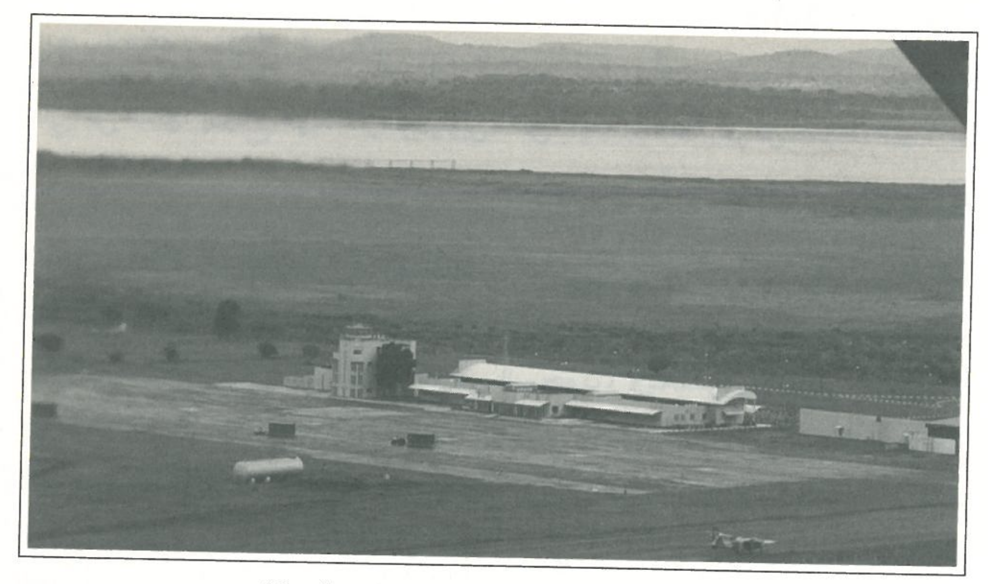
اجتازت الطائرات خط سير يمكّنها من الطيران على علوّ لا يسمح بانكشافها. فمن إيلات عبرت فوق شرم الشيخ، فالسواحل السعودية والسودانية والصومالية، متجهة جنوباً نحو كينيا، عبر أوغادين الإثيوبية. هبطت في كينيا لوضع آخر اللمسات، وتسلّم آخر تقارير محطة الموساد المركزية المكلفة بمتابعة الرحلة. أكدت لهم المحطة أن الأصدقاء أبلغوهم بحجز الرهائن في المطار، دون توزيعهم، وأن جزءاً من قوات عيدي أمين انسحب، وأن الضابط المسؤول غادر إلى بيته.

وصدر الأمر بالهجوم. هبطت الطائرات الأربع في مطار عنتيبي.

كان بوسع الطائرات الأربع شنّ حرب حقيقية لحمولتها الضخمة، وقدرتها على الطيران مسافات بعيدة دون توقف. دمرت القوة طائرات مهمَلة ومركونة، من طراز ميغ ١٥ استغنى عنها السوفيات بعد الحرب العالمية الثانية. بمعاونة فلناي، قاد نتنياهو الهجوم الأرضي. كان الإسرائيليون قد زوّدوا الطائرات الأربع بشحنات كافية من الوقود. وهكذا أقلعت الطائرات الأربع عائدة إلى نيروبي في كينيا، من دون الحاجة إلى إعادة التزود بالوقود، ناقلة مَن أمكن إنقاذهم من الرهائن والجرحى والقتلى.

نتائج العملية متوقعة منذ أن رفض عيدي أمين توزيع الرهائن، ومرسَّخة منذ أن ضغط على وديع حداد كي يؤجل الموعد النهائي لتنفيذ المطالب (الأول من تموز/ يوليو إلى الرابع منه)، مفسحاً للإسرائيليين مزيداً من الوقت للتحضير.

إذا ما رتّبنا العوامل المؤثرة في العملية، نلاحظ ما يلي:



صورة لمطار عنتيبي من الجو حيث وقعت المعركة

أولاً، لعب عيدي أمين دوراً أساسياً في فشل عملية التبادل، برفضه أهم خطوة كان وديع حداد يرغب باتخاذها ضماناً للانتصار ولإنجاح العملية: توزيع الرهائن على أكثر من فندق في العاصمة، ليغدو مستحيلاً على الإسرائيليين مهاجمة المقرات بهدف تحرير الرهائن.

ثانياً، أدّى مركز الموساد الرئيسي في أفريقيا، الذي اتخذ من نيروبي (كينيا) مقراً له، دوراً فاعلاً في تزويد إسرائيل بالمعلومات، لما لهذا المركز من عملاء في الجيش الأوغندي، بينهم ضباط كبار.

ثالثاً، مبنى المطار القديم في عنتيبي شيّدته شركات إسرائيلية، فسهُل على الإسرائيليين معرفة مداخله ومخارجه.

رابعاً، السلاح الخفيف بيد المقاتلين لم يضاهِ السلاح الإسرائيلي الذي اشتمل على مدافع غير مرتدة، وسيارات مصفحة حاملة للجنود، ومدافع مورتار (هاون)، وأجهزة تحكم بالمتفجرات عن بعد، وأجهزة تعطيل الاتصالات والكهرباء.

ثمة سؤال مهم يُطرح بشأن تصرفات الرئيس عيدي أمين. لماذا اتخذ القرارات التي من شأنها إنجاح مهمة الإسرائيليين؟ من أقنعه بذلك؟ أو من ضغط عليه؟ أو من دفع له؟

يسعُ القول إن إسرائيل والأجهزة المؤيدة لها حاولت خلق صورة بطولية خرافية ممّا قام به جوناثان نتنياهو والمجرمون العاملون تحت إمرته، ممّن كانوا يفتكون بأطفال فلسطين، ويعذبون الآلاف في السجون، ويحتلون أرضهم وبيوتهم، ويحكمونهم بالحديد والنار، ويرتكبون المجازر بحقهم. فالجرائم الجماعية قوتهم اليومي، والعالم لا يرى، أو لا يريد أن يرى، خشية اتهامه باللاساميّة. لقد ارتكبت الصهيونية المسلحة الاستيطانية في فلسطين جرائم فاقت فظاعات النازيين.

ومع ذلك، لن يستمر تزييف الحقائق ـ مثلما فعلت **ناشيونال جيوغرافيك** في فيلمها الوثائقي عن عنتيبي. الحقيقة أن الجريمة دُبّرت، فيما مُنع وديع حداد من اتخاذ الخطوات اللازمة لحماية مقاتلي الجبهة الشعبية والإفراج عن أسراها. لقد تعاون عيدي أمين وضباطه مع الكينيين والفرنسيين، لتصوير المجرمين الإسرائيليين كأنهم «سوبر مان»، خلافاً لما هم عليه في الواقع.

عندما ساهم الثوريون اليونانيون المتعاونون مع «المجال الخارجي»، في تمرير السلاح للطائرة في أثينا، عبّروا عن عمل ثوري لا يستهدف القتل، بل الإفراج عن المعذبين في سجون إسرائيل. كذا هو مسعى وديع حداد، وكذا استشهاد الألمان من أعضاء الخلايا الثورية. أما حلفاء إسرائيل، فقد ساعدوا الأشرار على ارتكاب الجرائم، وإبقاء شعب بأكمله في سجن هائل شديد الوطأة، سجن الاحتلال والترحيل.

الفصل الثاني والعشرون

أندرياس بادر، وأولريكه ماينهوف ـ تحالف «المجال الخارجي» مع الفصائل الثورية الألمانية

مثّلت عملية اختطاف طائرة «الإيرفرانس» من أثينا إلى عنتيبي الباب الرحِب الذي شرّعه القائد وديع حداد للحلفاء الألمان، إعلاناً عن مشاركتهم الفعلية في المعركة ضد الإمبرياليين وحلفائهم الاستعماريين، من خلال حركات التحرر الوطني.

روّجت إسرائيل أثناء عملية اختطاف الطائرة وبعدها، أن بويزي، رئيس الخلايا الثورية الألمانية، قد فرز الركاب بين يهودي وغير يهودي. لم تمتلك إسرائيل سوى الإدّعاء بأن أحد الركاب اليهود كشف عن رقم نُقِش على ذراعه في معسكر اعتقال للنازيين، وأن بويزي صرخ: أنا لست نازياً بل ثورياً. الحقيقة أن هذه الحكايات دعائية، وغير صحيحة، بدليل أن بويزي طلب فرز الإسرائيليين ليجري تبادلهم مع أسرى الحرب في سجون الاحتلال الإسرائيلي، فإسرائيل لا تهتم إلاّ بمواطنيها. لعلّ هذا هو عامل الضغط الوحيد الذي يجبرها على قبول عملية التبادل. كما لم يُفرز أي يهودي أوروبي لا يحمل جواز سفر إسرائيلياً. أما الرواية المزعومة عن راهبة رفضت الفرز، فدعاية بحتة، ولا أساس لها من الصحة.

القصة الصحيحة الوحيدة هي أن الكابتن أعلمهم برفضه تحمّل المسؤولية عن كافة الركاب.

نفّذ عملية الاختطاف ألمانيان من الخلايا الثورية الألمانية (RZ)، هما ولفرد بويزي، وبريجيت كوهلمان، اللذان استشهدا أثناء المعركة بين القوات الخاصة الإسرائيلية بقيادة جوناثان نتنياهو، وستة من مقاتلي الحرية (أربعة فلسطينيين وألمانيين) في مبنى مطار عينتيبة القديم حيث احتُجز الرهائن.

كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، العمليات الخاصة، «المجال الخارجي» قد نسجت علاقات تعاون وتحالف مع الفصائل الثورية الألمانية منذ السبعينيات. فقد ازدهرت في ألمانيا المجموعات الثورية الباحثة عن طريق للنضال من أجل رفع قبضة الرأسمالية عن رقاب الشعوب. كان اليسار الألماني منقسماً على نفسه، وربما زاده انقساماً الفشل الذي أصاب الحركات الثورية في باريس (الكومونة الجديدة) في أيار/ مايو ١٩٦٨، فضلاً عن هزيمة الحركة الطلابية الثورية التي تزعمها كوهين وقادها من ألمانيا.

بنهاية عام ١٩٦٩ أمكن الحديث عما يُسمّى بقايا الفصائل الثورية. فتشعبت التنظيمات: بعضها اهتم بقضايا المرأة، وبعضها بقضايا الشرطة، وبعضها بمهاجمة الأغنياء. وبرز من بين مفكري الفصائل الثورية كل من أندرياس بادر وأولريكه ماينهوف، اللذين انتميا إلى قيادة الجيش الأحمر الألماني وساهما فيها. تجلّى سؤال طرحته فصائل يسارية أوروبية، خاصة فرنسية، هو نفسه ممّا شغل بال الفصائل اليسارية الثورية الألمانية والإسكندنافية والسويدية والهولندية والنمساوية: ما العمل؟ كيف يواجهون أنظمتهم المستغِلّة، والمتحكّمة بقوتهم وقوة عملهم، فتجني الثروات من جهود الفقراء؟

تماماً، مثلما جذبت الثورة الفلسطينية اليابانيين واللاتينيين وغيرهم، نجحت في

استقطاب الألمان ولفتِ أنظارهم. فتوافدوا إلى الشرق الأوسط لدراسة الوضع عن قرب، والتعرف إلى الأفكار الجديدة التي طرحها وديع حداد.

فبعد عمليات ١٩٦٨ و١٩٦٩، وصمود الكرامة أمام الغزو الإسرائيلي الجديد للضفة الشرقية من نهر الأردن، اهتمّت هذه القوى بالشرق الأوسط، على اعتبار أن أحداثه تشكّل ميداناً بوسعهم أن يخوضوه.

مطلع عام ١٩٧٠، توافدت إلى الأردن مجموعات أوروبية باحثة عن طريق النضال، ومستكشِفة الفصائل الفلسطينية التي يمكنها التعاون معها، بهدف ممارسة أفكارها الثورية.

بما أن حركة «فتح» حازت الإنتشار الأوسع في أوساط اتحاد الطلبة الفلسطينيين، واتحاد العمال الفلسطيني في ألمانيا، كان اتصال الثوريين الألمان داخل ألمانيا، يجري مع «فتح» في أغلب الحالات. غالباً ما أحيلت هذه الاتصالات إلى صلاح خلف (أبو أياد) المسؤول الأول عن الأمن وعن العمليات الوقائية والهجومية خارج الوطن المحتل، بمعاونة أبو حسن سلامة (علي حسن سلامة).

لم يكن لقاء أندرياس بادر وأولريكه ماينهوف بأبو حسن سلامة مؤثراً أو مقنعاً من النواحي الفكرية والعملية. كذلك الحال مع مسؤول الجبهة الشعبية، محمد كتموتو. وفي ما يتعلق بالجبهة الشعبية، فقد ساد الغموض الجوانب العملية من التعاون، باستثناء الاستعداد لتدريب كوادر وأعضاء الجيش الأحمر الألماني. أما الشؤون الاستراتيجية والتكتيكية، فتركزت على مناهضة الامبريالية، وحليفتها الصهيونية الاستيطانية.

منذ ذلك اللقاء، أرسل الجيش الأحمر الألماني عدداً من الأعضاء والكوادر للتدريب في الأردن (نيسان/ أبريل ١٩٧٠)، إلى ان وقعت معارك أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، فخرجت قوات الثورة الفلسطينية من الأردن.

استُبدلت المواقع، فبعض التدريب كان يجري في لبنان، والآخر في عدن، وبعضه في العراق والجزائر. أما التدريب بإشراف الدكتور وديع حداد، فلم يستدعِ وجود ميادين، بل كان في أغلب الحالات يُنجز في غرف مغلقة، أو على متن طائرة، أو في مختبر.

في تلك الفترة، مرت الفصائل الألمانية بظروف صعبة انتقادات، ومزايدات. بات ضرورياً لأي فصيل يريد إثبات «يساره الألماني»، ممارسة العمل الثوري في ميدان المعركة من خلال حركات التحرر.

ولد أندرياس بادر عام ١٩٣٨، في ميونيخ (ألمانيا الغربية). توفي في مدينة شتوتغارت (ألمانيا الغربية) في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٧. هو من مؤسسي الجيش الأحمر الألماني.

كان بادر في السابعة والثلاثين عندما اتصل بقادة الثورة الفلسطينية. لم يلتحق بالجامعة، فأصبح متسكّعاً وعاطلاً عن العمل، قبل أن ينخرط ويساهم في بناء الجيش الأحمر الألماني.

بدورها صديقته، غودرون أنسلين، كانت عاطلة عن العمل، وناقمة على المجتمع الرأسمالي. ربما كان كلاهما ناقماً على الوضع بسبب فشلهما الدراسي وبيئتهما الاجتماعية، ما دفعهما إلى العنف والتطرف ضد نظام يفرز هكذا بيئة.

حكم على بادر بالسجن لسرقة محل تجاري. لكنه هرب، ثم أعيد إلى السجن. سمح له بالتعلّم في مكتبة قريبة من السجن إلى أن تمكّن من الفرار بمساعدة الصحافية أولريكه ماينهوف وفنانين آخرين. أطلق رجل ملثم النار تخويفاً، ليفرّ بادر.

في هذه الفترة سافر بادر وأولريكه إلى الأردن، حيث اجتمعا بـ«فتح»، والجبهة

الشعبية لتحرير فلسطين. غداة عودتهما من الأردن، قامت المجموعة المسمّاة «بادر ـ ماينهوف» بعمليات سطو على المصارف، وهجمات في المدن بهدف سرقة محلات. كان بادر مولعاً بسيارات الأغنياء، فاشتهر برغبته في سرقتها وقيادتها، حتى اعتُقل وهو يقود إحداها. وسرعان ما اعتُقلت المجموعة (تحديداً ماينهوف وآخرون). إستغرقت محاكمتهم تحت حراسة مشدّدة عامين تقريباً (١٩٧٥ ـ ١٩٧٧). أثناء تلك الفترة، أعلن المعتقَلون إضراباً عن الطعام. فجأة توفي مينز، قيل بفعل الإضراب. ولم يلبث الفيلسوف جان ـ بول سارتر أن قام بزيارة المجموعة في السجن، فعلّق قائلاً: إن ظروف سجنهم لا يحتملها البشر، فهي قاسية وغير إنسانية.

وُجدت أولريكه ماينهوف مشنوقة في زنزانتها، فيما اتهم أعضاء الجيش الأحمر الألماني السلطات الألمانية بقتلها.

بمرور عام على الاعتقال، طلب الجيش الأحمر والخلايا الثورية مساعدة القائد وديع حداد للقيام بعملية للإفراج عن زملائهم الأحد عشر في السجون الألمانية. فبدأ التخطيط لعملية اختطاف «اللوفتهانزا» إلى مقديشو؛ إلا أنها باءت بالفشل. مع ذلك، ساهمت العملية في كشف خفايا خطيرة، بين دول عربية وأجهزة الاستخبارات الغربية، للعمل المشترك ضد القائد وديع حداد.

أما أولريكه ماينهوف فلها قصة مختلفة، ذات خلفية مختلفة، وثقافة مختلفة. فهي امرأة متعلمة، تقرأ كثيراً، وتكتب أيضاً. كانت صحافية محترفة، ترأس وتحرّر نشرة تعبّر إلى حدّ بعيد عن آلام ومظالم الفقراء، والعمال، والعاطلين عن العمل.

ولدت ماينهوف في أولدنبرغ (ألمانيا الغربية) عام ١٩٣٤، فتكبُر بادر بتسع سنوات. قُتلت في زنزانتها في التاسع من أيار/ مايو ١٩٧٦ ـ بمعنى أن مَن اعتقلها شنقها. لكن السلطات الألمانية ادّعت بأن أولريكه انتحرت، كما بالنسبة إلى بادر.

الإدعاءان مثيران للشفقة والاستغراب. فكيف يمكن لأولريكه أن تشنق نفسها انتحاراً، وبادر أن يطلق على نفسه الرصاص وأن تبدو حروق البارود على يده اليمنى بينما هو أعسر؟ كيف يمكن لماينهوف أن تجد ما تشنق نفسها به، والحصار كان غاية في الشدة على زنزانتها، وعلى زنزانة بادر وعلى اللقاءات مع المحامين؟ كيف يحدث هذا بعد قرار الحصار الشامل الذي فرضته السلطات الألمانية على السجناء اليساريين، ومنه:

١. منع الاتصال.

٢. منع الصحف والراديو والتلفزيون.

٣. منع زيارات الأهل والأصحاب والمحامين.

٤. منع تحدّث بعضهم إلى البعض الآخر.

٥. منع الرسائل منهم وإليهم.

٦. منع الطعام المرسَل، والهدايا والسجائر، وأي شيء آخر.

في حصار شديد الوطأة كهذا، كيف أمكن حصول بادر على مسدس، وأولريكه على حبل مشنقة؟

تشير معلوماتي المؤكدة إلى أن قرار قتلهم اتّخذ في قيادة الأمن والاستخبارات الألمانية، وأن عدداً من الأوراق قد اختفى من ملف التحقيق الذي جزم بأن الرصاص أُطلق على بادر، ولم يطلقه هو على نفسه: ثلاث رصاصات، اثنتان منها على أرض وحائط الزنزانة. كما أن أولريكه ماينهوف شُنقت، بدليل آثار الضرب الظاهرة على كتفها وذراعها وجوانبها.

ليس هدف هذا الكتاب التحقيق في الجريمة، إنما أحيلكم إلى المرأة الوحيدة الناجية رغم أن صدرها طُعن خمس مرات. كيف ينتحر شخص بطعن صدره

خمس مرات؟ إنغمار مولر: هدّدتها الشرطة بتصفيتها جسدياً إذا هي تكلمت عن الموضوع.

شاركت الخلايا الألمانية في عمليات أخرى كعملية نيروبي، التي فشلت بسبب نجاح الشرطة السريّة الألمانية في استغلال علاقة الحب والزواج التي جمعت زكي هيللو بسيّدة ألمانية. كانت متزوجة سابقاً ولها طفل. هي مَن أبلغت الشرطة الألمانية بنيّة الجبهة الشعبية تنفيذ عملية قصف طائرة إسرائيلية بصواريخ أرض – جو.

نجحت الجبهة في إيصال كافة المعدات اللازمة، والمجموعة المنفذة، إلى منطقة مطار نيروبي. في غضون التنفيذ، غادرت السيدة الألمانية نيروبي. هاجم الكينيون الموقع، وخدَّر الإسرائيليون المجموعة المنفّذة، التي نُقِل عناصرها إلى إسرائيل مموّهين داخل توابيت. كان على رأس المخطوفين المخدّرين قائد المجموعة، العقيد أبو حنفي، الذي سبق له أن ضرب ناقلة النفط كورال سي (CORAL SEA) عند باب المندب. رغم الشكوك المُثارة حول السيدة الألمانية، ما انفكّ زكي المتيّم يدافع عنها، فلم تُعتقل. واظبت على زيارته والعودة إلى ألمانيا، لكن الدكتور وديع حداد أمر بإبعادها كلياً عن دائرة المعلومات، وبإبعاد زكي أيضاً، عن الدائرة كي لا يسرّب أي معلومة دون قصد.

يسعُ القول إن علاقة الخلايا الثورية مع «المجال الخارجي» أعطت الخلايا الثورية بعداً فكرياً جديداً، ما مكّنها من التوجه إلى اليسار الألماني، بمنطق تحليلي سليم. بذلك لم تعد الصفة الغالبة في الشارع الألماني، لهذه المجموعة، صفة اللصوص أو المشردين العدوانيين. بل أقامت المجموعة اتصالات مع رجال فكر وسياسة، مرموقين ومؤثرين في المجتمع الألماني.

كاد اختطاف هانس مارتن شلاير، رجل الأعمال الألماني الشهير، ينجح، لولا تداخل عدة عوامل جعلت من شلاير ضحية دون مبرر. ألقى الجيش الأحمر

القبض على شلاير في الخامس من أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٧، لمبادلته بأسراهم وتلقّي فدية. كان هانس شلاير شخصية مرموقة في عالم الأعمال. فهو رئيس اتحادين مهمين من اتحادات رجال الأعمال الألمان: اتحاد المشغلين الألمان، وفدرالية الصناعيين الألمان.

ارتقى شلاير حتى كاد يرأس مجلس إدارة دلمر ـ بنز، وحاز عضوية مجلس إدارتها. أما في عام ١٩٦٨، مع ثورة كوهين الطلابية، فأظهر شلاير موقفاً متشدداً جعله أقرب إلى الخصم الرئيسي للعمال والفقراء. نُصب له كمين، واختطف من سيارته. ثم اقتاده أعضاء الجيش الأحمر إلى جهة مجهولة. سبق لِشلاير، المحافظ المتطرف واليميني الذي لا يلين، أن عبَّر عن ضرورة تنظيف المجتمع الألماني من هذه القذارة، التي تطلق على نفسها إسم الجيش الأحمر. قضى في الاحتجاز شهراً ونصف الشهر، إذ اتخذت الشرطة الألمانية موقفاً رافضاً أيَّ تفاوض.

ما لا يعرفه كثيرون أن من شجع الشرطة والسلطة على اتخاذ هذا الموقف من اختطاف شلاير، هم زملاؤه في مجلس الإدارة، ممّن أرادوا التخلص منه في شركة دلمر ـ بنز.

من جانبها، أبلغت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهي آنذاك في طليعة التحالف الدولي، أن بإمكانها منع إراقة الدماء، مقابل حل وسط وافق شلاير عليه. لكن ثمة من سعى إلى التخلص منه، فكان لهم ما أرادوا، خلف ستار رفض الرضوخ لمطالب الإرهابيين.

لم ينته الأمر مع الجيش الأحمر، ولا مع الخلايا الثورية حتى يومنا هذا. إن تنظيمات كهذه تولِّد مثيلاتها، طالما أن الظروف التي ولّدت الأولى في مطلع السبعينيات ما زالت قائمة ـ لعلّها مفاجأة للكثيرين وهم يقرأون صفحات هذا الكتاب. ستبقى استراتيجية وديع حداد حيّة، ما دام استغلال الأغنياء للشعوب

الفقيرة قائماً، وما دامت الإمبريالية في الشرق الأوسط مهيمنة، في ظلّ تعاون الاستعمار مع الاستيطان الإسرائيلي. فطالما أن الإسرائيليين يرتكبون المجازر ضد الفلسطينيين، ويحتلون أرضاً سورية، وأرضاً لبنانية، إضافة إلى مجمل الأرض الفلسطينية، ستثبت استراتيجية وديع حداد أنها الأقدر على زعزعة مواقعهم.

لا شك في صعود موجة جديدة من العنف الثوري. ليس ابن لادن وسواه ممّن يتماهون به ثوريين، استناداً إلى تحليل وديع حداد العلمي. فالعمل المدمر، دون هدف سياسي ملموس، هو تشويه لسمعة الثوريين ـ كما جرى في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، في نيويورك.

إن ملاحقة العدو القوي، وتوجيه ضربات مؤذية لمفاصله الضعيفة، وتعطيل مصالحه، هي الطريقة المثلى المعتمدة لإنهاكه.

الفصل الثالث والعشرون

وديع حداد أحدث النقلة النوعية في الحركة الشيوعية الإسكندنافية

شهدت المجتمعات الإسكندنافية (النروج والسويد والدانمارك) الظروف نفسها التي اختبرتها المجتمعات الأوروبية في الستينيات. لم تخفّف الأزمة الاقتصادية في تلك الدول، كما في دول أوروبية أخرى (كفرنسا وألمانيا وإيطاليا)، وطأتها على الأحزاب السياسية، ولا على الاستقرار الاجتماعي فيها. أثار الأمر اهتمام الدكتور وديع حداد، على أثر الصدام الأيديولوجي بين الصين والاتحاد السوفياتي، فامتدت آثاره على العالم أجمع، بشكل خاص على الأحزاب الشيوعية. إنما التأثُّر الأبلغ ظهر في الأحزاب الشيوعية الأوروبية، التي ترافقت أزمتها الداخلية والأزمة الأيديولوجية الصينية ـ السوفياتية، والركود الاقتصادي في العالم الرأسمالي.

دؤوبة هي متابعة الدكتور وديع حداد تلك التطورات. هي حقيقة قد تفاجئ الكثيرين، وربما تفاجئ عدداً ممّن عملوا مع «أبو هاني» بعد هزيمة الـ ١٩٦٧. عزمت اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب على إحلال نظام اللامركزية في الحركة بدلاً من المركزية، بحيث يقوم كل عضو بمهامه النضالية في ساحته

الوطنية، ارتباطاً بالتوجه المركزي للحركة، بهدف التحرر من القبضة الإمبريالية، ودعم الوحدة العربية، وطرد الغزاة من فلسطين، وتحرير أي جزء من الأرض العربية يحتله الاستعمار.

إستعرت الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، وانخرط القوميون العرب مساهمةً ومشاركة ودعماً، وما لبث الأعضاء الجزائريون أن انضموا كلياً إلى جبهة التحرير.

لم تقتصر الأحداث على الجزائر. ففي اليمن انطلقت ثورة تكلّل كفاح القوميين العرب فيها بطرد الإنكليز من عدن، وتالياً الاستقلال.

وبينما كانت الأحزاب الشيوعية تتشرذم بين موسكو وبكين، وتنفصل عن الأحزاب الشيوعية تنظيمات وتشكيلات ثورية مشتّتة الهوية، فكرياً وعملياً، شهدت حركة التحرر العربي تصاعداً متواصلاً أرعب زعماء الإمبريالية والصهيونية، الذين انهمكوا بالتآمر على القوميين العرب، وقائدهم الروحي جمال عبد الناصر، وقادتهم الفعليين، حركة القوميين العرب، وحزب البعث الاشتراكي.

انشغل الدكتور وديع حداد، آنذاك، بنشاطات حثيثة لتسعير نار الثورة على الاستعمار في كل بقعة من الوطن العربي. كان يخوض نضالاً لعسْكرة الحركة، أي لتحويل حركة القوميين العرب إلى حركة نضالية مسلّحة تقاتل على كل الجبهات، ضد الرأسمالية الإمبريالية والصهيونية الاستيطانية التوسعية. وما لبث أن نقل إليه أعضاء قياديون في حركة القوميين طبيعة المخاضات اليسارية الخطيرة التي هزت كيانات الأحزاب الشيوعية الأوروبية. تأثّر عدد لا بأس به من الكوادر القيادية في حركة القوميين العرب، ممّن تابعوا دراساتهم العليا في الدول الأوروبية، بمخاضات أوروبا، فحاولوا التأثير في المواقف الفكرية والتوجهات الأيديولوجية لحركة القوميين العرب. وبما أنهم من نخبة المثقفين، فقد ارتبطوا بعلاقة خاصة بمجلة **الحرية** التابعة لحركة القوميين العرب، والصادرة في بيروت.

أذكر من هؤلاء: فايز مغلي، وأسامة العندبي (باريس)، وسفيان عبد الرزاق (ألمانيا)، ووليد الحسيني (بيركلي ـ الولايات المتحدة)، والدكتور شهاب الدين (بيركلي ـ كاليفورنيا)، والدكتور يوسف سلام (بيركلي ـ كاليفورنيا). على ان أنشطَهم في محاولات نقد الفكر القومي، والدعوة إلى استبداله بالفكر الماركسي اللينيني هم الشباب الذين كانوا يدرسون في باريس، متأثرين بما جرى في فرنسا داخل الأحزاب الشيوعية، وبالنشاطات الثورية؛ فضلاً عن حركة ثورية حنينية رائدها شاب لبناني إسمه ألكسي بيضا، الذي اتخذ له مركزاً وسط تجمع الطلبة اللبنانيين في المدينة الجامعية في «بيت لبنان».

عام ١٩٦٤، بادرَ وديع حداد إلى إرسال عدد من الشباب للدراسة في باريس، حيث سكن معظمهم في بيوت للرهبان، عاملين في مساكن الطلبة الداخلية، التابعة لجمعيات رهبان أو راهبات ممّن انتموا إلى الجيل الثائر في الكنيسة. كانت مهمة أولئك الشباب رصد الأحداث، وإرسال تقارير عنها إلى المركز. قاد مجموعة الشباب علي حسني فرج، طالب من جنوب لبنان (الرشيدية، قضاء صور)، فيما كانت الطالبات بإمرة طالبة شجاعة هي سمر بيضون.

بهذه الطريقة، تمكّن وديع حداد من الإلمام بالأحداث، فأخذ يبحث عن خيوط تقوده إلى العاملين على تفتيت الحركة القومية العربية، وضرب حركة التحرر الوطني، وتمزيقها في جدل لا طائل منه، في ظل الاستعمار العسكري والاستيطاني، وفي ظل ظروف اجتماعية قيد النمو، وتخلّف الصناعة، وتدهور أوضاع الطبقة العاملة، وغياب نظام زراعي سليم، وافتقاد الفلاحين المنظمين، وفي ظل خناجر وحراب المستعمرين والمستوطنين والتوسعيين المسلّطة على رقاب الشعب بهدف استعباده وامتصاص ثرواته. تعمّق حداد في ما كتبه زفيغنيو بريجنسكي: تدمّر الأمة عبر خلق دول الطوائف وتأجيج الصراع الطائفي والفئوي.

ما فتئت العدوى تنتشر في الشرق الأوسط. كانت الحرية منبراً للتعبير عن الرأي بصدد هذا الخلاف. فما العمل؟

كان محسن إبراهيم المشرف على **الحرية**، ميالاً إلى السير باتجاه ما يطرحه الدارسون في الغرب. كذلك فعل محمد كشلي. بدقة ومثابرة، تتبع وديع حداد الأحداث على الساحات الأوروبية. فأرسلني في نيسان/ أبريل عام ١٩٦٨ لأراقب الأوضاع في باريس، فألتقي أكبر عدد من المجموعات الثورية، ثم أزور الدول الإسكندنافية وإيطاليا، ولاحقاً أتوجه إلى الولايات المتحدة، للأهداف نفسها.

عشت أيام انتفاضة أيار/ مايو ١٩٦٨ في باريس. رافقني علي فرج طوال الوقت. أقمتُ في الأديرة ومساكن الرهبان والراهبات. كذلك فعلت في الدول الأخرى، إلى أن عدت بتقرير معمّق وشامل للدكتور وديع حداد الذي انكب على قراءته.

حالما التقيت به، بعد عدة أيام، قال لي: ما عدتَ به مهمّ جداً، واستناداً إليه علينا أن نضع خطة عمل لندلّ الثوريين الأوروبيين على الطريق السليم، ولنخلق منهم تحالفاً دولياً للقتال ضد معسكر الأعداء. يجب أن ندلّهم، لا أن يدلّونا. هم ضائعون، أما نحن فأقدامنا ثابتة تعرف طريقها.

تتبّع وديع حداد مخاضات الأحزاب الشيوعية واليسارية، منذ التصادم بين الصين والاتحاد السوفياتي. إستخلص دروساً وعِبراً، ساهم من خلالها في صياغة أيديولوجيا المحرومين والمستضعفين والمستعمَرين الذين سُلبوا حريتهم وأرضهم وثرواتهم.

تلك هي الأرض الصلبة التي ترسّخ فيها وديع حداد، وذلك هو التنظيم القتالي الخاص الذي ابتكره لمواجهة أعداء الشعوب. يحلو لجلّادي الشعوب تسمية هذه الأيديولوجيا، وهذا الكفاح من أجل الإنسان وحريته وقوته، «إرهاباً»، لكنه بالنسبة إلى الشعوب المستضعفة هو نضالها لانتزاع حريتها وحقوقها ممن سلبها. الجلّادون هم من استعبدوا البشر، وجرّوهم بسلاسل إلى عمل السخرة.

الجلّادون هم من نهبوا ثروات الشعوب في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية. فالمُدافع عن نفسه يمارس حقه لتحقيق العدالة ـ أبسط حقوق الإنسان ـ وصون الحق ليس إرهاباً.

وضع وديع حداد خطته العملية لترجمة الفكر السياسي المحفّز لعمله الثوري. اقتضت الخطة تأسيس أول تحالف دولي، يكون فيه اليسار الثوري الدولي شريكاً في القتال ثوّار العالم الثالث، ضد الرأسمالية الظالمة والصهيونية التوسعية الاستيطانية. كان تكتيكه سليماً. ففي غضون توجيه الجبهة الشعبية ضربات قوية إلى مفاصل العدو، كانت الفصائل اليسارية والحزب الشيوعي الدانماركي تمر بأزمات داخلية بدوافع ذاتية وأخرى موضوعية. فقد شهد اليساريون الدانماركيون ظروفاً شبيهة بتلك التي مرّ بها اليساريون الأوروبيون (أصاب الحزب الشيوعي الدانماركي ما أصاب الأحزاب الشيوعية الأوروبية). أخذ الحزب الشيوعي الدانماركي جانب موسكو، في النزاع العالمي بين موسكو وبكين. فنتج عن ذلك انشقاق عدد كبير من كوادر الحزب، ومحاولة مجموعات متعددة إنشاء أحزاب جديدة.

كان غوتفرد أبل أحد نشطاء الحزب الشيوعي الدانماركي. إنتقد الحزب، مستاءً من هيمنة البيروقراطية عليه، وتحوله إلى مؤسسة شبيهة بشركة رأسمالية. كان غوتفرد أبل مسؤولاً عن الشؤون الإعلامية في الحزب. وهو من توصّل إلى اتفاق مع الصين لنشر مطبوعاتها باللغة الدانماركية من الدار التي تُصدر صحيفة الحزب الشيوعي الدانماركي.

في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦٤ أسس أبل شركة نشر وطباعة سمّاها «المستقبل»، فانتزعت عقد طباعة المنشورات الصينية من دار صحيفة **الأرض والشعب**، التابعة للحزب الشيوعي الدانماركي.

علاوة على ذلك، أسس غوتفرد أبل تنظيماً، وأصدر دورية شهرية، هي

الشيوعي. أما التنظيم فأطلق عليه إسم KAK (كاك)، فور الإعلان الرسمي عن تأسيسه، في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٦٣.

على أن مأثرة غوتفرد أبل (كاك) عكست نضاله في شباط/ فبراير عام ١٩٦٥، في أول مظاهرة دانماركية تأييداً للقتال الفيتنامي، ومقاومة الأميركيين، بحيث رفع شعاراً ذكياً التفّ حوله مئات الآلاف «لا للحرب».

أمكن القول إن تفكير غوتفرد أبل بإنشاء لجنة فيتنام، ورفع شعار وقف الحرب، جعل منه قائداً للتيارين اليساري والليبرالي معاً، وساهم في استقطاب عدد كبير من المواطنين إلى حزبه.

ساهمت دار النشر «المستقبل» التي أنشأها، في بعث الفكر الماوي في أوساط الرافضين لسياسة الحزب الشيوعي الدانماركي التقليدي. طبعت هذه الدار عشرات آلاف النسخات من أهم كتب ماوتسي تونغ، وخطابات القادة الصينيين.

على الرغم من النجاحات الباهرة التي حققها غوتفرد أبل على الصعيد الشعبي، لجهة توعية الأجيال إلى ما تخططه أنظمتها الرأسمالية الجشعة، والتزامه التحليل الصحيح، والتحديد الصائب لهوية أعداء الشعوب، فهو عجز عن التحرّر من أسرِ السؤال: «ما العمل؟» إلى فضاء الإجابة المحدّدة: «برنامج العمل». بالتالي، انضم أبل إلى مجموعة الفصائل الثورية الأوروبية المنشقة عن الأحزاب الشيوعية التقليدية، سواء أعلنت ولاءها لموسكو أو لبكين.

كان لا بدّ من إيفاء غوتفرد أبل حقه. فهو أول من طرح نظرية رشوة الأنظمة الرأسمالية فقراء مجتمعاتها، بتزويدهم جزءاً من الأرباح الضخمة. كذا هي السياسة المتّبعة أيضاً من قِبل الأنظمة الرأسمالية الظالمة في دول العالم الثالث. قال أبل: إن جشع أنظمة الرأسمالية الإمبريالية دفعها إلى استخدام كل ما لديها من قوة لامتصاص دماء شعوب العالم الثالث، فجنت أرباحاً طائلة تفوق الخيال،

لتعيش في بحبوحة، بينما شعوب العالم الثالث المنهوبة تتضور جوعاً بعد أن سرق الرأسماليون ثروات بلادها. وأضاف: حتى فقراء المجتمعات الرأسمالية عاشوا، ولا يزالون، عيشة مريحة، مستفيدين من رشوة الرأسمالية لهم على حساب شعوب العالم الثالث.

هذا الشق الأساسي من التحليل يشبه إلى حدّ بعيد تحليل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وإنْ تكن رؤيتها أكثر واقعية وشمولية، بحكم نضالها في العالم الثالث.

ففي العام ١٩٦٣، ظهرت بوادر انشقاقات عميقة في الأحزاب الشيوعية في العالم أجمع. كانت الجبهة الشعبية سبّاقة إلى طرح التحليل متكاملاً، فربطت بين الرأسمالية الجشعة التي تنهب الشعوب، والاستيطان. فالشركات الرأسمالية، التي استعبدت الهند وباكستان وجنوب أفريقيا والصين وغيرها من الدول والشعوب، هي وجه آخر من عملة إسرائيل الاستيطانية التوسعية. ويخطئ من يظن أن ثمة فرقاً بين ممارسات النهب الإمبريالي، وتصرّفات بعض حكّام هذه الشعوب، ممّن سهّلوا، وما فتئوا، عمليات النهب من أجل فتات المائدة.

تمخّضت عبقرية وديع حداد عن قناعات لا تتزعزع، مفادها أن مواجهة أعداء الشعوب تستلزم تضافر جهود حركات التحرر الوطني، والفصائل الثورية في العالم الرأسمالي الجشع. فإزاء جبهة عالمية من الرأسمالية الجشعة وأتباعها من المستعمرين التوسعيين وعملائهم في العالم الثالث، لا بدّ من توطيد جبهة متراصة من المقاومين، مكوّنة من حركات التحرر الوطني، والقوى الثورية الإقليمية والدولية.

كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تخوض الكفاح المسلح على أرض المعركة داخل فلسطين المحتلة، ومن خارجها ضد القوات الإسرائيلية. إبتكر وديع حداد نظريته ليطبقها من خلال الجبهة الشعبية ودائرة العمليات الخاصة، التي كان يشرف عليها ويقودها شخصياً. لم يقتصر الأمر على هذه النظرية، بل امتلك وديع

حداد إجابة على سؤال الثوريين الأوروبيين الغاضبين، إنطلاقاً من أساس موضوعي لعمل ثوري عالمي مشترك. لذلك هلّل غوتفرد أبل، ورفاقه وتنظيمات يسارية فاعلة، ترحيباً ببرنامج الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وتحديداً التحالف الأممي وأهدافه.

إنها الرؤية الفكرية السياسية التي تفتّق عنها ذهن وديع حداد، والنابعة من صلب الواقع العربي والفلسطيني. فنحن أمة متخلّفة، مستعمَرة، مستغَلّة إلى أبعد الحدود. واجب أية امة، اولاً، التخلص من الاستعمار، الاقتصادي والاستيطاني والتوسعي. لن يتحقق هذا الهدف الوطني على يد الطبقة العاملة، فلا طبقة عاملة لدينا لعدم وجود صناعة. إذاً الماركسية متعذّرة التطبيق، ورأس المال هو مصدر بلاء وقهر وفقر العالم الثالث.

رأى وديع حداد أن الانتماء متبادل وجدلي: الفصائل الثورية في الدول الأوروبية، بانخراطها في نضال حركات التحرر الوطني، إنما تحقق أمرين، **أوّلهما** التصدي لأنظمتها الإمبريالية الجشعة، **وثانيهما** مساعدة الشعوب الفقيرة في انتزاع حريتها وإنقاذ ثروتها المنهوبة. فسوف تؤدي الفصائل الثورية العالمية، لا سيما تلك الناشئة في البلدان الرأسمالية، دوراً نضالياً، جنباً إلى جنب مع شعوب العالم الثالث المحرومة. الأولوية هي ثورة المحرومين لانتزاع الحرية، وإزالة الاستعمار الاستيطاني التوسعي (إسرائيل). فكان الالتحام؛ وقاد وديع حداد هذا التحالف الدولي برؤية استراتيجية واضحة. يحلو لكثير من أجهزة الأمن، والأقلام المدافعة عن هذه الأجهزة الظالمة، الاعتقاد بأن موت إنسان يعني القضاء على فكره. لكن الحقيقة مغايرة تماماً، فالديمومة ميزة الفكر والموقف السليمين، وإن مات صاحبهما. ولادة الفكرة لا تعني التصاقها بصاحبها، بل يغدو لها أتباع مؤمنون بها، ملتزمون بتطبيقها.

حظيت بيروت بامتياز اللقاء الأول بين غوتفرد أبل ووديع حداد، بحضور السيدة

أُولا هوتون. كان لقاءً هادئاً وخجولاً، بدأ بالتعارف. وسرعان ما حرّك الدكتور وديع حداد الجو بنفسه، فانهال على غوتفرد أبل بجمل قصيرة واضحة وحازمة، حدّدت العدو والصديق، وأسلوب المواجهة وتكتيكاته. فقال: الثوريون الإسكندنافيون مطالَبون باتخاذ إجراءات أمنية معقّدة ودائمة، تفادياً لكشف عضويتهم وبالتالي أعمالهم. فبحسب تصورنا، للثوريين الإسكندنافيين دور إسناد ودعم وتخزين وحماية، وطرق اتصال وتوصيل. يجب ألا يلفتوا الانتباه إليهم، بل أن ينجحوا في إدخال الشرطة والاستخبارات في دهاليز لا يخرجون منها.

وختم: إن بلادكم هي المراكز الأساسية للموساد. ولإسرائيل التوسعية حلفاء أقوياء بين سياسيّيكم وصحافتكم. لذلك عليكم توخي أكبر قدر من الحذر، فأنتم تتحركون بين فكّي الذئب.

أكد حدّاد أن الجبهة الشعبية تسعى إلى تحالف دولي يعيد فكرة النضال الحي والفاعل، والدخول في ميدان القتال الفعلي، ضد الإمبريالية الظالمة والصهيونية التوسعية.

صمت وديع حداد، فيما استرسل غوتفرد أبل في التفكير وهو يدخن غليونه. فكان جوابه الموافقة دون تحفّظ. انتقل المعلم وديع حداد إلى البند الثاني على جدول أعمال نظري. فالجبهة الشعبية تدرك أن فقراء الدول الإسكندنافية أفضل حالاً من نظرائهم في أوروبا. فمهمات الثوريين في هذه الدول ستكون مميزة عن مهمات الثوريين الأوروبيين الآخرين.

في نهاية الاجتماع، اتّفق على إرسال أول مجموعة من الكوادر لتلقّي التدريب الحساس والخاص في «المجال الخارجي» ـ العمليات الخاصة. شدّد الدكتور وديع حداد على تدريب المجموعة الأولى ثم المجموعات التالية، في دائرة الجوازات، أي دائرة المطابع حيث تُصنع جوازات السفر للتمويه، بأعداد قليلة جداً، وبأمر مباشر من الدكتور وديع حداد فقط، حتى لا تنكشف. وبالفعل، لم

يُكتشف جواز سفر واحد على أنه مزوّر، من قبل أي جهاز أمن على وجه الأرض. كانت هذه الدائرة حساسة لدرجة أنها زوّدت بقسم تصوير دقيق جداً (ألماني)، وقسم فرز ألوان، وصباغة ورق، وأدوات متقدمة لتحليل الورق، وقسم طباعة، ومصنع جوازات يحتوي أرقى ماكينات الطباعة في العالم (سويسرية، وألمانية، وإيطالية)، وقسم خياطة الجوازات، ومختبر خيطان، وأدوات طيّ وتغليف، ناهيك عن دائرة كمبيوتر لم تمتلكها دول.

إستغرق التدريب ستة أسابيع. وفي أكثر من حالة، اضطر الدكتور وديع للتخطيط لعمليات هدفها الحصول على آلات محددة، أو ورق خاص يمنع بيعه أو تسويقه. نُقلت بعض الأجهزة المسروقة في ألمانيا الغربية، من مواقع حساسة عبر معبر برلين الشرقية، إلى بيروت. كما هُرّبت كميات من الورق السرّي الخاص، الممنوع تداوله، من سويسرا إلى دائرة الدكتور وديع حداد.

أحد أنشطة التدريب، فتحُ آلة الأقفال المعقّدة، فضلاً عن مهارات أخرى، مثل تهريب المتفجرات بشكل يتعذر على أجهزة الأمن اكتشافها، كأنْ يُصنَّع هيكل سيارة كامل من مادة مركبة متفجرة. توالت نجاحات دائرة المختبرات والاختبارات، لا سيما في صناعة مناظير ليلية، وأقلام توقيت لمدة طويلة، باتّباع نظام التفاعل الكيميائي البطيء، وحقائب متفجّرة، ونبيذ أحمر متفجر. خضع رجال (كاك) لجملة التدريبات تلك.

من جانبه، قطع وديع حداد شوطاً بعيداً في العمل على مقارعة الإسرائيليين والإمبرياليين، كمَنْ يلعب الشطرنج ضد عدوّ خبيث ماكر. حليفاً عضوياً لحركة التحرر الوطني الفلسطيني عبر بوابة المعلم وديع حداد، دخل الثوريون الدانماركيون ميدان المعركة.

الفصل الرابع والعشرون

التحالف الدانماركي «التفاحة»

عام ١٩٨٩، أطلقت أجهزة الأمن في إسكندنافيا (النروج والدانمارك والسويد) إسم عصابة شارع بلاكانج – على المجموعة الثورية الدانماركية، الحليف الرئيسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. فغداة تلقّي إحداثيات إستخباراتية، تمكنت أجهزة الأمن من العثور على مخبأ خزّنت فيه هذه المجموعة كمية من الأسلحة والمتفجرات والمعدات العسكرية، بينها مناظير ليلية وأجهزة كومبيوتر وضعت يدها عليها بفضل معلومات من معسكرات الناتو في الدول الإسكندنافية، لتكون تحت تصرف التحالفات الثورية في وجه الأنظمة التوسعية الدموية في الشرق الأوسط، ومصالحها في كل مكان. يقع المخبأ في ذلك الشارع، فبات هذا الاسم الإعلامي رمزاً صحافياً إلى المجموعة الثورية، التي كان يطلق عليها اسم «تفاحة» في أوساط الجبهة الشعبية، نسبةً إلى اسم مسؤول المجموعة غوتفرد أبل. هي في الأساس إحدى ثلاث مجموعات، انشقت عن الحزب الشيوعي الكلاسيكي الدانماركي في أواخر الستينات.

كانت الحركة اليسارية الدانماركية، بكافة فصائلها، تمرّ بظروف قاهرة ومتناقضة، كتلك التي اختبرتها الفصائل اليسارية الأوروبية كلها في صيف ١٩٦٨. ولعلّ

انتفاضة الغاضبين على الرأسمالية والأحزاب الشيوعية الكلاسيكية في أيار/ مايو ١٩٦٨ في باريس، هي الشرارة الأولى، بحيث انتشرت كالنار في الهشيم في جميع أنحاء أوروبا.

تداعت الانشقاقات في الحركات اليسارية، مصحوبة بفشل الانتفاضة الأوروبية في تحقيق أحلامها وبرامجها، أسوةً بعجز الأحزاب الشيوعية الكلاسيكية عن إحداث أي تغيير، باستثناء تحولها إلى مؤسسات اقتصادية وثقافية وعمالية، إزاء الرأسمالية العالمية الامبريالية. إن توطيد العلاقات الكفاحية بين فصائل الطبقة العاملة الأوروبية وحركات التحرر، كفيل بخلق جو ديالكتيكي مناسب لتوجيه ضربات إلى النظام الرأسمالي الظالم والمسيطر في أوروبا وأميركا.

قرّ الرأي على إجراء اتصال مع الشرق الأوسط، حيث كانت الثورة تتنامى ضد الاحتلال الصهيوني التوسعي، حليف الرأسمالية الظالمة. فلا بدّ من البحث المعمق بين منظّريهم والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «المجال الخارجي»، لترسيخ الروابط الأيديولوجية والسياسية، سعياً إلى وضع برنامج عمل كفاحي مشترك للقتال ضد الرأسمالية الظالمة (الإمبريالية)، وضد الصهيونية التوسعية الدموية وامتداداتها في كل مكان. تحركت هذه المجموعات عبر ممثليها القياديين نحو الشرق الأوسط عام ١٩٧٠. وصل إلى الأردن ممثّلو تحالف «كاك»، و«كوف»، و«كا أم كا». بصفته مؤسّس حزب «كاك» ومنظّره الأيديولوجي، ترأس غوتفرد أبل الوفد، ترافقه زوجته أُولا هوتون (التي وافتها المنية عام ١٩٨٩، قبل ثلاث سنوات من وفاة زوجها). خاضا حواراً معمقاً مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، مناقشين الأسس الموضوعية لبناء تحالف بين حركة التحرير الوطني الفلسطيني والثوريين الأوروبيين. فكلا الطرفين يقاتل دفاعاً عن النفس، وعن الحقوق والعدالة، ضد الإمبريالية في مدّها الرأسمالي العدواني على شعوب العالم الثالث، وضد حلفاء الإمبريالية وشركائها في عمليات النهب الجماعي لدول العالم

الثالث، إضافة إلى الجرائم الجماعية والمجازر المرتكبة بحقّ الشعوب في كل من فيتنام وفلسطين وجنوب أفريقيا. فلا ريب في أن الظروف تحتّم استخدام حدّ أدنى من القوة للدفاع عن النفس، وإضعاف الآلة الشرسة الإمبريالية والصهيونية الدموية التوسعية، فضلاً عن محاربة العنصرية والفاشية بكل الوسائل الممكنة، في كل مكان.

عاد غوتفرد أبل وأُولا هوتون إلى الدانمارك بالنتائج المهمة والإيجابية، لإطلاع سائر أعضاء قيادة التحالف. وسرعان ما توافدت المجموعات الإسكندنافية إلى الشرق الأوسط، بأعداد كبيرة، بدءاً من عام ١٩٧١. كان الوافدون مهيّئين لأداء ما يلزم، من قبيل تقديم المساعدة الطبية والإنسانية في المخيمات (أطباء وممرضين وأدوية). نُظّم برنامج دقيق لهذا النوع من الوافدين، إذ كان الأطباء من جميع الدول الإسكندنافية يقضون ستة أشهر في عيادات شعبية في المخيمات، بإدارة وإشراف مجموعة من الطبيبات (آن شارلوت، وشارلوت وكينا). كما حطّت في معسكرات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين دفعة من عشرات المقاتلين، استعداداً للتدريب العسكري.

لم تطرأ صعوبات في ميدان التدريب، كون الشباب أنجزوا خدمتهم العسكرية في بلادهم. فانصبّ التدريب على التخصص، والتخطيط، والأمن، والمرافقة، والمتابعة، والبحث، وتحديد الأهداف وكيفية التعامل معها. بطبيعة الحال، ثمة قياديون يلازمون كل دفعة من الشباب الجاهز للعمل الثوري، وهم جميعاً من ذوي التخصص والخبرة والمعرفة المعمقة، كل في ميدانه.

من ضمن هؤلاء المتميزين، كانت الدكتورة ماريان (آن، اختصاراً)، من ألمع القيادات، لجهة اكتساب فنون التكتيك والتخطيط، والحفاظ على السريّة، وتغيير الشكل، والهوية. كانت على صلة مباشرة مع مارك الإنكليزي - إسمه الحقيقي مارك ريدينغ. هو أيرلندي أُرسل فترة عامين إلى الأرض الفلسطينية المحتلة،

طالباً في جامعة بيرزيت، بهدف المراقبة والمتابعة وإرسال معلومات حول معسكرات الجيش الإسرائيلي.

كذلك تميَّز بينهم نيلز يورغنسين (توفى عام ٢٠٠٨)، وتوركيل لورين، ويان وايمان الذي برز كأحد أهم قادة التحالف. كان ذا عقل بارع ولماح، ومتمرّساً في علوم الكومبيوتر، لا سيما اختراق شبكة كومبيوتر الشرطة، والبنوك، وأي شبكة يحتاج التحالف إلى معلوماتها. عاونه أخوه بو القدير في شؤون المختبرات. ولا نغفل كارستن نيلسون الجريء إلى حد المغامرة، في اندفاعه الحيوي للعمل الثوري. أحبّ الجميعُ شخصيته الودودة. تعرض لإصابات بالغة أثناء إحدى مهماته، في حادث سير أفقده بصره.

إنها لائحة من أعداد كبيرة أخرى، بعضها في إسكندنافيا، وبعضها في الشرق الأوسط (بيروت، عدن، بغداد).

عام ١٩٧٢ قمت بأول زيارة إلى إسكندنافيا، في مناسبة مهمّة. فقد دعيت لإلقاء كلمة في مهرجان شعبي عارم في كوبنهاغن لنصرة شعب فيتنام. كان عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفيتنامي المتحدث الرئيسي الوحيد في المهرجان. لكن رفاقنا في الحزب وفي تنظيم الجبهة الشعبية في الدانمارك، نجحوا بإضافة اسمي لإلقاء كلمة قصيرة بعد كلمة المسؤول الفيتنامي. فمن الضرورة بمكان ارتباط نضالنا ضد الاحتلال والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، بنضال شعب فيتنام ضد الغزاة. فالنضال لانتزاع الحرية هو نضال واحد لا يتجزأ، وأعداء الشعوب هم أنفسهم في فيتنام وفلسطين، والرأسمالية الظالمة هي مموّلة حروب الاستعمار والتوسع والاستيطان والعنصرية والفاشية. نالت الكلمتان، الفيتنامية والفلسطينية، استحسان الجماهير الهاتفين: فيتنام وفلسطين حرية واحدة لا تتجزأ.

في أعقاب المهرجان، أبلغني عدد من أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين العاملين في الدانمارك أن الرفاق الاسكندنافيين مستعدّون لتحمل مسؤوليتهم تجاه

وضعي الأمني، وأنهم رتبوا لي عدة لقاءات سرّية مع أعضائهم، لأحدثهم عن الأساس الأيديولوجي، ولأشرح لهم مخططات إسرائيل. غادرت المنزل الذي رتّبته لي الرفيقة بريجيت من كوبنهاغن. صعدنا زورقاً سريعاً إلى ميناء مالي في السويد، كسباً للوقت. في غوتنبرغ عقدت ندوتين، بمتابعةٍ من «كينا» ـ ممرضة سويدية، سبق أن خدمت في مخيمات اللاجئين.

كذلك الأمر في ستوكهولم. عقدنا ندوتين نهاريتين، أتيحت لي فرصة لقاء سائقي الباصات، وعمال القمامة، وعمال من مصانع فولفو، وزيارة مدينة التنك.

في المساء رافقني اثنان منهم إلى مكان يبعد عن ستوكهولم ساعة بالقطار. هي بلدة صغيرة قضينا فيها تلك الليلة. دخلنا بيتاً عامراً بالشباب والشابات، الذين صمتوا حال دخولي. اقتضى البرنامج أن أتحدّث مع الجيل الجديد من الحزب. انهالت الأسئلة. كانوا مأخوذين بالحديث عن المقاومة والبطولة في القتال ضد الطغاة. في الصباح أبلغني الرفاق أن عشرين شاباً سيتوجهون للتدريب.

غادرنا إلى كوبنهاغن، حيث قضيت الليلة الأخيرة قبل العودة إلى بيروت. التقيت بكتّاب وصحافيين ومصورين. تحدثنا عن العدالة والنضال الفلسطيني وأهدافه. كانت أجهزة الإعلام الصهيونية أفلحت في تسميم أجواء اسكندنافيا بالأكاذيب حول جرائمها وحول نضالنا.

اصطحبني رفاق الحزب للمبيت في مقر سرّي لهم، يبعد عن كوبنهاغن خمساً وأربعين دقيقة بالقطار. كان بيتاً ريفياً على قطعة أرض تشبه المزرعة.

عدت إلى بيروت بتقرير وخطط وأفكار، قدّمتها إلى الدكتور وديع حداد، ملخصاً له النتائج والاقتراحات.

منذ ذلك التاريخ تصاعد نشاط الاسكندنافيين، وتبلورت أفكارهم. لا شك في أننا

لمسنا بعض أوجه التعارض، لكنه كان ينصبّ على الاندفاع، ودرجته، مستوى القوة المستخدمة ودرجتها، لا على المبدأ أو الاستراتيجية. تدريجياً، تشكّل في ذهنية التحالف الذي أسسه وقاده الدكتور وديع حداد، دور خاص للثوريين في اسكندنافيا. ولأن لهذه الدول خصوصية، رأى وديع حداد أن دور الثوريين فيها يجب أن يحظى هو أيضاً بخصوصية. سنعود إلى ذلك في مكان آخر. دعا الدكتور وديع حداد قيادة الإسكندنافيين إلى اجتماع في بيروت، لبحث المستجدات وخطط العمل. فحضر وفدهم في شهر حزيران/ يونيو عام ١٩٧٢، والتأم الاجتماع.

الفصل الخامس والعشرون

الدانمارك قاعدة إسناد خلفية

سبق لغوتفرد أبل وأُولا هوتون زيارة الجبهة الشعبية في الأردن عام ١٩٧٠، فجالا في معسكرات التدريب التابعة للجبهة، واطّلعا على طرق اكتساب المهارات القتالية. في تلك الأثناء، شنّت الجبهة الشعبية عملية خطف الطائرات الثلاث الضخمة التي أُنزلت في صحراء الزرقاء، فاحتُجز عدد من ركابها، ممن يحملون جنسيات مزدوجة، إسرائيلية وأوروبية. زارا «مطار الثورة»، إنما طلبت الجبهة الشعبية منهما مغادرة الأردن. كان ثمة مجموعة قيادية من الحزب الدانماركي قد سبقتهما بزيارة مراكز تدريب تابعة للجبهة، في مناطق عديدة من الأردن، ضمّت المجموعة القيادية الدانماركية كلاًّ من جنس جنسن، وبيتر دوليز، وجورغن بلسن. وتفادياً لوقوعهم في فخ المعارك المحتمَلة آنذاك بين الجيش الأردني وقوات المقاومة الفلسطينية، نُصحوا بمغادرة البلاد.

أثناء مكوث غوتفرد أبل في عمان، كان أعضاء الجيش الأحمر الألماني يجتمعون بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إذ أجمعوا على قطع العلاقة مع الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، التي دربت أول مجموعة منهم. ولا ننسَ أن أندرياس بادر وأولريكه ماينهوف قد زارا عمّان لمقابلة علي حسن سلامة (أبو

حسن سلامة الذي كان مسؤولاً عن أمن «فتح» الخارجي). ونظراً إلى عدم اقتناعهما بالعمل مع «فتح»، تواصَلا مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأوصيا بالتحالف مع الجبهة استناداً إلى الأساس التحليلي لمواجهة الإمبريالية والصهيونية الاستيطانية التوسعية. فكانت الدعوة إلى إقامة تحالف دولي يمارس فيه ثوار العالم الرأسمالي دورهم الكفاحي عبر حركة التحرر، أي عبر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. في الوقت نفسه، كان أعضاء من الألوية الحمراء الإيطالية (PRIGADA ROSSA)، ومن الخلايا الثورية الهولندية، وأفراد ثوريون آخرون، من أمثال إيليتش راميرز سانشيز، ومارك كوهلر، قد التحقوا بصفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

تضمّن البرنامج نشاطاً داخل الدانمارك، لمساندة النضال التحرري الفلسطيني، من مالٍ وسلاح، وإعلام. بالنسبة إلى السلاح، خُطِّط لمصادرة كمية محدودة من الأسلحة والذخائر من معسكرات الناتو، وتهريبها خارج الدانمارك، كي يستخدمها مقاتلو التحالف الدولي، ضد الإمبرياليين والصهاينة المستوطنين والتوسعيين.

أما بالنسبة إلى المال، فكان إحدى مهمّات الحليف الدانماركي مدّ الجبهة الشعبية بالدعم المالي لمتابعة العمل، وذلك بتحرير جزء من الأموال التي نهبتها الرأسمالية الظالمة من شعوب العالم الثالث، واستثمارها للقتال، تحت شعار «وراء العدو في كل مكان».

اتُّفق في لقاء بيروت على انضمام «كاك» إلى التحالف الدولي الذي أسسه وديع حداد، وحدِّد برنامج العمل فيه بالعناوين العامة. ارتأى حداد استبعاد رجال ونساء غوتفرد أبل من المشاركة في عمليات خاصة حساسة خارج الدانمارك، بعد تجربة غير مرضية خاضها عنصران من أعضاء مجموعة «كوف»، كانا قد تدرّبا على المشاركة في إحدى العمليات. كانت النتيجة أنهما أصيبا بالخوف، فهرب الأول، وعاد الثاني إلى كوبنهاغن. وحافظ غوتفرد أبل على تعهدات «كاك» و«كوف» تجاه التحالف الدولي، فتنوعت النشاطات العلنية ذات القاعدة الشعبية العامة، ما وفّر

للتنظيم غطاءً ممتازاً. أطلقوا حملات لجمع الثياب، والأغراض المنزلية القديمة من المتبرعين، وشحنوا عشرات الأطنان لحركات التحرر والشعوب الأفريقية، مواظبين على تحرير الأموال وإرسالها إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

عام ١٩٧٧، عصفت بالتنظيمين أزمة خانقة افتعلتها هوتون المنادية بضرورة فرض عقوبات تصل إلى حد التعذيب عقاباً لمن يخطئ من عناصر الحزب. صدر قرار بفصل أُولا هوتون، ما أثّر في غوتفرد أبل، الذي بات يتململ إزاء أية قرارات عملية، خشية اعتقاله وكوادر التنظيم. وفي عام ١٩٧٨، فُصِل المؤسِّس من حزبه؛ خاض أبل معركة قانونية بشأن ملكية دار النشر، وغيرها من الإنتاج الفكري. ربح دعوى الحفاظ على اسم «كاك»، ما أرغم الثوريين المنتفضين عليه، على تغيير اسم تنظيمهم من «كاك» إلى «مجموعة العمل الشيوعي» COMMUNIST WORK GROUP. في مسألة النشر، تغير الاسم المعتمد من قِبل الحزب، من «فوتورا» إلى «مانيفست».

وفيما تقوقع غوتفرد أبل في خيمته الفكرية والنظرية، اندفع الثوريون الشيوعيون بإيمان أصدق وهمة أقوى، لتنفيذ ما يؤمنون به: خوض معترك الثورة العالمية ضد الإمبريالية، من خلال حركات التحرر، ودعم شعوب العالم الثالث المقهورة والمنهوبة ثرواتها. فواجب الثوريين في الدول الرأسمالية، في حده الأدنى، هو دعم وإسناد حركات التحرر، وأهمها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

لعب هذا التناقض بين دائرة العمليات الخاصة والجبهة الشعبية، دوراً في إذكاء التعارض والخلاف داخل كلّ من «كاك» و«وكوف». فقد خاض الحزب الدانماركي نقاشاً مطوّلاً حول الجهة التي ينبغي مساندتها: الجبهة الشعبية، أم دائرة العمليات الخاصة التي يقودها وديع حداد؟ صادف طردُ غوتفرد أبل وأولا هوتون من التنظيم، عام ١٩٧٨، مقتلَ وديع حداد بالسم، وكان في أحد مستشفيات برلين الشرقية. لم تتمكن دائرة العمليات الخاصة من سدّ الفراغ الذي

سبّبه غياب وديع حداد نظراً إلى الفرادة في قيادته، وقدراته، وعبقريته في التخطيط، ورباطة جأشه في التنفيذ. فعلى الرغم من حزم القيادة الجديدة، ومن تعاقب الأحداث، بعد دفن الدكتور وديع حداد في بغداد، لم تعد الأمور إلى ما كانت عليه إطلاقاً. أصاب فصائل التحالف الدولي حال من الوهن والتردد والضعف، وشعور بأنها باتت مكشوفة الظهر لأجهزة الأمن. وها هي الجبهة الشعبية، ممثّلة بمكتبها السياسي، تستعيد تدريجياً قدراتها الخارجية، دون التعاون مع القيادة التي تسلمت مقاليد دائرة العمليات الخاصة، وعلى رأسها سليم أبو سالم ـ من دون أن يعني ذلك إنكفاء «المجال الخارجي» نهائياً، بل أن «المجال» يحافظ على نوع من الروابط الداخلية بين قيادته وأعضائه، وعلى بعض العلاقات مع التحالفات الدولية.

إنما اتّضح للعالمين بالأحداث أن غياب وديع حداد سيؤدي إلى تجميد نشاط «المجال الخارجي»، والعمليات الخاصة التي كان يقوم بها. فالفرع الخارجي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الذي كان على عاتق المكتب السياسي، سوف يحل تدريجياً مكان دائرة العمليات الخارجية بقيادة وديع حداد.

أغلق حزب «كاك» مؤسساته المخصصة لإرسال الثياب إلى حركات التحرر الأفريقية وشعوبها، نظراً إلى ارتفاع الكلفة، ووهب الثياب للجمعيات الخيرية. إستمر العمل النضالي الداعم، الذي تحمّست له المجموعة الثورية الدانماركية؛ وتواصلت تكتيكات العمل المناهض للامبريالية والصهيونية التوسعية، ما يعني أن متابعة نضال هذه المجموعة الثورية، من خلال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، هو بثّ للحياة في استراتيجية الدكتور وديع حداد. لم ينقطع الدعم الإنساني للفلسطينيين، عبر تطوّع أطباء وممرضين دانماركيين للعمل في مخيمات لبنان. هذه العملية الإنسانية هي ثمرة جهود طبيبة دانماركية ثورية، عملت بإخلاص حضاري نادر لخدمة الفقراء في النواحي الطبية والإنسانية. قادت الدكتورة «آنا» العمل الطبي المشارك في النضال، محقّقةً نجاحاً باهراً.

اهتماماً من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بضرورة استعادة دوائر عمل التنظيم الخارجي، وإعادتها إلى فاعليتها المؤثرة، أجرت تعديلات في قيادة «التنظيم الخارجي». ورغم التعقيدات، أصبح المكتب السياسي مسؤولاً عن «المجال الخارجي».

معنى ذلك:

- تأسيس تنظيم الجبهة الشعبية حيثما يقيم فلسطينيون (باستثناء لبنان، وسورية، والأردن، وفلسطين المحتلة).
- إنشاء لجان النصرة والإسناد لنضال الشعب الفلسطيني، في الولايات المتحدة وأوروبا والدول الآسيوية (باكستان، الهند، وأفغانستان).

كانت الدول الإسكندنافية (ومنها الدانمارك) من جملة الدول التي أصبح «الفرع الخارجي» التابع للمكتب السياسي للجبهة الشعبية مسؤولاً عنها. وشمل برنامج «الفرع الخارجي» مهمات عديدة، كحال الدول الأخرى: تنظيمية (فلسطينية)، تحالفية (فلسطينية ـ دانماركية)، علاقات سياسية (رسمية، غير رسمية)، إعلامية، ومالية، إضافة إلى العلاقات مع النقابات المحلية. مثمرة هي الأعوام ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٠ من حيث النشاطات البارزة التي أدّاها الفرع: ملاحقة شبكات الموساد، القضاء على قيادة الموساد في اليونان، ورفد الجبهة الشعبية بالمال والمقاتلين، ناهيك عن دعم الثوريين الدانماركيين، والسويديين، والهولنديين، والفنلنديين، والإيطاليين.

في حزيران/ يونيو عام ١٩٨٢، شنّت إسرائيل اجتياحاً مدمّراً على لبنان؛ فبرهن «الفرع الخارجي» في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قدرته الفائقة على رفد الجبهة مركزياً بالمقاتلين والمتطوعين، والمال، والإعلام. لهذا النجاح قصة سنتناولها في الفصل التالي.

الفصل السادس والعشرون

وضع اسكندنافيا الخاص والمهمات الخاصة

أمسك غوتفرد أبل بغليونه، رافعاً إياه بين الحين والآخر، ومتابعاً النقاش، بينما كان الدكتور وديع حداد يتحدث ببساطة وسلاسة ووضوح، واصفاً معسكر الأعداء (أعداء الشعوب)، فيصنّفهم، ويسجل لكل جزء من هذا المعسكر دوره وجرائمه التي ارتكبها، ولا يزال، بحقّ الشعوب المضطهدة والأحرار في العالم. وفيما ركّز غوتفرد أبل حواسه ونظراته على وديع حداد وشرحه، كانت أُولا تُبدي استحسانها، وتومئ برأسها تأييداً. كانت بين الحين والآخر تطرح سؤالاً ثانوياً. علّق غوتفرد أبل في نهاية الحديث، مؤيداً التحليل الاستراتيجي الذي طرحه الدكتور وديع حداد، وحدد من خلاله معسكر الأعداء (أعداء الشعوب) ومصالحهم في العالم.

انتقل البحث إلى وسائل المواجهة، فشرح الدكتور وديع نظريته حول ميزان القوى المائل بشدة لمصلحة معسكر الأعداء، وحول تأثير هذا الميزان على التكتيك الواجب على القوى الثورية ـ الأضعف عدّة وعدداً ـ اتّباعه لإنزال الضربة الموجعة بمعسكر الأعداء. أذكر أن الدكتور وديع حداد كان يفصّل الموضوع كأنه جرّاح يعلّم طلابه الطريقة المثلى لاستئصال ورم من جسم المريض. قال: دبابة

حديثة وقوية جداً، مجهّزة بمناظير ليلية ونهارية وكومبيوتر وأجهزة رصد وتهديف. سلاح قوي. لا يملك الثوريون دبابة تضاهيها، لكنهم يعرفون كيف يدرسون هذه الدبابة من آلتها، إلى محركها، إلى جسدها الفولاذي، إلى مدفعها، وصولاً إلى أجهزتها الحساسة والدقيقة (إلكترونيات، وكومبيوتر، وأجهزة بث واستقبال).

وأضاف: المعرفة الدقيقة لأسرار أجهزة العدو تعني إدراك نقاط قوته ونقاط ضعفه، وتحديد الهدف، وكيفية إصابته وتحطيمه. لا خيار أمامنا سوى معرفة نقاط ضعف العدو، والتخطيط لضربها بقوة، كيْما نعطل الآلة الكبيرة. هذا هو التكتيك المتاح أمامنا.

عقّب أبل: هذا منطقي جداً. أوافقك الرأي.

واتّفقا على الشروع في التطبيق.

فقال وديع حداد: علينا البدء بالتدريب الخاص، لإتقان المهمات الموكلة إلى كل عنصر.

بعد لحظات من التفكير، أضاف قائلاً:

إن وضع الدول الإسكندنافية هو خاص، قياساً على الدول الأوروبية، ما يحتّم إيلاء الثوريين فيها دوراً خاصاً ومميّزاً.

في نهاية الاجتماع، قال الدكتور وديع إن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (فرع العمليات الخاصة) تعتقد أن للثوريين فيها دور إسناد ودعم، داعياً إلى العمل على قاعدة حليفة آمنة. فهذه فكرة أولية قابلة للنقاش والتمحيص، عملاً على اداء الدور بعد تحديده بوضوح.

غادر غوتفرد وأُولا إلى الدانمارك، حيث طرحا الموضوع، في اجتماع قياديّ لـ «كاك وكوف وكا». وافق الجميع، وشرعوا في انتقاء العناصر الذين سيُرسلون إلى الشرق الأوسط، للتدريب الخاص والمميّز. اكتسب أعضاء الفصائل الثورية الإسكندنافية مهارات عالية، بسرعة فائقة. ركّز التدريب على طبيعة المهمات التي ستلقى على عاتقهم. فاستعدّوا لتدريب عملي في بلادهم، فثمة أهداف تستحق التعب والعناء والمتابعة.

رأت إسرائيل في هذه الدول ملاذاً آمناً لشبكاتها الأمنية الإجرامية، لدرجة أن أجهزتها تمتعت بكافة الامتيازات: عومِل الإسرائيلي بصفة دبلوماسي خاص فوق العادة.

ساد الحزبَ مبدأ السرّية التامة، كي يتمرن الجميع على العمل السرّي: سرّية الأسماء، سرّية الهويات، استبدال الأسماء، التنكر، مراقبة الشرطة، التنصت على أجهزتها، اقتحام الكومبيوتر، الوصول إلى الملفات الحساسة والسرّية في أجهزة كومبيوتر وزارة الأمن والداخلية، والمصارف ووزارة الخارجية، والسفارات المحددة لهم. كان الاقتحام درساً مهماً من دروس السرعة في التنفيذ (الثواني والدقائق)، فضلاً عن الهروب دون تخليف أي أثر (لا بصمات، لا علامات). أما لجهة العمليات، فصدر أمر بألاّ يحمل أي منهم هوية، أو بطاقة ائتمان تدل عليه. الكل مجهول، والكل غير معروف. عشية البدء بتنفيذ العمليات، تسلّم أعضاء الحزب ملفات تفصيلية حول أسلوب حركة الشرطة، المتابعة، الملاحقة، التجسس. إنها طواقم متكاملة، قادرة على العمل والنجاح في أية لحظة. بهذا اكتمل التحضير والاستعداد.

إنطلق ثوريّو اسكندنافيا إلى حلبة القتال ضد الرأسمالية الظالمة والصهيونية الدموية التوسعية. سنشير لاحقاً إلى أهم العمليات التي قاموا بها، فرسّخوا الصلة مع الجبهة الشعبية.

كان ثائراً على الظلم، وعلى سلب الشعوب حقوقها، لا سيما حقها في تقرير المصير. رأى في ترابط نادي مستغلّي الشعوب، وناهبي ثرواتها، ومُصادري حريتها، ومستعمري أرضها، وحدةً متماسكة، وإنْ تنافس أعضاؤها جشعاً وطمعاً في دماء الشعوب. خطط وعمل من أجل وحدة وتماسك المضطهدين الرازحين تحت نير الاحتلال والاستعمار الاستيطاني، وبين أنياب مصّاصي دماء الشعوب.

تماسُك الضعفاء يمنحهم قوة للتصدي والدفاع عن النفس. لا، بل إن دفاع الضعيف قادر على إلحاق الهزيمة بالقوي المدجج. فهذه المقاومة شبيهة بمَن يزيل الصاعق عن قنبلة مدمّرة: الصاعق الصغير هو ما يشعل فتيل التدمير. إذا نزعته ـ وهذا لا يحتاج إلى قوة موازية لقوة القنبلة ـ تحولت القنبلة إلى كمية معطّلة من الخردة.

«وراء العدو في كل مكان» هو الشعار الذي رفعه وديع حداد والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لم يتوهّم يوماً أن الجبهة كانت قادرة بالمطلق على مقاومة ومواجهة العدو على جبهة واسعة (وسعها العالم)، بل تعمّد توجيه ضربات موجعة ومؤلمة، إلى عدو قوي، في أماكن الضعف من درعه الجبار: الكرّ والفرّ، و«اضرب واهرب».

سعى وديع حداد جاهداً إلى تطبيق هذا الشعار، وهذا التكتيك، في منطقتنا العربية، وعبر التحالفات في البلدان الرأسمالية الجشعة، المستغلة شعوب الأرض والمستعمرة أراضيهم والناهبة ثرواتهم. لا يظنّن جلاّدو الشعوب أن أفكار وتكتيكات وديع حداد قد دفنت معه، بل هي حيّة، لأنها تعبّر عن كل مظلوم، مكبّل، محروم الحرية، ومسلوب القوة. فطالما أن ثمة قوى استغلال جشعة، وقوى استعمارية استيطانية، تصْلي الشعوب عذاباً بالحديد والنار، وتستعبدهم بعد سلب حريتهم وحقوقهم كبشر، سوف تلتهب النيران مهما كانت ضئيلة وهامدة، في كل مكان تتمركز قوى المستعمرين. سوف تشهد تجمعات الرأسمالية الجشعة

انتفاضاتٍ عنيفة عاصفة، لأن أزمات الاقتصاد في مجتمعاتهم هي إفقار الفقراء، وتراكم أرباح المستغلين ـ كحال ذلك المليونير في نيويورك، الذي راكم ثلاثة تريليون دولار أثناء الأزمة المالية. سيثور الطلاب، والعمال، والمتقاعدون، والجنود العائدون من ميادين الهزيمة العسكرية. كما ستنتفض تلك المجتمعات على أنظمتها في دعمها العنصرية والاستعمار الاستيطاني في فلسطين، وفي مساندتها أنظمة فاسدة لا هَمّ لقادتها سوى جمع الثروات ـ وإنْ كانوا شركاء صغاراً للجشعين الكبار.

وديع حداد ليس فكرة، بل ثورة لم تهدأ، ولن تستكين، إلاّ بانتزاع الحرية وكسر الأصفاد وإعادة الحق إلى أصحابه.

الفصل السابع والعشرون

من قتل وديع حداد؟ من دسّ له السم؟

إسرائيل وحلفاؤها في الأنظمة العربية اغتالوا وديع حداد

كنت على يقين من أن الدكتور وديع حداد مات مسموماً، وأن جهة ما دسّت السمّ له.

أخبرني القائد الراحل أن السمّ قد دسّ له في ليلة من صيف بغداد (أواخر تموز/ يوليو ١٩٧٧)، أثناء تناوله القهوة بعد العشاء، في منزل الزعيم السياسي السوري أكرم الحوراني، الذي لجأ إلى بغداد، حيث كرّمه حزب البعث الحاكم في العراق.

قال لي الدكتور وديع حداد حرفياً: بعد العشاء جاء الخادم يحمل فناجين القهوة، فوزّعها على الضيوف، واضعاً لي فنجاني. ما إن رشفت منه رشفة واحدة، حتى شعرت بالغثيان، وبرغبة شديدة في التقيؤ. كان الشعور، فظيعاً لدرجة أنني انتفضت واقفاً، محاولاً الوصول بسرعة إلى حمام المنزل لأتقيأ. لكن الغثيان كان أشدّ وأسرع، فتقيأت في الحديقة قبل بلوغ الباب.

أطلعني القائد على هذه الوقائع أثناء زيارتي الأولى له في منزله السرّي في الجزائر.

فأيقنتُ أن السم قد دسّ له فعلاً تلك الليلة، في فنجان القهوة. أظهرت الأعراض المتفاقمة يوماً بعد يوم أن السم ينتشر ويتحرك بسرعة في جسد وديع حداد. في المرحلة الأولى، توالت عليه حالات الهبوط، وفقدان الشهية على الطعام، والدوار، والهذام، فالتقيؤ وعدم القدرة على الحركة، ثم عودة النشاط إلى جسده، والشهية، والقدرة على الحركة حتى اللعب مع كلبه في حديقة المنزل. ومن أعراض انتشار السمّ في جسده تساقط شعره، ما دفعني إلى استدعاء الدكتور نجيب أبو حيدر، والدكتور منير شماعة، والدكتور الخالدي إلى الجزائر، لأخذ عينات من الشعر، وإخضاعها لفحصٍ في مختبرين شهيرين، أحدهما في الولايات المتحدة، والآخر في اليونان. لم تتعرف تقنيات المختبرات على نوع السمّ.

ما انفك كلام وزير الأمن في ألمانيا الشرقية يرنّ في أذني. إذ سبق له أن حذّر الدكتور جورج حبش وأعضاء القيادة من سمّ يتغلغل في مسام الذوق في اللسان. هو سمّ مجهول لديهم، ولم يواجهوه من قبل. علاوة على تحذيره من تناول القهوة والشاي، أو أي مشروب، أو البهارات في مكان غير موثوق، مشدِّداً على وجوب التيقّظ لأمن مطبخه.

أجريتُ مطالعات وقرأت بحوثاً مستفيضة، لأعرف مسببات تكسّر كريات الدم الحمراء، وعجز الجسم عن إنتاج بديل لها من النخاع العظمي. فعلمت أن المسبّب الرئيس لتدمير قدرة النخاع العظمي على إنتاج الكريات الحمراء هو التسمم بحدّ ذاته، وأن التكسر عملية دائمة لتبديل الدم القديم بالجديد الذي ينتجه النخاع العظمي. ومن جملة العوامل الحائلة دون إنتاج الكريات الحمراء، سمّ الزئبق الذي يترسخ في النخاع، فيسدّه، ويشلّ قدرته على الإنتاج - كمن يضع إسمنت على نبعة ماء صغيرة فيسدّها؛ إضافة إلى التعرّض مطوّلاً لأشعة (X)، أو لأشعة الرادار. كما أن تناول دواء كلورو فينيكول (المستخدم ضد الحمى والتيفوئيد) بجرعات كبيرة يجعل منه سمّاً يُبطل القدرة على إنتاج الكريات الحمراء.

مع ذلك، لم يتمكن أي طبيب، أو مختبر، من تحديد نوع السمّ؛ فحتى أجهزة الاستخبارات التي تستخدم السموم، عجزت عن معرفة هذا النوع. لم نتمكن من معرفة نوع السم، إذ كان جديداً، غريباً. وقفنا عاجزين، فاقدين أي علاج، أو دواء، أو ترياق، إلى أن تمكن السمّ من وديع حداد، فتآكل جسده داخلياً، حتى الدماغ. توقف العمل في كل أنحاء جسده وفارق الحياة.

ظلّت وَمضات دماغه حتى أثناء مهاجمة السمّ خلاياه، وحتى الرمق الأخير، لامعةً، متحركة نحو هدف أوحد: متابعة النضال.

لن أنسى ذلك «التلكس» منه، قبل يوم من تفشّي السمّ في دماغه، طالباً إليّ الحضور إلى برلين في اجتماع عمل.

وما زال السؤال يقضّ مضاجعنا: من دسّ له السم؟

بعد أكثر من ثلاثين عاماً على اغتياله، اعترفت إسرائيل بدسّ السم له في الشوكولاته التي يحبها، في محاولة لتمويه وتغطية الفاعل، العنصر المباشر في دسّ السمّ. اعترفت إسرائيل، مؤكّدة ما كنا جازمين به ومعلنين عنه منذ لحظة وفاته. فالشوكولاته السويسرية لم تكن أبداً سبب الوفاة، باعتبار أن الدكتور وديع حداد لم يكن يحب الشوكولاته أو يتناولها - كما صوّرت الموساد - بل كان مولعاً بالموالح، إلى حدّ رغبته في تناول ورق العنب حامضَ المذاق. ومن المشروبات، آثر العرق اللبناني الذي لا يُشرب مع الشوكولاته. قطعاً، قد دسّ السم له في فنجان القهوة، تماماً كما روى بنفسه لي وللجنرال الأكحل العياطي، في منزله في الجزائر.

لماذا تحاول إسرائيل الخداع والتمويه بعد أكثر من ثلاثين عاماً على اغتياله؟ ليس ثمة سبب منطقي مقنع إلاّ سبباً واحداً: إنها تحاول التغطية على شركاء لها في عملية الاغتيال ما زالوا يمتلكون نفوذاً - أو ربما فقدوه. لكن إسرائيل ترفض

الإشارة إلى أي صلة أو تعاون معهم. فمن هي هذه الجهات، أو من هم هؤلاء الأشخاص؟ بالعودة إلى تلك الليلة المشؤومة، أثناء العشاء في حديقة منزل أكرم الحوراني، نستنتج:

- أن مَن دسّ السمّ في القهوة أخذ علماً بدعوة الدكتور وديع حداد إلى العشاء.
- أو أنه يعمل لدى أكرم الحوراني، فعلم بالدعوة.
- كان وضعُ السمّ سهلاً لدرجة أنه لم يتطلب أكثر من جزء من الثانية، فلا تُثار الأقاويل، ولا يُمسك بالفاعل متلبساً بالجرم.
- لا ريب في اطّلاع جهات عربية على دعوة العشاء، طالما أن الحضور كان قومياً، بحيث ضمّ أشخاصاً ينتمون إلى أكثر من بلد عربي (سوريين، وعراقيين، وسعوديين، ولبنانيين، وطبعاً وديع حداد).
- يُستبعد أن يكون الفاعل من بين الحضور، أو على صلة بأجهزة النظام الذي يواجهه ويتناقض معه رسمياً، ما سوّغ وجوده كمعارضة في بغداد.
- أي نظام عربي مستعدّ للعمل سرّاً، وبذلِ الأموال الطائلة للقضاء على وديع حداد.

إجابةً على هذا السؤال، لا بد من تسليط الضوء على الطريقة التي تصدّت بها مجموعة دول لوديع حداد، أثناء عملية خطف «اللوفتهانزا» إلى مقديشو، والتي انتهت بكارثة، وبإظهار القوات الألمانية الخاصة بمظهر بطل إنقاذ يُحسب حسابه.

وحدها عملية مقديشو تساهم في تحديد الجهة التي دست السمّ المزوّد من إسرائيل. علماً بأن هذه العملية لم تكن، في الواقع، ما خطط له وديع حداد. فقُبيل تنفيذ العملية، ضغط الحلفاء الألمان بشدة على الدكتور وديع حداد علّه يخطف طائرة ألمانية، لحملِ الحكومة الألمانية على الإفراج عن عدد كبير من أعضاء الخلايا الثورية الألمانية المعتقلين في ألمانيا، ممّن يسامون العذاب على

أيدي خبراء التحقيق ـ عادت الشرطة السرية الألمانية وقتلت عدداً منهم في الزنزانات، تحت غطاء الانتحار.

اقتضت الخطة الأولية خطف الطائرة إلى عدن ـ حليف وديع حداد الرئيسي حيث ستجري المبادلة. شهد العالم اتصالات معقدة وسريعة، شرقاً وغرباً، فيما الطائرة تتوجه إلى عدن بأمر من خاطفيها. أهم تلك الاتصالات ما جرى بين الألمان والسعوديين، وبين السعوديين واليمنيين في عدن. ولا بد من الإشارة إلى أن مركزاً مهماً من مراكز المتابعة التقط اتصالين خطيرين، بين بون والرياض وعدن. طلبت بون من أجهزة الاستخبارات السعودية منع هبوط الطائرة في عدن، مؤثِرةً مقديشو بذريعة أنها «لا تريد الاشتباك مع عدن». كذلك أكّدت بون أن طائرة القوات الألمانية الخاصة المحمّلة بالجنود المدربين، تلاحق الطائرة المختطفة، فاستأذنت الرياض العبور في الأجواء السعودية.

وكان ما كان: فُتحت الخزائن لتتدفّق مئات الملايين على كلّ من عدن ومقديشو. بحفنة من دولارات الاستخبارات السعودية، وبذريعة تلقّي التهديدات، اعتذرت عدن عن استقبال الطائرة. أمّا مقديشو، فرحّبت بها، حسب الأوامر التي تلقّاها مدير استخباراتها من الاستخبارات السعودية والألمانية. وما إن هبطت الطائرة، حتى أطفئت الأنوار، وجرى ما جرى.

تلك هي المؤشرات إلى أن الحرب على وديع حداد اتّخذت عملياً طابع التآمر الدولي. فللقضاء عليه، تحالفت جهات عربية مع أجهزة أوروبية متحالفة أصلاً مع الموساد. ومهما بلغ الإنكار، كانت الجهات العربية تعلم تمام العلم بهذه الحقائق. هي فقط تبنّتها بـ«عقلانية». وحرصاً على الوقت، طوّرتها بلقاءات استخباراتية مباشرة مع الإسرائيليين (في فرنسا وألمانيا وقبرص ومصر والمغرب وأراضٍ عربية أخرى. إنما الأخطر هو انعقاد بعض هذه اللقاءات في فلسطين المحتلة).

تُرى، في تلك الليلة ـ ليلة اغتيال وديع حداد ـ هل لعب العراق دوراً؟ هل كان لأجهزة الاستخبارات العراقية يد في العملية؟ فتاريخ الاستخبارات العراقية ليس زاهياً (من الكزار إلى حمدون، وسواهما). هل سار القاتل في جنازة وديع حداد؟ كان العراق بأمسّ الحاجة إلى علاقات جيدة مع الغرب، ومع السعودية، اللذين تربطهما علاقات وطيدة، ناهيك عمّا للغرب من علاقات وثيقة مع إسرائيل. إذا كان الكزار قد حاول قتل أحمد حسن البكر، ثم ولّى هارباً إلى الحدود الإيرانية، فما الذي يمنع جهاز الاستخبارات العراقية من السعي إلى التخلص من وديع حداد، أو أقلّه التعاون على ذلك؟

لحظة التأكد من نبأ وفاة وديع حداد، داهمت الاستخبارات العراقية كافة مقراته السرّية، فصادرت مطابعه الحساسة، المستخدمة في إنتاج جوازات السفر الدقيقة، والمخصصة للعمليات الخاصة. كانت هذه المطابع المركَّبة على أيدي خبراء مخضرمين، قادرة على إنتاج دولارات لا يمكن لِـ «فورت نوكس» تمييزها. لكن الدكتور وديع أصرّ على رفض التزوير، قائلاً: نحن مناضلون من أجل الحرية، ولسنا مزوّري عملة.

ما كان من الاستخبارات العراقية سوى تسليم هذه الأجهزة (بأقسامها الحساسة)، إلى أشخاص متعاونين معها، مشهود لهم بالتزوير. من جملتهم شخص يُكنّى بـ«العراقي»، مع أنه لم يكن عراقياً. قام بتزوير فئة المئة دولار التي هزّت الولايات المتحدة وسُمّيت «Super Ball» ـ ولا تزال أوراق من المئة دولار المزوّرة هذه، متداولة هنا وهناك. على أن أهم جهة تلقّفت عملية التزوير هي إسرائيل، التي جنّدت من يطبع لها (أو لعناصر من استخباراتها) كمية كبيرة من «Super Ball».

الخلاصة أن جهات عربية وغربية، وطبعاً إسرائيلية تضافرت لما لها من مصلحة في القضاء على وديع حداد.

أبى وديع حداد نقله إلى أي بلد عربي أو شرقي للعلاج، قائلاً: سوف يبيعونني لمن يدفع أكثر. إنها دول تبيع المناضلين عند أول تقاطُع مصالح.

فلماذا لا يقبضون ثمننا، طالما أنهم غير معنيين بنضالنا من أجل حريتنا؟ إنهم يرون فينا سهماً ضد عضو من جسدهم. فإذا كان ثمن هذا السهم أوفر عليهم من العضو، لماذا لا يبيعونه، وفي جعبتهم سهام كثيرة؟

فما هي الاحتمالات إذاً؟

قبل إيراد الاحتمالات المنطقية، لا بدّ من إجراء مقارنة بين ما سيَلي، وبين الظروف المحيطة باغتيال القائد ياسر عرفات.

الجهة المستفيدة، أولاً وآخراً، هي إسرائيل، فالدول الغربية، وحلفاؤها من الدول العربية.

الوصول إلى وديع حداد

حاولت إسرائيل الاغتيال المباشر، ففشلت. لم تترك باباً إلا طرقته:

- صواريخ على بيته في الملا (الصنايع).
- قصف بيته في الجبل (قرب بحمدون).
- تفخيخ شقته من السقف (الروشة).
- قصف مقر تدريب (صبرا).
- محاولات دس عملاء من أميركا اللاتينية.

وإذ باءت محاولاتها بالفشل، لجأت إسرائيل إلى حلفائها. اتُّفق على التعاون بين إسرائيل وأجهزة دول عربية لها مصلحة في التخلص من وديع حداد ـ سواء

تمثّلت هذه المصلحة في إرضاء حلفاء الدول العربية من الغربيين، أو في القضاء على قائد لا يتردد لحظة في تنفيذ عمليات تضرّ بمصالح حلفاء إسرائيل من الدول الغربية، وإن تكن هذه المصالح على أرض عربية.

بذلت إسرائيل جهوداً حثيثة، لزرع عميل لها في جهاز وديع حداد، إنْ بواسطة عضو من التحالف الدولي، أو فلسطيني ممّن يحيطون به. يبدو أن إسرائيل نجحت في الحالين: من ناحية، تمكنت من تجنيد استخبارات عربية للتعاون معها ـ ولو بمظهر غربي؛ ومن ناحية أخرى، ربما تمكنت من دسّ، أو شراء، عنصر من ضمن جهاز وديع حداد.

عام ١٩٨٩، زرت روما لمقابلة مسؤولين إيطاليين، حيث دعيت إلى عشاء في بيت صديق لوزير الخارجية الإيطالي. كان عشاء حافلاً بشخصيات من حملة الألقاب: بارون، دوق، ولي عهد، سفير، وزير. من ضمن الحضور، كان أحد الأثرياء اليهود، كندي الجنسية، يزور روما.

أثناء وقوفنا على الشرفة، تطرقنا إلى الحديث عن السلام.

قال: الموساد هزمكم؟

فأجبته: إنها ملاحظة عابرة. لكننا أنزلنا به ضربات موجعة أيضاً.

فضحك قائلاً: يكفي أنه تمكّن من وديع حداد.

إدّعيت البلاهة في محاولة لجرّه إلى الحديث، فقلت:

لكن الموساد نفى، أو على الأقل لم يعلن عن هذا. إذا صحّ كلامك، فهذا انتصار كبير لهم.

أجاب بابتسامة خبيثة: لا تريد إسرائيل جرّ التحقيق إلى الشخص المعني، لأنه

كان مقرّباً جداً من وديع حداد، وما زال في منصب حساس. إسرائيل تعمل بذكاء على المدى البعيد.

مرة أخرى، تظاهرت بالغباء، فسألته بصوت خافت يوحي بالكتمان: وإسرائيل تعرف من هو هذا الشخص؟

نظر إليّ وقال: نعم، لكن سيقتلونني إنْ أنا بُحت بهذا السر.

سواء أكان عالماً بالتفاصيل، أم مدعياً، فالأمر يلامس الحقيقة المنطقية: شخص مقرب من وديع حداد دسّ له السمّ في القهوة التي تناولها في بيت صديق، بوجود أصدقاء، وفي وقت محدَّد يعرفه وديع والمضيف والضيوف والجهات التي تربطهم بها علاقات أجهزة. ضاقت الدائرة على ما توحي به إسرائيل، زاعمة أنها صنّعت الشوكولاته السويسرية، وغلّفتها وأرسلتها إليه. هذا الإدعاء السخيف لا يستهدف سوى خلق صورة للموساد الذي لا يهزم، وحرْفِ الأضواء عن الفاعل الحقيقي.

كذا هم أعداؤنا، يبطشون بالأطفال والنساء والرجال، ويدمرون البيوت، ويقتلعون الأشجار ليحرموا البشر من الثمر. إنهم غزاة، لصوص، مجرمون، جشعون للمال. فاستغلال الشعوب واستعبادها أيسر السبل لنهب الثروات، وسرقة الخيرات، وامتصاص جهود البشر المستعبدين في الأرض. يقتلون أطفالنا وشبابنا، لتعزيز تجارتهم ببيع الأطراف على امتداد العالم. يستأصلون القلوب والأكباد والكلى وشبكيّات العيون، من أجساد الشهداء، فتبيعها شركاتهم الغربية بأبهظ الأثمان.

في سبيل الخلاص من تلك العذابات، يستمر النضال من أجل الحرية، لأن الحرية هي الحياة، وهي الإنسان، وهي الحب، والعشق والروح التي تضخّ في عروق البشر همّة، وتمدّ عضلهم قوة، ليعم الخير والسلام على من يستحق الحياة.

وديع حداد ثائر من ثوار هذا الجزء المستضعف من الأرض. عملاق نهض، رافعاً راية الحرية، منادياً بالبشر أن هبّوا «وراء العدو في كل مكان».

آن الأوان ليسود مبدأ أن قتل إنسان جريمة لا تغتفر، وقتل شعب مجزرة لا تواجَه إلاّ بالحديد والنار. ولن يحصد أحد إلاّ ما زرع.

وديع حداد معلّم، سيّد، قائد ثورة على الأغلال والاستغلال. إنه رمز لحريةٍ سبق لفقراء فرنسا أن دكّوا من أجلها حصن الباستيل؛ وثار في سبيلها نلسون مانديلا؛ ودفع ثمناً لها ملايين الصينيين والفيتناميين والكمبوديين والروس.

إنها الحرية الثمينة التي، دونها، لا قيمة للإنسان، فيستحيل عبداً. إنها الحياة والعشق. هذا هو وديع حداد. وهذا هو الأفق الذي تغرب عنه الشمس. سيظلّ يناديكم، كما ينادي كل المستضعفين في الأرض، أن هبّوا «وراء العدو في كل مكان».

الفصل الثامن والعشرون

الأيام الأخيرة في ألمانيا ـ رحلة الوداع

إنها الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٧ آذار/ مارس ١٩٧٨. بدت قاعات مبنى كبار الزوار في مطار الجزائر في حالة غير اعتيادية، إذ انتشر عشرات ضباط الأمن والاستخبارات الجزائريين بثياب مدنية جديدة لم تحجب مسدساتهم من تحت ستراتهم. حمل بعضهم أجهزة اتصال كبيرة، لتبادل كلمات مشفّرة، بين الحين والآخر.

عند الثانية والنصف تقريباً دبّ حالٌ من الهرج والمرج، فإذا بهم يتحركون في الاتجاهات كلها داخل القاعة الكبيرة. فجأة تحرك أحدهم، كأنه المسؤول عن المجموعة، نحو الباب الرئيسي الذي يفضي إلى باحة المطار، وإلى ممرّ مدرج الطائرات، المخصّص لانتظار كبار الزوار. إندفع المسؤول مهرولاً نحو طائرة جزائرية تجارية (طائرة ركاب عادية). وقف على مسافة قريبة، إنما بعيداً عن مبنى كبار الزوار. توقفت سيارة سوداء عند درج الطائرة حالما وصل مسؤول الأمن إلى السيارة. فُتح الباب، وترجّل حامد؛ ومن الباب الثاني ترجّل أبو ماهر اليماني.

تعاوَنا على نقل الدكتور وديع حداد إلى الطائرة. إتّكأ الدكتور وديع على رفيقيْ دربه، حامد وأبو ماهر، وقد اغرورقت عيناهما بالدموع، دونما كلام أو شكوى.

بدأ جمع غفير، من رفاق الدكتور وديع وضباط الأمن، بالتوجّه نحو درج الطائرة. تأمّل «أبو هاني» الجميع، مبادراً بابتسامة أرادها أن تكون مفعمة بالثقة، لكنها عاجزة عن نقل الرسالة التي توخّاها. هي ابتسامة قوية حجبها ضباب الأفق، الذي يختفي عند حدود السفن عن أعين الناظرين. حلّقت الابتسامة، كما يحلّق طير في سماء خريفية. استدار الدكتور وديع متّكئاً على رفيقَي الدرب. صعد الدرج ببطء، كأن قدميه تتفاديان لُغماً، أو كميناً نُصب له.

أُغلق باب الطائرة. دارت المحركات، وأقلعت «الجزائرية» باتجاه برلين.

مع هبوط طائرة «إنترفلوك» الألمانية في مطار برلين، كانت السماء تخرج من الضوء إلى عبوس الليل. بدت رمادية غامضة، فتاةَ الأبيض بالأسود، وبهت الأسود بالأبيض. هبّ نسيم لا يخلو من برد يثير القشعريرة بين الفينة والأخرى، ثم يستكين. لم تمطر، لكن الجو محمّل برذاذ ناعم. هدأت محركات الطائرة، فاقترب منها بضعة رجال، وثلاث سيارات سوداء، وسيارة إسعاف واحدة. مع اقتراب العربة التي تجرّ درج الطائرة نحو باب الخروج، انهمك الركاب بجمع أمتعتهم، وإنزال حقائبهم من الرفوف فوق المقاعد. استعدّ رفيقا أبو هاني لمساعدته على النهوض والترجّل من الطائرة.

ساروا ببطء نحو الباب، وحينما أمر قبطان الطائرة بفتح الباب، ألقى وديع ذراعيه عن كتفيْ رفيقيه، باذلاً ما أوتي من إرادة وعناد وصلابة ليقف دون مساعدة، وليهبط الدرج متكئاً على الحاجز الأيمن. على أرض المطار، تقدم مسؤول ألماني مؤدياً له التحية، فردّها له الدكتور وديع، مصحوباً بحامد وأبو ماهر. سار الدكتور وديع خطوات قليلة قبل ركوب سيارة الإسعاف. كان مرفوع الهامة، متأهّباً إلى الأمام ـ لا أدري ما كان يدور في ذهنه. خطواته تنمّ عن إباء وأنفة

وكبرياء، وابتسامته تسخر من الموت البطيء، وأصابعه الرفيعة الدقيقة تعزف لحن الحياة والنضال والبطولة والتضحية.

توارت سيارة الإسعاف، متبوعة بالسيارات السوداء، نحو المستشفى حيث سيتلقى العلاج.

عُلم لدى أوساط محدودة في بيروت أن الدكتور وديع حداد نُقل إلى ألمانيا الديموقراطية، قيد الإشراف الطبي المكثّف، إذ تدهورت حالته، بعد أن أقرّ الأطباء في الجزائر بعجزهم عن معالجة حالته غير المسبوقة. للأسف، لم يضمّ الفريق الطبي المشرف على معالجة الدكتور وديع حداد خيرة أطباء الجزائر، بل استعانوا بأطباء مهرة أمثال الدكتور نجيب أبو حيدر والدكتور منير شماعة من لبنان ـ صديقين حميمين للدكتور جورج حبش والدكتور وديع حداد ـ بمشاركة خبراء في تحليل الدم من الولايات المتحدة واليونان.

الدكتور جورج حبش هو مَن طلب رسمياً من الألمان استقبال الدكتور وديع حداد ومعالجته. بعد عشرين يوماً، تقريباً، على وصول الدكتور وديع إلى ألمانيا، تسلمتُ منه «تلكس» يطلب مني التوجه إلى ألمانيا لحضور «اجتماع عمل»، عند الساعة العاشرة من ٢٨/٣/١٩٧٨.

كأن الأمور اعتيادية. هكذا، بكل هدوء، يدعوني الدكتور وديع إلى حضور اجتماع عمل! على الفور، طلبت من سكرتيرتي ترتيب الحجز والتذكرة، كي أصل في الموعد المحدَّد، أي صباح ٢٨/٣/١٩٧٨. وهكذا كان. حسب تقاليد المكتب السياسي للجبهة الشعبية، فيوم ٢٨/٣/١٩٧٨ هو يوم للاجتماع نصف الشهري للمكتب. عزمت على حضور الاجتماع كي أطلب إذناً للسفر إلى برلين لزيارة الدكتور وديع حداد فتوجهت إلى منطقة «الفاكهاني». دخلت القاعة. بنظرة سريعة تفحصت الحضور. لم يكن الدكتور جورج حبش متواجداً، رغم دقة مواعيده وحرصه على أن يكون أول الحاضرين وآخر المغادرين. غاب آخرون عن

الاجتماع. نظرت إلى أبو ماهر اليماني نظرة تساؤل: هل توفي أبو هاني؟ أجابتني دموعه الغزيرة، دون كلام. وأُلغي اجتماع العمل.

غاب جسد وديع القائد، المهندس، صاحب النظرية الثورية الجديدة، وقائد التحالف الثوري العالمي ضد الإمبريالية والصهيونية.

أعلنت الجبال الشامخة، والغيوم التي تلامسها، حدادها على عَلَم وقائد ومهندس ومفكر. أمثاله ندرة في التاريخ. أنهك العدو اللاهث وراءه على مرّ حياته النضالية.

أُلغي اجتماع المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي أعلنت الحداد على وديع حداد الشهيد، الذي لم يكفّ عن العمل، طوال حياته رغم موته شاباً.

لم تُحدَّد مهمات معيّنة لأعضاء المكتب السياسي، فشعرتُ بحرية التصرف. نَعت الجبهة الشعبية وديع حداد عضواً في المكتب السياسي للجبهة، رغم أن اللجنة المركزية للجبهة فصلته، بعد تخفيض مرتبته. أطلقت عليه لقب القائد، باعتباره أحد مؤسسيها. وهذه حقيقة دامغة.

غادر أبو ماهر اليماني على عجل إلى برلين، لمواكبة جثمان الشهيد وديع إلى بغداد، حيث سيُدفن. إشارة إلى أن أبو ماهر استعاد مهماته عضواً في المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

أنجز الإخوة المسؤولون في بغداد الاستعدادات لجنازة رسمية وشعبية تليق بالدكتور وديع. نقلت الطائرة العراقية، من برلين إلى بغداد، جثمان الشهيد وديع حداد يرافقه الأخوان أبو ماهر اليماني وحامد (سليم أبو سالم). حُفظ الجثمان في براد المستشفى، إلى حين إتمام ترتيبات الجنازة الحاشدة. في هذه الأثناء، وصل

إلى بغداد الدكتور جورج حبش، برفقة زوجته هيلدا، وعدد من قيادات حركة القوميين العرب، والجبهة الشعبية، وأنا من بينهم.

سارت الجنازة الضخمة، تتقدمها المراسم العسكرية، وعربة المدفع التي حملت جثمان القائد الراحل. تهادى خلفهم كبار المشيّعين، على رأسهم الدكتور حبش، ورفاق وديع، والمسؤولون العراقيون، وعائلته أم هاني، وهاني، وجموع غفيرة من الجماهير الحزينة على وداع البطل الشهيد.

أقامت الجبهة الشعبية سرادقاً قرب مقرها في بغداد لتلقّي العزاء من آلاف المواطنين والمسؤولين المتوافدين، تعبيراً عن حزنهم ومساندتهم للنضال الفلسطيني. على مدى ثلاثة أيام، تردّدت الأناشيد الوطنية والشعارات الثورية، ومقتطفات من أقوال وديع حداد، لا سيما شعاره «وراء العدو في كل مكان».

بإسدال ستار الموت على القائد، المهندس الفذّ للعمل الثوري ضد مصالح الإمبريالية والصهيونية، بزغت مرحلة جديدة.

غاب المعلم، لكن العالم لا يزال يتلمّس بصماته في أعمال ثورية باهرة، ويشهد تزويراً لدوره الكفاحي، الذي شكّل خطاً ثورياً جديداً أضيف إلى الخطوط الثورية، ممّا تفتّقت عنه أذهان عظماء الثوريين.

انتخاب مسوؤل خلفاً للقائد الراحل وديع حداد

قلّة هم القادة الذين حظوا بجنازة رسمية وشعبية لائقة كتلك التي شيّعت الشهيد وديع حداد إلى منطقة المسيح، في بغداد، حيث دفن في مقبرة تابعة للكنيسة. تلقّى الدكتور جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبية، تعازي آلاف المسؤولين وأبناء الشعبين العراقي والفلسطيني باستشهاد القائد وديع حداد.

لم أرَ «الحكيم» يذرف الدمع من قبل، لكنني شهدت على ذلك في وداعه رفيق دربه، وزميله في الدراسة والعمل الشعبي، والنضال في حركة القوميين العرب، والكفاح ضد الغزاة غداة تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

نبعَ كلام «الحكيم» من القلب ـ القلب المنفطر لفقدان أعزّ الأصدقاء، وأشجع الزملاء. لم يتوانَ الحكيم عن إيلاء الدكتور وديع حداد حقه، إذ وصفه قائداً شجاعاً، لم يتراجع لحظة عن التصدي للعدو، ولم يمتنع عن بذل الغالي والنفيس في سبيل تحرير الوطن.

ودّع ابن اللد جورج حبش، ابن صفد وديع حداد، إنما كان الوداع في بغداد. في لمحة كنت تشاهد بأمّ العين ما ناضل من أجله الحكيمان: قوميان متآخيان

يخوضان كفاحاً مسلّحاً لتحرير فلسطين، عقب مساهمتهما في تحرير اليمن والجزائر. ترى الحكيم ينعى رفيقه على أرض العراق.

ولّى أسبوع العزاء الذي نكّست فيه الأعلام، في بغداد وفلسطين ومخيمات الشتات. اجتمع الإطار القيادي للفرع الخارجي ـ فرع العمليات الخاصة، في بغداد. لم يطل النقاش، فقد انتُخب سليم أبو سالم خلفاً كمسؤول للفرع الخارجي. كذلك انتُخب أعضاء القيادة، ووُزّعت المهمّات عليهم، فانتخب زكي هللو مسؤولاً عسكرياً (تعرّض لمحاولة اغتيال في إسبانيا، فأصيب بالشلل. هو الآن مُقعد). كما انتخب آخرون لمهمات دقيقة محدّدة.

لكن المعلم غاب، فغاب معه العقل والقائد المخطط.

على المستوى الشخصي، لم أعد مطّلعاً على المجريات، لكن النتائج لم تتّضح لي وحدي، بل للعالم أجمع. توقف العمل، وتهاوت روابط التحالف الدولي، ما شجّع أجهزة الاستخبارات للانقضاض على فصائل التحالف الدولي الواحد تلو الآخر. كأن رحيل وديع حداد هو غياب الحماية عن هذه الفصائل.

الملاحق

ملحق (١)

وديع حداد والعمل القومي

العمل الإنساني مثالٌ يُحتذى في تطوّع الطبيبين الشابين جورج حبش ووديع حداد، للعمل في مخيمات اللاجئين المخصصة لإيواء الفلسطينيين، ممّن هجّرتهم العصابات الصهيونية من مدنهم وبلداتهم وقراهم. إلاّ أن عملهما تجاوز البعد الإنساني، ليغدو نضالاً وطنياً وقومياً.

الدوافع الإنسانية هي حافز لعدد كبير من المتطوعين العرب وغير العرب، فالمأساة التي سببتها المجازر الإرهابية الإسرائيلية كانت تحرّك مشاعر كل إنسان يحترم نفسه، ويحترم حقوق الإنسان، ويحترم الحضارة الإنسانية.

أما جورج حبش ووديع حداد، فحالة استثنائية لا تتكرر: كانا يعالجان اللاجئين المنكوبين، وفي الوقت ذاته يحقنون إبر الوطنية والعزم في عروق المهجّرين من وطنهم. كانا وآخرون مؤمنين بطروحات التحرير والعودة ومواجهة إسرائيل، في الوقت الذي يعالجون المرضى مجاناً، ويوفرون لهم الدواء. إنما العلاج الحقيقي هو النضال ضد العدوّ، لتحرير فلسطين، وثمة طريق واحد: تكاتف الأمة العربية ووحدتها. سادت الأفكار العروبية، وامتدت تأثيراتها، فتناسقت بين زملاء الدكتور جورج حبش ووديع حداد في الجامعة الأميركية. أصبحت الهتافات

واحدة، من الخليج إلى المحيط: الوحدة العربية طريق تحرير فلسطين. كان طبيعياً أن يتركّز الجهد المبذول، سياسياً وتنظيمياً، في الأردن، حيث المخيمات الكبرى، وحيث العلاقة موحدة على الصعيد الشعبي. لا فرق بين فلسطيني وأردني، شعب واحد، لا شعبين. إستحالت مخيمات العائدين المنتشرة في قطاع غزة والضفة الغربية، نهراً لا ينضب من البشر المتشوقين للعمل المنظم في سبيل تحرير الأرض، والعودة إلى الديار. صحيح أن القوات العربية تدخلت للحؤول دون ترحيل الفلسطينيين، فإن محاولتها باءت بالفشل. فقد أُخرج هؤلاء من بيوتهم وبلداتهم ومدنهم، تحت شعارات رفعتها القوات العربية بأن وضعهم مؤقت وبأن عودتهم ستتحقق قريباً بالقوة العربية. تبيّن لهم لاحقاً أن تلك القوات العربية تأتمر بأوامر مَن قرروا إقامة دولة إسرائيل.

طفقت أفكار حركة القوميين العرب تنتشر بين الفلسطينيين، فانصبّ جهد الطبيبين الشابين، جورج حبش ووديع حداد، على تأسيس تنظيم قوي لحركة القوميين العرب، حيث الأواصر القومية عروة وثقى توحّد أعضاء التنظيم المتنامي في الوطن العربي بأكمله. فرفعت حركة القوميين العرب شعار «الوحدة العربية طريق تحرير فلسطين».

إستهدف نشاط الدكتور جورج حبش والدكتور وديع حداد في الأردن، المثقفين واللاجئين. إستقطبت الحركة إلى صفوفها شخصيات أردنية بارزة، من أمثال فايز قدورة، وزكريا الطاهر، ونزار جردانه، وعلي منكو، وحمد الفرحان، والدكتور صبحي غوشه، ووصفي عنبتاوي، وتوفيق أبو شريف، والدكتور زاهي قمحاوي، وعبد السلام قمحاوي، وغسان قمحاوي، وعزام كنعان، وياسر كمال.

هي أجيال من المثقفين المتحمّسين للانضمام إلى صفوف حركة القوميين العرب، أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات. في الوقت نفسه، انضوى تحت لواء

الحركة قادة شعبيّون من المخيمات، على رأسهم حمدي مطر، ومصطفى الزبري، ومحمد الطيراوي، وغيرهم. إجمالاً، كانت التشكيلة الطبقية متنوعّة، شاملةً فقراء وأغنياء يجمعهم هدفا الوحدة العربية وتحرير فلسطين. وما لبثت أن تشكلت لجنة تنفيذية لحركة القوميين العرب، ضمّت ممثلين لقيادة الحركة في كل إقليم عربي (سورية والعراق واليمن وليبيا وفلسطين والأردن والبحرين). المهمات محدّدة بوضوح: دعم النضال العربي للتحرّر من الاستعمار في الجزائر واليمن الجنوبي، التغيير للتخلص من الرجعية العربية، والعمل على تعزيز الوحدة العربية وتحرير فلسطين. فدعمت الحركة الثورة الجزائرية بكل إمكاناتها، وأطلقت الكفاح المسلح في اليمن الجنوبي ضد القوات البريطانية (الجبهة القومية لتحرير اليمن الجنوبي المحتل)، فضلاً عن مساهمتها الفعّالة في تنمية الحسّ القومي والتعبئة القومية في الوطن العربي. كذلك تحالفت مع القائد جمال عبد الناصر، وامتدّ نفوذها بعيداً، فلعبت دوراً حيوياً في الإطاحة بالنظام الملكي في العراق، وفي تحويل العراق إلى جمهورية سرعان ما سيطر عليها عبد الكريم قاسم. إلا أن الحركة عادت وأطاحت به لاحقاً، مستردّةً للعراق وجهه القومي. ليس هذا وحسب، بل كان للحركة الباع الطولى في ترسيخ الوحدة بين سورية ومصر، جاهدة في منع انفصالهما. ولا نغفل أن الحركة دافعت عن عروبة لبنان أثناء إنزال القوات الأميركية على شواطئه، أواخر الخمسينيات.

لعل هذه الأدوار التحرّرية والقومية، جعلت من الحركة هدفاً للمستعمرين ولحلفائهم في الوطن العربي، فاتخذت منها القوى المعادية مواقف مماثلة لتلك التي اتخذتها من جمال عبد الناصر، قائد حركة التحرر العربي آنذاك. تعزّزت المواقف العدائية جرّاء التحالف بين حركة القوميين العرب وجمال عبد الناصر، إلى حدّ تعذّر التمييز بين شعارات التيار الناصري وشعارات حركة القوميين العرب.

تحولت الحركة إلى حركة قومية، لتحتضن تياراً ناصرياً قوياً ساد الوطن العربي

كله. كانت الكويت مثالاً جلياً على قوة الحركة شعبياً، إذ انطلقت المظاهرات الشعبية المؤيّدة للحركة، فتمكنت من الفوز بمقاعد برلمانية عديدة. كذلك شهدت التطورات في العراق على قوة الحركة، من خلال الانتفاضة الشعبية العارمة التي أطاحت بعبد الكريم قاسم، وسرّعت انضمام العراق إلى الوحدة الثلاثية: مصر، سوريا، العراق. وسرعان ما اكتظت شوارع الأردن بالمظاهرات المطالبة بالانضمام إلى الوحدة، في الستينيات. نتيجة تنامي نفوذها على صعيد الوطن العربي، تعرّضت الحركة لموجة من العنف الرجعي. فاعتُقل قادتها وكوادرها في الأردن، وحيكت الدسائس لإفساد العلاقة بين الجبهة القومية ومصر، فكان انفصال سورية عن مصر، واندثار أول تجربة للوحدة العربية.

اضطر عدد من الكوادر والقيادات للخروج من ساحات عملهم، للإقامة في أقطار أخرى. رحل بعضهم إلى القاهرة (مثل فايز قدورة وزكريا الطاهر)، ورحل جورج حبش ـ بعد فراره من سجن الجفر الصحراوي في الأردن ـ إلى سورية، فلبنان. أما وديع حداد فخرج من سجن الجفر إلى سورية، فلبنان. كما لجأ عدد كبير من الضباط السوريين والعراقيين إلى القاهرة. ساد في تلك الفترة مدّ استعماري عنيف، استُخدمت فيه القوة ضد القيادات والكوادر القومية والوطنية. واقتيد العشرات إلى سجون الاستخبارات.

تلك كانت الحال قبل حرب عام ١٩٦٧. إثر اندلاع الحرب وانتصار إسرائيل، تفككت آلة القمع العربية، فخرج المئات من السجون ليساهموا مجدداً في العمل الوطني والقومي والتحرّري. انبثقت مرحلة جديدة بعد الجزْر الذي شهدته الحركة الوطنية، تحت وطأة أدوات القمع العربية الرسمية.

هي تطوّرات متسارعة، إنما كان للمداميك الأولى التي ثبّتها الدكتور جورج حبش والدكتور وديع حداد في الأردن، تأثير بالغ، انتقل من جيل إلى آخر حتى يومنا

هذا. فمَن فُطموا على القومية العربية، وهدف الوحدة العربية، ما زالوا وعائلاتهم متأثرين بها. لا بل يسعنا القول إن تلك القناعات والأهداف النبيلة تحولت مع الزمن إلى نوع من الجينات يتعذّر امّحاؤه.

كان القوميون العرب، ولا يزالون، خيرة الوطنيين في ديارهم، ينادون بالحرية والديموقراطية، والتخلص من الاستعمار الاقتصادي، وإنهاء التبعية الاقتصادية والسياسية. يناضلون في ساحات العمل الديموقراطي، تماماً كما في فلسطين، باذلين أرواحهم لتحرير الأرض العربية المغتصبة.

ثمة قناعات راسخة، وشعور عميق بمواجهة الأخطار المشتركة، جمعت الإخوة في حركة القوميين العرب. فغالباً ما تنشأ صداقات عميقة وثيقة، عندما يواجه البشر خطراً يتهددهم، فتراهم يوحّدون جهودهم، ويساعدون بعضهم البعض الآخر، ويثقون بعضهم بالبعض الآخر، ويهبّون لنجدة مستغيث.

لعلّ أبلغ صورة لهذه الحقائق، هي العلاقات التي تعزّزت بين فايز قدورة ووديع حداد وجورج حبش وعلي منكو وحمد الفرحان ونزار جردانه وتوفيق أبو شريف ووصفي عنبتاوي والدكتور بشير البسطامي والدكتور صبحي غوشه والدكتور منذر عنبتاوي والدكتور زاهي قمحاوي والمهندس غسان قمحاوي والدكتور وليد قمحاوي، وغيرهم. كانوا مترابطين، متضامنين، يعملون بجدّ في سبيل وحدة العرب وتحرير فلسطين.

من بين هؤلاء الإخوة، كان فايز قدورة يتابع متابعة حثيثة نشاطات جورج حبش ووديع حداد، متعاوناً معهما. فتوجه إلى مصر، حيث كان الحارس الأمين على انضباط وجدّية شباب حركة القوميين العرب، المقيمين في القاهرة إما لجوءاً سياسياً، أو تحصيلاً للتعليم الجامعي. لم يتوانَ قدورة عن الذهاب إلى بيروت،

بناءً على طلب الحركة، فتابع العمل مع الدكتور وديع حداد. وبعد هزيمة عام ١٩٦٧، سار يداً بيد مع رفاقه وإخوته، على درب تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وتدريب الكوادر، وتزويدهم بالسلاح. التزم قدورة بإخلاصه لمبادئه وأهداف أمته، إلى أن وافته المنية.

من جهته، كان أبو بسام قيادياً يحترمه الجميع ويحبونه. فروح الدعابة لم تفارقه يوماً، وتفانيه لأهداف أمتنا بالوحدة والتحرر لم يغب عن عينيه. لا شك في أن افتقاده هو شعور لا يمسّني شخصياً وحسب، بل يمسّ كل من عرف أبو بسام، ابن صفد.

لا مجال أمامي، في هذا الكتاب المخصّص لشرح نظرية الدكتور وديع حداد وقدراته المتفوقة، للحديث عن كل فرد من أفراد تلك الطليعة العربية. لكن إيفاء كل فرد منهم حقه، أمر لا بد منه. فقد صنعوا فصولاً من التاريخ السياسي الحديث، تاريخ بداية النهوض القومي العربي. وسوف تدرك الأجيال المقبلة، وتتعرّف إلى الحقائق حول التضحيات التي بذلها هؤلاء في سبيل إعلاء شأن الأمة العربية.

ملحق (٢)

قادة المقاتلين الألمان (الفصائل الثورية الألمانية)

الدفعة الأولى

١. بيترا سترولز
٢. بيترا شليم
٣. ألكسي شولتز
٤. بريجيت أسدونك
٥. بيتر هومان
٦. غلبرت ماينهوف
٧. أليس ستاكفياك
٨. إيرين غورغنز
٩. بياتي ستم
١٠. جانسن ستروم

الدفعة الثانية

١. أريك غروسدات
٢. كاترينا هامرشميدت
٣. كاي فيرنر ألماخ
٤. كريستا أيكس
٥. أنجيلا بيكر
٦. إيبرهارد بيكر
٧. يورغ لانغ
٨. سيموند ديبوس
٩. هلموت بول
١٠. رولاند أوغستين
١١. بيترا رولاند

الدفعة الثالثة

١ . سيغفريد هوسنر
٢ . مارغريت شيلر
٣ . كارل هاينز دلو
٤ . كلاوس ينشكي
٥ . كلاوس سيبل
٦ . سيغفريد هوفمان
٧ . حنه أليس كرابي
٨ . فريد ريكي كرابي
٩ . كارمن رول
١٠ . برنهارد بوسنر
١١ . إليزابث فون دايك
١٢ . غيرهارد مولر
١٣ . كورت فوكرز
١٤ . رالف بابتست فرايدريخ
١٥ . رولاند ماير

الدفعة الرابعة

١ . سيلكي ويت
٢ . سيغفريد ستينبك
٣ . صابرين شميتز
٤ . بيتر بورغن بوخ
٥ . بيتر سومنبرغ
٦ . نوربرت كرويل
٧ . غابريل كروخر تيديمان
٨ . برنارد براون
٩ . أنجي فيت
١٠ . إنغريد بارباس
١١ . كريستيان كلار
١٢ . أديلايد شولتز
١٣ . لوتز توفر
١٤ . ويلي بيتر ستول
١٥ . مونيكا هلبتغ
١٦ . يوهانس تيمي
١٧ . غلد شرويدر
١٨ . كريستيانا دوميلاين
١٩ . فوكر شبيغل
٢٠ . رولف ڤارغتر
٢١ . كريستوف ڤختمانجل
٢٢ . كريستيان كوبي
٢٣ . ڤرنر لوتز
٢٤ . ڤلفغانغ بيف

نبذة عن المؤلف

ولد بسام أبو شريف في مدينة القدس.

- أنهى دراسته الجامعية في الجامعة الأميركية - بيروت.
- انتخب عضواً للمكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في العام ١٩٧٢.
- تعرض لمحاولة اغتيال قام بها جهاز الموساد الإسرائيلي في ٢٥/٧/١٩٧٢ عندما أرسل له رئيس جهاز الموساد آنذاك زفي زامير كتاباً ملغوماً انفجر في وجهه في مكاتب مجلة «الهدف» ببيروت.
- عضو في المجلس الوطني الفلسطيني منذ العام ١٩٧٤.
- في العام ١٩٧٨ انتخب نائباً لرئيس منظمة الصحافيين العالمية.
- عين مستشاراً لياسر عرفات في العام ١٩٨٧.
- في العام ١٩٨٨ أحدث مقاله «آفاق السلام في الشرق الأوسط». هزة كبيرة إذ تناول فيه الحل السياسي الذي يقوم على أساس دولتين على أرض فلسطين - دولة إسرائيل ودولة فلسطين - استناداً إلى قرارات الشرعية الدولية وعبر مفاوضات سياسية بين

إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وفي ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ١٩٨٨ أقر المجلس الوطني الفلسطيني الأفكار الأساسية التي وردت في المقال الذي أطلق عليه منذ ذلك الوقت: «وثيقة أبو شريف».

- في العام ١٩٨٨ كان له دور بارز في الحوار السياسي عبر السويد مع الإدارة الأميركية (شولتز) للتوصل إلى اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية وبدء حوار رسمي معها.
- اختارت «نيويورك تايمز» مقاله «أعطوا السلام تأشيرة» كأحد أفضل مئة مقال نشرت على صفحات «نيويورك تايمز» خلال عشرين عاماً.

له عدة مؤلفات منها:

- **حركات التحرر والإعلام**، بيروت ١٩٧٨.
- **الحل السياسي**، بيروت ١٩٨٠.
- **أوراق أيلول**، بيروت ١٩٧٩.
- **أفضل الأعداء**، ١٩٩٥.
- **بنيامين نتنياهو ــ الصعود والهبوط**، ٢٠٠٠.
- **ياسر عرفات**، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٥.
- **بيروت مدينتي**، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠١٠.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

فهرس الأماكن



▪ يعجز كتاب واحد عن إيفاء الدكتور **وديع حدّاد** حقّه، فقد كانت حياته كخلية نحل لا تكلّ ولا ترتاح، ولا تكف عن العمل. وما أبلغ تلك البرقية التي وصلتني منه قبل يوم من وفاته يحدِّد لي فيها موعد عمل.

▪ الدكتور **وديع حدّاد** قوميّ عربي من عائلة فلسطينية مسيحية. ذاق هو وأهله ما ذاق شعبه من مرارة الترحيل بقوة السلاح الغاشم، من أرضه وبيته ومدينته صفد الجميله. وهو طالب في الجامعة الأميركية في بيروت، أسرع إلى فلسطين لنجدة أهله وشعبه في أيار ١٩٤٨ من دموية الجرائم الصهيونية التي أرتكبت ضد أهل فلسطين، وضد الإنسانية. وولّدت فيه إرادة التحدي والمقاومة والإنتصار.

▪ نظّم آلاف الشباب العرب ودرّبهم ليخوضوا معركة الحرية ودحر الظالمين.

▪ بلوَر مدرسة في العمل الثوري مضيفاً بذلك إلى الفكر الثوري التحريري خطاً استراتيجياً جديداً يقوم على بناء تحالف مبنيّ بروابط تنظيمية بين فصائل ثورية في المجتمعات الرأسمالية وحركة التحرر العربي التي تمثّلت في السبعينيات بحركة التحرير الفلسطيني، وطوَّر هذا التحالف ليصبح جبهة تقاتل العدو الصهيوني وحلفاءه بقيادة حركة التحرير الوطني في الشرق العربي. كما طوَّر وسائل القتال وتكتيكاته ممّا جعل أعداء أمّتنا العربية يلهثون وراءه.

▪ قاد **وديع حدّاد** مقاومة لا تتوقف ضد أعداء الأمة العربية، وجنَّدت إسرائيل وحلفاؤها في الغرب والشرق كل الطاقات لتصفيته.

▪ العقل المقاوم والمبدع في فنون وأشكال المقاومة كان مطلوباً حياً أو ميتاً لجميع القوى والدول المعادية للشعوب وحقّها في تقرير المصير والحرية والعيش الكريم.

▪ هذا الكتاب هو مرجع متواضع عن هذا العقل المبدع في مقاومة أعداء الشعوب.

